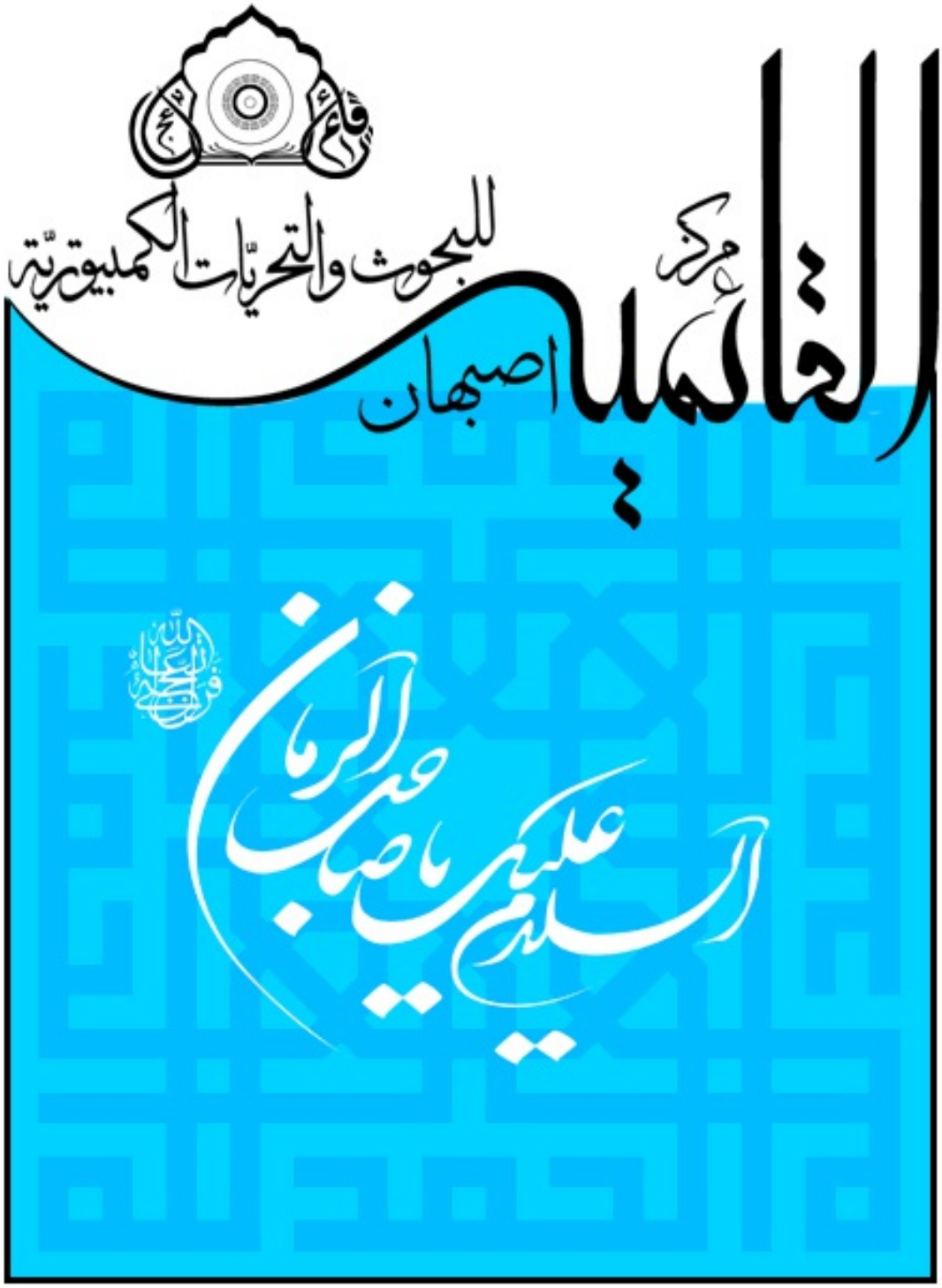

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

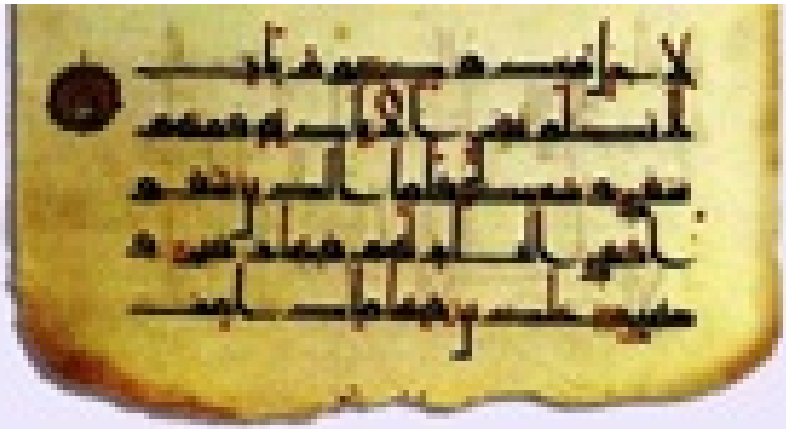

موسوعة الدراسات القرآنية

الصوت اللغوي في القرآن

الدكتور محمد حسين علي الصغير
أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة الكوفة

دار المؤرخ العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الصوت اللغوى فى القران

كاتب:

محمدحسينعلى الصغير

نشرت فى الطباعة:

دارالمورخ العربى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
الصوت اللغوی فی القرآن ----- ۸
اشارة ----- ۸
المقدمة: ----- ۸
الفصل الأول أبعاد الصوت اللغوی ----- ۱۱
اشارة ----- ۱۱
مصطلح الصوت اللغوی: ----- ۱۱
تقسیم الصوت بین العرب و الأوروبیین: ----- ۱۴
تطور الصوت اللغوی: ----- ۱۷
نظریة الصوت اللغوی ----- ۲۱
الفصل الثانی منهجیة البحث الصوتی ----- ۲۴
اشارة ----- ۲۴
الخلیل و مدرسته الصوتیة ----- ۲۴
الصوت فی منهجیة سیبویه ----- ۳۲
الفکر الصوتی عند ابن جنی ----- ۳۴
اشارة ----- ۳۴
۱- مصدر الصوت و مصطلح المقطع: ----- ۳۸
۲- جهاز الصوت المنتقل: ----- ۴۰
۳- أثر المسموعات فی تکوین الأصوات: ----- ۴۲
۴- محاکاة الأصوات: ----- ۴۳
القرآن و الصوت اللغوی ----- ۴۴
الفصل الثالث الصوت اللغوی فی فواتح السور القرآنیة ----- ۴۸
الفصل الرابع الصوت اللغوی فی الأداء القرآنی ----- ۶۰

اشارة ----- ۶۰
أصول الأداء القرآنی: ----- ۶۰
مهمة الوقف فی الأداء القرآنی: ----- ۶۲
نصاعة الصوت فی الأداء القرآنی: ----- ۶۴
الصوت الأقوی فی الأداء القرآنی: ----- ۶۶
توظیف الأداء القرآنی فی الأحکام: ----- ۷۸
اشارة ----- ۷۸
أولا: ----- ۷۹
ثانیا: ----- ۸۰
ثالثا: ----- ۸۰
رابعا: ----- ۸۱
خامسا: ----- ۸۱
الفصل الخامس الصوت اللغوی فی فواصل الآیات القرآنیة ----- ۸۲
اشارة ----- ۸۲
مصطلح الفاصلة فی القرآن: ----- ۸۲
معرفة فواصل القرآن صوتیا: ----- ۸۵
ظواهر الملحظ الصوتی فی فواصل الآیات: ----- ۸۸
الإیقاع الصوتی فی موسیقی الفواصل: ----- ۹۰
الفصل السادس الدلالة الصوتیة فی القرآن ----- ۹۳
اشارة ----- ۹۳
مظاهر الدلالة الصوتیة: ----- ۹۴
دلالة الفزع الهائل: ----- ۹۵
الإغراق فی مدّ الصوت و استطالته: ----- ۹۷
الصیغة الصوتیة الواحدة: ----- ۹۸

دلالة الصدى الحالم: ---- ۱۰۲
دلالة النغم الصارم: ---- ۱۰۴
الصوت بين الشدة و اللين: ---- ۱۰۶
الألفاظ دالة على الأصوات: ---- ۱۰۸
اللفظ المناسب للصوت المناسب: ---- ۱۱۰
«خاتمة المطاف» ---- ۱۱۲
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---- ۱۱۷

الصوت اللغوی فی القرآن

اشارة

الصوت اللغوی فی القران

محمدحسین علی الصغیر

موضوع:

قرآن – مسائل ادبی

سرشناسه فارسی علی الصغیر، محمدحسین

محل انتشاربیروت = دارالمورخ العربی = ۱۴۲۰ ق

صفحه۲۱۵ ص .

شناسه هاقرآن – مسائل لغوی = عنوان

رده بندی کنگره

BP۸۲،/ع۸ص۹

رده بندی دیویی

۱۵۳/،۲۹۷

اللغوی فی القرآن

alsout allghoui fi alkra'n

تألیف: محمد حسین علی الصغیر تاریخ النشر: ۰۱/۰۱/۲۰۰۰

الناشر: دار المؤرخ العربی السلسلة: موسوعة الدراسات القرآنیة

النوع: ورقی غلاف عادی،

حجم: ۲۴×۱۷،

عدد الصفحات: ۲۱۴ صفحة

الطبعة: ۱ مجلدات: ۱

نام کتاب: الصوت اللغوی فی القرآن

نویسنده: محمد حسین علی الصغیر

موضوع: اعجاز ادبی

تاریخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

سال چاپ: ۱۴۲۰ / ۲۰۰۰

نوبت چاپ: اوّل

المقدمة:

بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا بحث قد يكون جديدا فى موضوعه، أو أصيلا فى نتائجه، و لا أدعى ذلك كونى صاحب هذا البحث، أو كاتب فصوله المتواضعة، و لكن طرافة موضوعه، و جدة مباحثه، و دقة تطبيقاته ساقت لمثل هذا الادعاء.

هناك جدب حضارى لدى جملة من المثقفين، و طائفة من المستشرقين، يوحى بأصالة النظريات النقدية و الفنية و اللغوية فى الدراسات الأوروبية، دون ريادة لحضارة الأمة العربية التى أسست معالم الثقافة و الفن و الإبداع.

و قد جاء هذا البحث مؤصلا للنظرية العربية فى علم الأصوات:

Phonetics

التى تطورت فيما بعد للتخصص فى علم الصوت الوظيفى:

التشكيلى Phonology و كان مجال ذلك تطبيقا و تنظيرا فى أرقى نصّ عربى، و هو القرآن الكريم، لذلك فالصوت اللغوى فى حياة التراث ليس جديدا، و لكنه فى القرآن- فيما أزعم- يوحى بالجدة و الطرافة و الحداثة.

فالقرآن كتاب اللّه العظيم، و معجزة محمد صلى اللّه عليه و آله و سلّم الخالدة، و تطبيق البحث الصوتى قرآنيا، و فيه صعوبة و معاناة، و تسخير مفاهيم الصوت للقرآن ليس أمرا يسيرا، فالقرآن و هو عربى العبارة يتسع لمئات الجزئيات فى العربية، و العربية و هى عالمية اللغة تسير مع العالم فى أصواته السابحة،

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶

فاللغات أصوات، و مهمة هذا البحث ضم هذه المفاهيم فى وحدة فنية لا تنفصل، فخاض غمار هذا الموضوع الشائك، و خرج بجملة صالحة من النتائج و الكشوف التى أرجو متفائلا أن تضيف شيئا ما للمكتبة القرآنية بخاصة، و المكتبة العربية بعامة، و المكتبة الصوتية فى العالم مطلقا.

إن التماس النظريات الصوتية المعقدة فى رحاب القرآن العظيم مما يحتاج إلى الصبر و الأناة، و استكناه فصائل هذا الملحظ الدقيق مما يدعو إلى الترصد و التصدى و الاستنتاج، فالصوتيات علم سبق إليه علماء العربية فيما ثبت للبحث، و تناوله الأوروبيون بالنقد و التمحيص فى ضوء أجهزة العلم المتطورة، و كان حصيلة هذا السبق و هذا التناول المزيد من الدراسات المنهجية المتقدمة التى ما زال للبحث فيها فضل استزادة و زيادة، و للباحث فيها موطن تشبث و استقراء. بيد أن إخضاع هذه المقاييس الفنية فى الأشكال، و الموازين الصوتية فى القياسات لمحكم الآى المجيد لا يتأتى بيسر و سماح، و لا يتم بتجوال مجمعى بسيط، فليس السبيل معبّدا، و لا المعالم من الوضوح بحيث تستوعب استيعاب المسلمات البديهية، فقد تتخلل هذا و ذاك العقبات التنظيرية، و قد تعيقه قلة المصادر و الموارد، فيبقى الفكر متكلا على عبقريته فى الإبداع، و البحث معتمدا على سجيته فى الاستنباط، و الباحث بينهما قد يخطئ و يصيب، و الأسنّة من حوله مشرعة، فهو بإزاء مقارنة صعبة، و خيارات أهونها ذو عسرة و شدة متصلتين، حتى ليضيق- أحيانا- بالحديث حذر المتاهات، و تجاوز صلب الموضوع.

و مهما يكن من أمر ما قدمناه، فقد ترعرع هذا البحث المستفيض فى خصائص الصوت القرآنى و ملامحه و مميزاته فيما لم يسبق إليه صوتيا فى ستة فصول انتظمت شمل هذا الكتاب، أشير إليها هنا بالتسمية، و أحيل معها على خاتمة البحث فى استلهام النتائج، و استقراء الحقائق التى أرجو أن أفيد منها و يفيد الجيل ما نتبصر به بين يدى كنوز القرآن، و مكنونات التراث، و فضل العربية على اللغات:

الفصل الأول، و عنوانه: (أبعاد الصوت اللغوى).

و قد تناول بالبحث المركز المفردات الآتية:

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۷

۱- مصطلح الصوت اللغوى.

۲- تقسيم الصوت بين العرب و الأوروبيين.

۳- تطور الصوت اللغوی.

۴- نظریة الصوت اللغوی.

الفصل الثانی، و عنوانه: (منهجیة الدرس الصوتی).

و قد تناول بالبحث المنهجی المفردات الآتیة:

۱- الخلیل بن أحمد و مدرسته الصوتیة.

۲- الصوت فی منهجة سیبویه.

۳- الفکر الصوتی عند ابن جنی.

۴- القرآن و الصوت اللغوی.

الفصل الثالث، و عنوانه: (البحث اللغوی فی فواتح السور القرآنیة).

و قد تناول بالبحث و التمحیص المفردات الآتیة:

۱- القرآن یوجه اهتمام العرب للصوت اللغوی.

۲- أصناف الأصوات اللغویة فی فواتح السور عند الباقلانی.

۳- جدولة الصوت اللّغوی فی فواتح السور عند الزمخشری.

۴- الصدی الصوتی للحروف المقطعة عند الزرکشی.

۵- القرآن فی ترکیبه الصوتی من جنس هذه الأصوات.

الفصل الرابع، و عنوانه: (الصوت اللغوی فی الأداء القرآنی).

و قد کشف المفردات الآتیة:

۱- أصول الأداء القرآنی.

۲- مهمة الوقف فی الأداء القرآنی.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸

۳- نصاعة الصوت فی الأداء القرآنی.

۴- الصوت الأقوی فی الأداء القرآنی.

۵- توظیف الأداء القرآنی فی الأحکام.

الفصل الخامس، و عنوانه: (الصوت اللغوی فی فواصل الآیات القرآنیة).

و قد تناول بالبحث التحلیلی المفردات الآتیة:

۱- مصطلح الفاصلة فی القرآن.

۲- معرفة فواصل القرآن صوتیا.

۳- ظواهر الملحظ الصوتی فی فواصل الآیات.

۴- الإیقاع الصوتی فی موسیقی الفواصل.

الفصل السادس، و عنوانه: (الدلالة الصوتیة فی القرآن).

و قد تناول مظاهر الدلالة الصوتیة، و لمس أبعادها المتشعبة فی المفردات الآتیة:

۱- دلالة الفزع الهائل.

۲- الاغراق فی مدّ الصوت و استطالته.

۳- الصيغة الصوتية الواحدة.

۴- دلالة الصدى الحالم.

۵- دلالة النغم الصارم.

۶- الصوت بين الشدة و اللين.

۷- اللفظ المناسب للصوت المناسب.

و كانت خاتمة البحث فى إجمال النتائج التى توصل إليها. و اقتضت طبيعة البحث المتنوعة أن تكون مصادره القديمة و مراجعه الحديثة ذات أصناف ثلاثة:

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۹

أ- كتب الأصوات قديمها و حديثها، عربيها و أوروبيها.

ب- كتب علوم القرآن و التفسير و القراءات.

ج- كتب اللغة و التراث و الأدب و البلاغة و النقد. و بعد، فلا أدعى لهذا البحث الكمال، و لا لمباحثه الشمولية و الاستيعاب، و لكنه جذوة من ألف القرآن الهادى، و نفحة من عبيرة الفياض، وضع شاخصا فى معالم الطريق، عسى أن ينتفع به الناس و أنتفع:

«يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم» و ما توفيقى إلا بالله العلى العظيم، عليه توكلت و إليه أنيب، و هو حسبنا و نعم الوكيل.

النجف الأشرف الدكتور محمد حسين على الصغير أستاذ فى جامعة الكوفة

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱

الفصل الأول أبعاد الصوت اللغوى

اشارة

۱- مصطلح الصوت اللغوى ۲- تقسيم الصوت بين العرب و الأوروبيين ۳- تطوّر الصوت اللغوى ۴- نظرية الصوت اللغوى

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳

مصطلح الصوت اللغوى:

الصوت لغة: الجرس، و الجمع أصوات: قال ابن السكّيت: الصوت صوت الإنسان و غيره، و الصائت: الصائح، و رجل صيّت: أى شديد الصوت «۱».

و رجل صائت: حسن الصوت شديده.

و كل ضرب من الأغنيات صوت من الأصوات «۲».

و تعريف الصوت مرتبط بأبعاده و موارده، و متعين بتقييده بمراده، و قد أعطى الراغب (ت: ۵۰۲ ه) خلاصة دقيقة لهذه المصادر، بعد اعتباره الصوت الهواء المنضغط عن قرع جسمين، و هما ضربان:

صوت مجرد عن تنفس بشىء كالصوت الممتد، و تنفس بصوت ما.

و المتنفس نوعان: غير اختيارى كما يكون من الجمادات و الحيوانات.

و نوع اختيارى كما يكون من الإنسان، و هو ضربان:

۱- ضرب باليد كصوت العود و ما يجرى مجراه.

۲- ضرب بالفم فى نطق و غير نطق.

فالمنطوق منه: إما مفرد من الكلام، و إما مركب كأحد الأنواع من

---

(۱) ظ: ابن منظور، لسان العرب: مادة: صوت.

(۲) الخليل، كتاب العين: ۷/ ۱۴۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۴

الكلام. و غير النطق: كصوت الناى «۱».

و قد ثبت علميا أن الصوت اهتزازات محسوسة فى موجات الهواء، تنطلق من جهة الصوت، و تذبذب من مصانعه المصدّرة له، فتسبح فى الفضاء حتى تتلاشى، و يستقر الجزء الأكبر منها فى السمع بحسب درجة تذبذبها، فتوحى بدلائلها، فرحا أو حزنا، نهيا أو أمرا، خبرا أو إنشاء، صدى أو موسيقى، أو شيئا عاديا مما يفسره التشابك العصبى فى الدماغ، أو يترجمه الحس المتوافر فى أجهزة المخ بكل دقائقها، و لعل فى تعريف ابن سينا (ت: ۴۲۸ ه) إشارة إلى جزء من هذا التعريف، من خلال ربطه الصوت بالتموج، و اندفاعه بسرعة عند الانطلاق، فهو يقول: «الصوت تموج الهواء و دفعه بقوة و سرعة من أى سبب كان» «۲».

و لا كبير أمر فى استعراض تمرس علماء العربية بهذا النمط من الدراسات و التحديدات، و هذا النحو من تلمس الصوت فيزيائيا، و قياس سرعته و مساحته أمواجيا فقد سبق إليه جملة من الباحثين «۳».

و الصوت غنائيا: تعبير عن كل لحن يردد على نحو خاص من الترجيع فى الشعر العربى له طريقة محدودة، و رسم يعرف به، لأن الأصوات: مجموعة مختارة من أغانى العرب القديمة و المولدة فى أشعارها و مقطعاتها «أمر الرشيد المغنين عنده أن يختاروا له مائة صوت منها فعينوها له. ثم أمرهم باختيار عشرة فاختاروها، ثم أمرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا. و حكى أن هذه الثلاثة الأصوات على هذه الطرائق المذكورة لا تبقى نغمة فى الغناء إلا و هى فيها فى ألحان موسيقية ثلاثة هى: لحن معبد، و لحن ابن سريج، و لحن ابن محرز، فى جملة من الشعر العربى «۴».

و تسمية هذه الألحان بالأصوات ناظرة إلى الغناء لأنه تلحين الأشعار

---

(۱) الراغب، المفردات: ۲۸۸.

(۲) ابن سينا، أسباب حدوث الحروف: ۷.

(۳) ظ: للتفصيل كلا من: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۱۲۹- ۱۴۵ خليل العطية، فى البحث الصوتى عند العرب: ۶- ۱۱ المؤلف، منهج البحث الصوتى عند العرب:

بحث.

(۴)- ظ: أبو الفرج، الأغانى: ۱/ ۷ و ما بعدها.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵

الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة، يوقع كل منها إيقاعا عند قطعه فتكون نغمة، ثم تؤلف تلك الأنغام بعضها إلى بعض على نسب متعارفة، فيلذ سمعها لأجل ذلك التناسب، و ما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات. و ذلك أنه تبين فى علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب، فيكون صوت نصف صوت، و ربع آخر، و خمس آخر، و جزءا من أحد عشر من آخر، و اختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب «۱».

و الصوت لغويا: «عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له فى الحلق و الفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده و استطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، و تختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها» «۲» هذا التعريف لابن جنى (ت: ۳۹۲ ه-) و هو معنى بملامح الصوت اللغوى دون سواه، بدليل تحديده مقاطع الصوت التى تثنيه عن الامتداد و الاستطالة، و يسمى وقفة الانثناء مقطعا فى صيغة اصطلاحية دقيقة، نتناولها بالبحث فى موضعه، و يسمى المقطع عند الانثناء حرفا، و يميز بين الجرس الصوتى لكل حرف معجمى بحسب اختلاف مقاطع الأصوات، فتلمس لكل حرف جرسا، و لكل جرس صوتا.

و لما كانت اللغة أصواتا يعبر بها كل قوم عن أغراضهم «۳». فالصوت بوصفه لغويا فى هذه الدراسة يعنى: تتبع الظواهر الصوتية لحروف المعجم العربى، و فى القرآن العظيم بخاصة لأنه حقل البحث، و ذلك من حيث مخارج الأصوات و مدارجها، و أقسامها و أصنافها، و أحكامها و عللها، و دلائلها و خصائصها فى أحوال الجهر و الهمس و الشدة و الرخاوة، و ملامح صوائتها و صوامتها فى السكون و عند الحركة، و ضوابطها فى الأطباق و الانفتاح، مما يتهيأ تنظيره من القرآن، و يتوافر مثاله الفريد من الكتاب،

---

(۱) ظ: ابن خلدون، المقدمة: فصل فى صناعة الغناء.

(۲)- ابن جنى، سر صناعة الأعراب: ۱/ ۶.

(۳) ابن جنى، الخصائص: ۱/ ۳۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶

ضمن موازنة محدثة، و رؤية صوتية معاصرة، استلهمت التراث فى ثرائه، و تنورت الجديد فى إضاءته، فسارت بين هذين مسيرة الرائد الذى لا يكذب أهله.

و من هنا فقد توصل هذا البحث إلى أن الأوائل من علماء العربية قد مهدوا بين يدى الأوروبيين جادة البحث المنظم فى استكناه الصوت اللغوى، و أسهموا إسهاما حقيقيا فى إرساء ركائزه الأولى، مما أتاح لهم فرصة الاستقرار المبكر لحقيقة الأصوات اللغوية، و سهل عليهم خوض الموضوع بكل تفصيلاته المضنية، و ترويض جماع تعقيداته المتشعبة، مما سجل للعرب فى لغة القرآن أسبقية الكشف العلمى، و التوصل إلى النتائج التى تواضعت عليها اليوم حركة الأصواتيين العالمية بعد المرور بتجربة المعادلات الكاشفة، و الأجهزة الفيزولوجية المتطورة التى أكدت صحة المعلومات الهائلة التى ابتكرها العرب فى هذا الميدان. و مصطلح علم الأصوات مصطلح عربى أصيل، لا شك فى هذا لدنيا، و علة ذلك: النص على تسميته صراحة دون إغماض، و استعمال مدلولاته فى الاصطلاح الصوتى بكل دقة عند العرب القدامى، يقول ابن جنى (ت: ۳۹۲ ه-):

«و لكن هذا القبيل من هذا العلم، أعنى (علم الأصوات) و الحروف، له تعلق و مشاركة للموسيقى، لما فيه من صنعة الأصوات و النغم» «۱».

فهو لا- ينص عليه فحسب حتى يربطه بالإيقاع الموسيقى و النغم الصوتى، و كلاهما منه على وجه، و لا- أحسب أن هذه التسمية الصريحة بهذه الدلالة الاصطلاحية الناصعة قد سبق إليها ابن جنى من ذى قبل، فهو مبتدعها و هو مؤسس مصطلحها المسمى: (Phonemics).

إن نظرة فاحصة فى كتابه الجليل «سر صناعة الأعراب» تؤكد بكل جلاء كونه مخططا حقيقيا لعلم الأصوات متكامل العدة و الأسباب، من خلال المفردات الصوتية الفذة التى بحثها و صنف القول فيها، مبتدئا بتعداد حروف المعجم و ضبط أصولها صوتيا، و إيغاله فى وصف مخارج الحروف وصفا دقيقا، و تقسيمه الأصوات إلى الأقسام التى لم يزد عليها علم

---

(۱) ابن جنى، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۱۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۷

الصوت الحدیث جزءا ذا بال، و خوصه لما یعرض علی الحروف من حذف و ترخیم و إعلال و إبدال و إدغام و إشمام، یضاف إلی هذا رهافة صوتیة متأنقة، و ذهنیة لغویة و قادة، تمازج بین اللغة و الصوت فتخالهما کیانا واحدا متماسکا یشد بعضه بعضا، و مقارنة هذه المناحی و ملاحظتها، تجده یبتکر مصطلح (علم الأصوات) و یضعه موضع البحث الموضوعی الهادف، لهذا فإن ما تواضع علیه ابن جنی من مصطلح علم الأصوات، یمکن أن یکون الأصل الاصطلاحی الأول لما استقر علیه المصطلح الأوروبی (الفونولوجی- Phonology (: التشکیل الأصواتی، و هو یعنی کل العنایة بأثر الصوت اللغوی فی ترکیب الکلام نحویا و صرفیا فی ضوء الصوت و الإیقاع لدی بحثه المصطلح، و الذی تطور فیما بعد للکشف عن الأصوات الإنسانیة العالمیة المجهولة، و وضع لذلک مصطلحه الحدیث (الفوناتکس-Phonetics (.

تقسیم الصوت بین العرب و الأوروبیین:

لقد اتسم العرب بدقة الملاحظة، و سلامة الحس الفطری، فی تذوق الأصوات، فقسموا الحروف إلی طائفتین صوتیتین:

الأصوات الصائتة، و الأصوات الصامتة. فحروف العلة فی المعجم العربی و هی: الیاء و الواو و الألف من الصوائت، و بقیة حروف المعجم من الصوامت، و قد أدرکوا جمیع الملامح التی میزت بین هذه الأصوات، فانقسمت عندهم إلی مجهورة و مهموسة تارة، و إلی رخوة و شدیدة تارة أخری، و إلی أنسانیة و لثویة مرة، و إلی حنکیة و لهویة مرة، و من ثم تجد الإشارات الصوتیة فی کل ملحظ من ملاحظ الأصوات المترامیة لدی التقسیم.

یقول الأستاذ (کاردنر-W .H .T .Cairdener (لقد سبق العلماء العرب الأصواتیین المحدثین فی تصنیف الأصوات حیث أشاروا إلی الأصوات الأسنانیة و الحنکیة و اللهویة و اللثویة من الصوامت، و قدموا ملاحظاتهم المضبوطة عن المواقع الدقیقة للّسان و الحنک متمثلة بأصوات متعددة ... و سلموا بصحة اندراجها تحت فصیلتین هما المجهورة و المهموسة، و للعرب معرفة کبیرة بالتقسیم الثانی الأساسی للأصوات الصحیحة، حیث یسمّون القسم الأول حروف الشدة، و یقصدون به

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۸

الأصوات الصحیحة المشددة أو المتوترة. أما القسم الثانی فیسمونه حروف الرخاوة، و یقصدون به الأصوات المترخیة» «۱».

و کان من نتائج مسیرة التطور للبحث الصوتی عند الأوروبیین أن قسموا الأصوات اللغویة إلی قسمین رئیسیین:

الأول: کونسونانتس-.Consonants

الثانی: فویلز-.Vowels

و یمکن تسمیة القسم الأول بالأصوات الساکنة، و تسمیة الثانی بأصوات اللین، أو هی: الأصوات الصامتة و الأصوات الصائتة «۲». و هذا ما أشار إلیه علماء الصوت العرب منذ عهد مبکر لدی اعتبارهم الفتحة و الکسرة و الضمة، و ألف المدّ، و یاء المد، و واو المدّ: أصوات لین، و ما سواها أصواتا ساکنة.

و مع أن الاهتمام العربی المبکر کان منصبّا علی الأصوات الساکنة و هی الصامتة، و قد عبر عنها العلماء برموز کتابیة معینة إلا أنهم أشاروا إلی الأصوات اللینة و هی الصائتة، و اعتبروها أبعاض تلک الحروف.

و قد کان ابن جنی (ت: ۳۹۲ ه) سبّاقا إلی هذا الملحظ بقوله:

«اعلم أن الحرکات أبعاض حروف المد و اللین و هی: الألف و الواو و الیاء، فکما أن هذه الحروف ثلاثة فکذلک الحرکات ثلاث و هی: الفتحة و الکسرة و الضمة.

فالفتحة بعض الألف، و الکسرة بعض الیاء، و الضمة بعض الواو، و قد کان متقدموا النحویین یسمون الفتحة: الألف الصغیرة، و

الکسرة: الیاء الصغیرة، و الضمة: الواو الصغیرة، و قد کانوا فی ذلک علی طریق مستقیمة» «۳».

و الدلیل علی صحة رأی ابن جنی أن الحرکات إذا أشبعتها أصبحت حروفا، فحرکة الفتحة إذا أشبعتها و مددتها أصبحت ألفا، و حرکة الکسرة

---

(۱). ۱۶- ۱۳.Cairdener/ ThePhonet icsofArbic/ P باختصار و تصرف.

(۲) ظ: إبراهیم أنیس، الأصوات اللغویة: ۲۶.

(۳) ابن جنی، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۱۹.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۹

إذا أشبعتها و مددتها أصبحت یاء، و حرکة الضمة إذا أشبعتها و مددتها أصبحت واوا.

فکأن ابن جنی یشیر بذلک إلی التفاوت فی کمیة النطق و نوعیته، فما یسمی بالألف عبارة عن فتحة ممدودة، و ما یسمی بالیاء عبارة عن کسرة ممدودة، و ما یسمی بالواو عبارة عن ضمة ممدودة، و العکس بالعکس.

و قد أفاد من هذا الملحظ الدقیق علماء التلاوة و الأداء القرآنی، فنظموا قواعدهم تنظیما اقتطعوه من علم الأصوات فی هذا المجال فی کل من المد و الإشمام، و الإبدال و الإعلال، و الترخیم و الإدغام فکان «علم التجوید».

أما الصوامت من الأصوات عند علماء العربیة، فقد وفق د. عبد الصبور شاهین إلی استقرائها بعامة، فأعطی لکل صامت خصائصه فی العربیة من حیث المخرج و الصفة، و ذلک من خلال متابعة جیدة للمناخ الأصواتی العالمی، واضعا نصب عینیه برمجة العلماء العرب للأصوات، فصنع جدولا فنیا وزع فیه الصوامت العربیة علی مخارجها و صفاتها، مقارنا ذلک بالقیم الأصواتیة المماثلة فی اللغات الأوروبیة الحیة، بحیث أعطی کل صوت من الصوامت میزاته الدقیقة بالشکل الفنی المقبول، أنموذج ذلک الأمثلة الثلاثة التالیة من تخطیطه المقارن، و التی اخترناها للتنظیر علی صحة ما توصل إلیه العرب فی صفات الأصوات من مخارج مختلفة، قد تعطی کشفا لملامح الأصوات.

هذه الأصوات الثلاثة هی: الباء اللام، الشین، یقول عنها:

۱- الباء: صامت شفوی مزدوج- انفجاری (شدید)- مجهور- مرقق. و هو یقابل فی اللغات الأوروبیة رمز (B(و لیس فی العربیة صامت یقابل الرمز (B(و هو یختلف فی قیمته الأصواتیة عن باء العربیة بالهمس فقط، مع اتفاق الصوتین فی القیم الأخری.

۲- اللام: صامت أسنانی لثوی- مائع (متوسط)- مجهور- جانبی- مرقق دائما، إلا فی لفظ الجلالة، فإنه یفخم إذا کان الانتقال إلیه من فتح أو ضم، فأما إذا کان الانتقال من کسر فإنه یرقق علی أصله.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۰

۳- الشین: صامت غاری ملثی- احتکاکی (رخو) مهموس- مرقق- یوصف بالتفشی، و معناه أن مخرجه یحتل مساحة کبیرة من منطقة الغار و اللثة، یتصل بها اللسان، فیکون أثر الاحتکاک فی النطق صادرا من نقاط متعددة، متفشیة فی الفم «۱».

و ینقسم الصوت عند الأوروبیین من خلال علاقته المتماسة بالوترین الصوتیین إلی:

أ- مجهور-Voiced و هو الذی یحرک هذین الوترین.

ب- مهموس-Voiceless و هو الذی لا یحرکهما.

و هذا نفسه ما ذهب إلیه سیبویه (ت: ۱۸۰ ه) فی الکتاب، و ابن جنی (ت: ۳۹۲ ه-) فی سر صناعة الإعراب کما سیأتی.

و لا أصل لما قیل إن العلماء العرب قد جهلوا شأن ذبذبة الوترین الصوتیین، فسیبویه یشیر إلیهما بدلالة کلامه علیهما و إن لم یصرح بهما.

فقد أورد أبو سعيد السيرافى (ت: ۳۶۸ ه-) فى شرحه لكتاب سيبويه، أنه قال:

«المهموس إذا أخفيته ثم كررته أمكنك ذلك، و أما المجهور فلا يمكنك فيه. ثم كرر سيبويه التاء بلسانه و أخفى، فقال: أ لا ترى كيف يمكن؟ و كرر الطاء و الدال و هما من مخرج التاء فلم يمكن.

قال: و إنما الفرق بين المجهور و المهموس أنك لا تصل إلى تبين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر. فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر و يجرى فى الحلق، أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها ... و الدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف، و لا تصل إلى ذلك فى المجهور» «۲».

و هذه الإفاضة من سيبويه تتضمن فى جملتها خلاصة قيمة للتفريق بين المهموس و المجهور فى مجال إخفاء الصوت. و إخفاء الصوت إنما يتحقق

---

(۱) ظ: عبد الصبور شاهين، علم الأصوات لمالمبرج: الدراسة ۱۲۲- ۱۲۶.

(۲) خليل إبراهيم العطية، فى البحث الصوتى عند العرب: ۴۲ و ما بعدها، و انظر مصدره.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۲۱

فى المهموسات فلا تتغير، و هو لا يتحقق فى المجهورات، و يستعاض فى تمييزها على ما يسميه بصوت الصدر. «و لعل هذا الصوت هو صدى الذبذبات التى تحدث فى الوترين الصوتيين بالحنجرة» «۱».

و تشبيه ابن جنى لجهاز النطق بالناى فى انفتاحه و انطباقه تارة، و بوتر العود فى تشكيله الأصداء المختلفة و الأصوات المتنوعة «إلا أن الصوت الذى يؤديه الوتر غفلا- غير محصور ... فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق، و الخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق، و جريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت فى الألف الساكنة» «۲».

يمكن أن يفيد الباحث منه إشارته للوترين الصوتيين فى حالة الصوت المجهور الذى يحركهما عند الانفتاح، و حالة الصوت المهموس الذى لا يحركهما عند الانطباق، هذا فى تشبيه جهاز النطق بالمزمار. و فى تشكيل مجموعة الأصداء المتفاوتة عند ضرب أو حصر آخر الوتر من قبل ضارب العود.

هذا و ذاك مما يدلنا على معرفة علماء العربية بالوترين الصوتيين و لو على وجه الإجمال فى الإدراك.

و ثم تقسيم هائل للأصوات باعتبار مخارجها، و قد امتاز بابتكاره الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت: ۱۷۵ ه-) و هو فى نظرنا من أدق مبتكراته، لأنه انطلق مع الأصوات من مخارجها، و حقق القول فى مساحاتها، و وضع كل صوت موضعه فى تتبع فريد لم يستطع العلم الحديث أن يتخطاه بكل أجهزته المتخصصة و الأهم من هذا أن الأدمغة المبدعة فى أوروبا لم تستطع الخروج على مسميات الخليل الصوتية، و لم تخالفه إلا فيما يتعلق بتقعيد بعض المصطلحات دون تغيير حقائقها بما يتناسب مع اللغة التى انتظمت عليها، و مع ذلك فهى الأصل الأول لمصطلحات أقسام الأصوات التى سبق إليها الخليل فى تطبيق التسميات منطلقة من مسمياتها التى تحدث تلك الأصوات.

---

(۱) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۱۲۳.

(۲) ابن جنى، سر صناعة الاعراب: ۹- ۱۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۲۲

يمكن القول بأن تقسيم الأصوات عند الخليل بالإضافة إلى مخارجها، تشتمل على مخطط تفصيلى لعملية إخراج الأصوات و إحداثها، فى شتى تقلباتها المكانية بدءا من الرئتين فى تدفق الهواء و انتهاء بالشفتين عند الميم، تضاف إليها المميزات الأخرى و الخصائص

المتعلقة بالأصوات و فضائها، و فى المستطاع تصنيف مناطق انطلاق الأصوات كما خططه الخليل على النحو الآتى:

۱- الذلق: تخرج من ذلق اللسان، و هو تحديد طرفى اللسان أو طرف غار الفم، و هى: (ر. ل. ن).

۲- الشفوية: تخرج من بين الشفتين خاصة (ف. ب. م).

۳- الحلق: مبدؤها من الحلق (ع. ح. ه-. خ. غ).

۴- أقصى الحلق: الهمزة و حدها، و مخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة.

۵- الجوف: مخرجها من الجوف هاوية فى الهواء و هى: (الياء و الواو و الألف و الهمزة).

۶- حروف اللين: مخرجها من الرئتين (ى. و. ا).

۷- اللهوية: مبدؤها من اللهاء (ق. ك).

۸- الشجرية: مبدؤها من شجر الفم، أى: مخرج الفم (ج. ش.

ض).

۹- الأسلية: مبدؤها من أسلة اللسان، و هى مستدق طرف اللسان (ص. س. ز).

۱۰- النطعية: مبدؤها من نطع الغار الأعلى (ط. ت. د).

۱۱- اللثوية: مبدؤها من اللثة (ظ. ذ. ث).

و يضيف إلى هذه الأقسام نوعين من الأصوات هما:

أ- الصحاح و هى خمسة و عشرون حرفا عدا الجوف.

ب- الهوائية و هى الياء و الواو و الألف و الهمزة لأنها لا يتعلق بها

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۲۳

شىء «۱». إن هذا النحو المستفيض لطبيعة تقسيم الأصوات، و تبويب ذلك فى مجالات متعددة، تتلمس حقيقة الصوت مرة كما فى الصوائت و الصوامت، و تنظر علاقة الصوت بوترى الصوت مرة كما فى المجهور و المهموس، و تراعى مخارج الأصوات بالنسبة لأجهزة النطق أو التصويب بعامة، إن هو إلا أصالة صوتية لا تدانيها أصالة بالنسبة لبيئة انطلاق هذه المعلومات معتمدة على النظر و الحس و التمحيص الشخصى، دون الاستعانة بأى رعيل من الأجهزة أو المختبرات.

نتيجة هذا الجهد الشخصى لعلماء العربية، و صفت لنا شخصية كل صوت باستقلالية تامة، و ذلك كل ما توصل إليه الأوروبيون بعد جهد و عناء و مثابرة جماعية لا فردية.

يقول إبراهيم أنيس «و لقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث فى الأصوات اللغوية شهد المحدثون الأوروبيون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، و قد أرادوا بها خدمة اللغة العربية و النطق العربى، و لا سيما فى الترتيل القرآنى، و لقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية، و اتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفى الحس، دقيقى الملاحظة، فوصفوا لنا الصوت العربى وصفا آثار دهشة المستشرقين و إعجابهم» «۲».

و كان الوصف ما رأيت فى الأقسام السالفة.

تطور الصوت اللغوى:

تنتاب اللغات الحية تطورات أصواتية، تنشأ عنها تغيرات أساسية فى اللغات، فيخيم عن ذلك تغيير ملحوظ بطبيعة الصيغ الكلامية، و يحدث تطوير فى الوحدات التركيبية، و أهم من ذلك ما ينشأ من تغيير فى الأصوات، يمكن حصره باختصار كبير فى عاملين أساسيين هما: التحول التأريخى و التحول التركيبى.

التحوّل التاريخى عبارة عن تغيير و تحوير فى القواعد و الأصول لنظام

---

(۱) قارن فى هذا عند الخليل، العين: ۵۱- ۶۰.

(۲) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۵.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۲۴

الأصوات فى اللغة، نابع عن تحولات المجتمعات البشرية من ساذجة إلى متطورة، أو من بدائية إلى متحضرة، و ما يرافق هذا التحول من تحول بالعلاقات الاجتماعية، و المناخ القومى العام، مما ينطبع أثره على الظواهر الاجتماعية و أبرزها اللغة لأنها أكبر ظواهره التفاهمية و التخاطبية، فتتحول تدريجيا إلى لغة متطورة فى كثير من أبعادها المرتبطة بتطور مجتمعها، إذ لا يمكن أن ينفصل التفكير فى تحول مسار لغة ما عن التفكير فى تحوّل مسار متكلمى تلك اللغة، فاللغة فى تطورها جزء لا يتجزأ من المحيط فى تطوره، و ليس بالضرورة التطور إلى الأفضل بل قد تتطور اللغة إلى شىء آخر يعود بها التدهور و الانحطاط، تفقد فيه جملة من خصائصها الفنية أو الصوتية أو الجمالية، و تنسلخ فجأة عن ملامحها الذاتية و تستبدلها بما هو أدنى قيمة لغوية.

و قد تزدهر ازدهارا يفوق حد التصور إذا كانت بسبيل من حماية أصالتها كما هى الحال فى اللغة العربية إذ يحرسها القرآن العظيم.

التحول التاريخى هذا لا يعنينا الاهتمام بأمره كثيرا فى ظاهرة الصوت اللغوى، و إنما تعنى هذه الدراسة بالشق الآخر من التحول و هو التحول التركيبى الذى ينشأ عادة نتيجة لظواهر تغيير أصوات اللغة الواحدة، و استبدال صوت منها بصوت آنيا أو دائميا، فما استجاب للإبدال الصوتى الموقت يطلق عليه مصطلح المماثلة، و ما استجاب للإبدال الصوتى الدائم يطلق عليه مصطلح المخالفة. هذا ما يبدو لى فى التحول التركيبى، و هذه علة هذين المصطلحين، و قد يوافق هذا الفهم قوما، و قد لا يرتضيه قوم آخرون، و لكنه ما توصلت إليه فى ظاهرتى المماثلة و المخالفة فى التراث العربى و اللغة منه بخاصة.

أ- المماثلة:Assimilation، ظاهرة أصواتية تنجم عن مقاربة صوت لصوت، فكلما اقترب صوت من صوت آخر، اقتراب كيفية أو مخرج، حدثت مماثلة، سواء ماثل أحدهما الآخر أو لم يماثله.

و المماثلة أنواع أبرزها:

۱- المماثلة الرجعية، و معناها: أن يماثل صوت صوتا آخر يسبقه.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۲۵

۲- المماثلة التقدمية، و معناها: أن يماثل الصوت الأول الصوت الثانى.

۳- المماثلة المزدوجة، و معناها: أن يماثل صوت الصوتين اللذين يحوطانه «۱».

و المماثلة فى أنواعها متناسقة الدلالة فى اللغة العربية فى حالات الجهر و الهمس، و الشدة و الرخاوة، و الانطباق و الانفتاح، مما يتوافر أمثاله فى مجال الصوت، و تنقل مجراه.

إن انتقال حالة الجهر فى الصوت العربى إلى الهمس فى المماثلة الرجعية شائع الاستعمال فى أزمان موقوتة لا تتعداها أحيانا إلى صنعة الملازمة و الدوام، و إنما تتبع حالة المتكلم عند الممازجة بين الأصوات أو فى حالة الإسراع، و هناك العديد من الكلمات العربية قد أخضعت لقانون المماثلة الرجعية، و هى أوضح فيما اختاره عبد الصبور شاهين، فالكلمة (أخذت) مثلا مما نظر له عنها، (أخذت) حينما تنطق آنيا (أخت) فقد آثرت التاء فى (أخذت) و هى مهموسة، فى الذال قبلها و هى مجهورة، فأفقدتها جهرها، و صارت مهموسة مثلها، و تحولت إلى تاء ثم أدغم الصوتان.

أما عن المماثلة التقدمية، فإن فى العربية بابا تقع فيه هذه المماثلة بصورة قياسية، فى صيغة «افتعل- افتعالا» حيث يؤثر الصامت الأول فى الثانى، قال تعالى: وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «۲».

الفعل: هو ذکر، و صیغة (افتعل- افتعالا) منه (اذتکر- اذتکارا) إذ تزاد الألف فی الأول، و التاء تتوسط بین فاء الفعل و عینه، فیکون الفعل (إذ تکر) و الذال مجهورة، و التاء مهموسة، فتأثرت التاء بجهر الذال، فعادت مجهورة، و التاء إذا جهر بها عادت دالا، فتکون: (إذ دکر) و الدال تؤثر فی الذال بشدتها، فتتحول الذال من صامت رخو إلی صامت شدید (دال) ثم تدغم الدالان، فتکون «ادکر» «۳».

---

(۱) ظ: مالمبرج، علم الأصوات: ۱۴۱ بتصرف و اختصار.

(۲) یوسف: ۴۵.

(۳) ظ: عبد الصبور شاهین، علم الأصوات الدراسة: ۱۴۵ بإضافة و تصرف.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۶

ب- و أما المخالفة:Dissimilation فتطلق عادة علی أی تغییر أصواتی یهدف إلی تأکید الاختلاف بین وحدتین أصواتیتین، إذا کانت الوحدات الأصواتیة موضوع الخلاف متباعدة «۱» أو تؤدی إلی زیادة مدی الخلاف بین الصوتین «۲».

و قد وهم الدکتور إبراهیم أنیس رحمه اللّه بعدّه علماء العربیة القدامی لم یفطنوا لظاهرة المخالفة فی الأصوات و لم یعنوا بها عنایة بالغة «۳».

بینما یدل الاستقراء المنهجی لعلم الأصوات عند العرب أن قوانین علم الصوت العربی لم تفتها ظاهرة المخالفة بل تابعتها بحدود متناثرة فی کتب اللغة و النحو و التصریف، و هو ما فعله علماء العربیة فی التنظیر للمخالفة تارة، و بدراستها تارة أخری، منذ عهد الخلیل بن أحمد (ت:

۱۷۵ ه) حتی ابن هشام الأنصاری (ت: ۷۶۱ ه).

یقول الدکتور عبد الصبور شاهین «عرفت العربیة ظاهرة المخالفة فی کلمات مثل: تظنن، حیث توالت ثلاث نونات، فلما استثقل الناطق ذلک تخلص من أحدها بقلبها صوت علة فصارت: تظنی ... و لها أمثلة فی الفصحی مثل: نفث المخ: أنفثته نفثا، لغة فی نقوته، إذا استخرجته، کأنهم أبدلوا الواو تاء» «۴».

و هذا ما ذهب إلیه الأستاذ فندریس فی ظاهرة المخالفة صوتیا، و کأنه یترجم تطبیق العرب بأن «یعمل المتکلم حرکة نطقیة مرة واحدة، و کان من حقها أن تعمل مرتین» «۵». فإذا ترکنا هاتین الظاهرتین إلی مصطلحین صوتیین آخرین یعنیان بمسایرة تطور الصوت فی المقطع أو عند المتکلم، و هما: النبر و التنغیم، لم نجد العرب فی معزل عن تصورهما تصورا أولیا إن لم یکن تکامليا، و إن لم نجد التسمیة الاصطلاحیة، و لکننا قد نجد مادتها التطبیقیة فی شذرات ثمنیة.

---

(۱) ظ: مالمبرج، علم الأصوات: ۱۴۸.

(۲) ظ: تمام حسان، مناهج البحث فی اللغة: ۱۳۴.

(۳) ظ: إبراهیم أنیس، الأصوات اللغویة: ۲۱۱.

(۴) عبد الصبور شاهین، علم الأصوات الدراسة: ۱۵۰.

(۵) فندریس، اللغة: ۹۴.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۷

النبر یعنی عادة بمتابعة العلو فی بعض الکلمات لأنه لا یسم وحدة أصواتیة واحدة، بل منظومة من الواحدات الأصواتیة «۱».

و التنغیم- کما أفهمه- یعنی عادة بمتابعة صوت المتکلم فی التغیرات الطارئة علیه أصواتیا بما یلائم توقعات النفس الإنسانیة للتعبیر عن الحالات الشعوریة و اللاشعوریة.

و کان المستشرق الألمانی الدکتور براجشتراس قد وقف موقف المتحیر حینا، و المتسائل حینا آخر، من معرفة علماء العربیة بمصطلح النبر، فهو لم یعثر علی نص یستند علیه، و لا أثر یلتجئ إلیه فی إجابة العربیة عن هذا الأمر «۲».

و الحق أن عدم الوجدان لا یدل علی عدم الوجود کما یقال، غیر أن القدماء من العرب لم یدرسوا النبر فی تأثیره فی اللغة، بل لأنه یعنی بضغط المتکلم علی الحرف، و بذلک ربطوه بالتنغیم أحیانا، و بالإیقاع الذی یهز النفس، و یستحوذ علی التفکیر، و قد اختار عبد الصبور شاهین مقطعا من خطبة تروی لأمیر المؤمنین الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام أثبتها و عقب علیها،

قال الإمام علی فیما روی عنه: «من وصف اللّه سبحانه فقد قرنه، و من قرنه فقد ثنّاه، و من ثنّاه فقد جزأه، و من جزّأه فقد جهله، و من جهله فقد أشار إلیه، و من أشار إلیه فقد حدّه، و من حدّه فقد عدّه، و من قال:

فیم؟ فقد ضمنه، و من قال: علام؟ فقد أخفی منه، کائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع کل شیء لا بمقارنة، و غیر کل شیء لا بمزاولة».

و للقارئ أن یتخیل أداء هذه الجمل المتتابعة موقعة علی نحو یشد إلیها أسماع الناس، و یستأثر بإعجابهم» «۳».

الحق أن اللحاظ المشترک بین النبر و التنغیم عند العرب القدامی یجب أن یکون موضع عنایة من الناحیة النظریة، مع فرض توافره تطبیقا

---

(۱) ظ: مالمبرج، علم الأصوات: ۱۸۷.

(۲) ظ: براجشتراسر، التطور النحوی: ۴۶.

(۳) عبد الصبور شاهین، علم الأصوات الدراسة. ۲۰۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۸

قرآنیا فی سورة متعددة، و خطابیا عند النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمة و الصحابة و فصحاء العرب فی جملة من الخطب.

اتضح لزمیلنا الدکتور خلیل العطیة أن ابن جنی (ت: ۳۹۲ ه) فی عبارته (التطویح و التطریح و التفخیم و التعظیم) «۱» یمکن أن یشار عنده بها إلی مصطلحی النبر و التنغیم، بما تتفتّق معانی ألفاظ العبارة من دلالات لغویة فقال:

«و تشیر ألفاظ التطویح و التطریح و التفخیم من خلال معانیها اللغویة إلی رفع الصوت و انخفاضه و الذهاب به کل مذهب، و هی علی هذا إشارة إلی النبر، و لیس النبر غیر عملیة عضویة یقصد فیها ارتفاع الصوت المنبور و انخفاضه، کما أن تمطیط الکلام، و زوی الوجه و تقطیبه، مظهر من المظاهر التی تستند علیها ظاهرة التنغیم» «۲».

فإذا نظرنا إلی تعریف التنغیم عند الأوروبیین بأنه «عبارة عن تتابع النغمات الموسیقیة أو الإیقاعات فی حدث کلامی معین» «۳»، ثبت لدینا أن هذا التعریف الفضفاض لا یقف عند حدود فی التماس ظاهرة التنغیم و ضبطها، لأن تتابع النغمات و الإیقاعات بإضافتها إلی الحدث الکلامی تختلف فی هبوطها و صعودها نغما و إیقاعا، فهی غیر مستقرة المستویات حتی صنف مداها عند الدکتور تمام حسان إلی أربعة منحنیات: «مرتفع و عال و متوسط و منخفض» «۴».

و معنی هذا أن لیس بالإمکان قیاس مسافة التنغیم لیوضع له رمز معین، أو إشارة معلمة عند العرب، لهذا فقد کان دقیقا ما توصل إلیه زمیلنا الدکتور طارق الجنابی باعتباره التنغیم «قرینة صوتیة لا رمز لها، أو یعسر أن تحدد لها رموز، و من ثم لم یکن موضع عنایة اللغویین القدامی، و لکنه وجد من المحدثین اهتماما خاصا بعد أن أضحت اللغات المحکیة

---

(۱) ابن جنی، الخصائص: ۲/ ۳۷۰.

(۲) خلیل إبراهیم العطیة، فی البحث الصوتی عند العرب: ۶۷ و ما بعدها.

(۳) ماريوباى، أسس علم اللغة: ۹۳.

(۴) ظ: تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها: ۲۲۹.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۲۹

موضع دراسة فى المختبرات الصوتية» «۱».

و فقدان موضع العناية لا يدل على فقدان الموضوع، فقد كان التنغيم مجال دراسة لجملة من فنون العربية فى التراكيب و الأساليب، فى تركيب الجملة لدى تعبيرها عن أكثر من حالة نفسية، و أسلوب البيان لدى تعبيره عن المعنى الواحد بصور متعددة، و هذا و ذاك جزء مهم فى علمى المعانى و البيان نحوا و بلاغة، و هى معالم أشبعها العرب بحثا و تمحيصا، و إن لم يظهر عليها مصطلح التنغيم.

---

(۱) طارق عبد عون الجنابى، قضايا صوتية فى النحو العربى: «بحث».

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۳۰

نظرية الصوت اللغوى

و ليس جديدا القول بسبق العرب إلى تأصيل نظرية الصوت اللغوى، و اضطلاعهم بأعباء المصطلح الصوتى منذ القدم، لقد كان ما قدمناه فى «منهج البحث الصوتى عند العرب» و إن كان جزئى الإنارة، فإنه كاف- فى الأقل- للتدليل على أصالة هذا المنهج، و صحة متابعته الصوتية فى أبعاد لا يختلف بها اثنان.

نضيف إلى ذلك ظاهرة صوتية متميزة فى أبحاث العرب لم تبحث فى مجال الصوت، و إنما بحثت فى تضاعيف التصريف، ذلك أن صلة الأصوات وثيقة فى الدرس الصّرفى عند العرب فى كل جزئياته الصوتية، فكان ما توصل إليه العرب فى مضمار البحث الصرفى عبارة عن استجابة فعلية لمفاهيم الأصوات قبل أن تتبلور دلالتها المعاصرة، فإذا أضفنا إلى ذلك المجموعة المتناثرة لعناية البحث النحوى بمسائل الصوت خرجنا بحصيلة كبيرة متطورة تؤكد النظرية الصوتية فى التطبيق مما يعد تعبيرا حيّا عن الآثار الصوتية فى أمهات الممارسات العربية فى مختلف الفنون.

«و لقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث فى الأصوات اللغوية شهد المحدثون الأوروبيون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم، و قد أرادوا بها خدمة اللغة العربية و النطق العربى، و لا سيما فى الترتيل القرآنى، و لقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية، و إيصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفى الحسّ، دقيقى الملاحظة، فوصفوا لنا الصوت العربى وصفا أثار دهشة المستشرقين و إعجابهم» «۱».

---

(۱) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۵.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۳۱

و هذه البحوث الصوتية التى سبق إليها علماء العربية فأثارت دهشة المستشرقين، و أفاد منها الأوروبيون فى صوتياتهم الدقيقة التى اعتمدت أجهزة التشريح، و قياس الأصوات فى ضوء المكتشفات، قد أثبتت جملة من الحقائق الصوتية، كان قد توصل إليها الأوائل عفويا، فى حسّ صوتى تجربته الذائقة الفطرية، و بعد أن تأصلت لديهم إلى درجة النضج، قدّمت منهجا رصينا رسخ فيه المحدثون حيثيات البحث الصوتى الجديد فى المفردات و العرض و الأسلوب و النتائج على قواعد علمية سليمة.

لقد قدم العرب و المسلمون مفصّلا صوتيا مركّبا من مظاهر البحث الصوتى يمثل غاية فى الدقة و التعقيد، لم يستند إلى أجهزة متطورة، بل ابتكرته عقول علمية نيرة، و أذهان صافية، تجردت للحقيقة، و تمحضت للبحث العلمى، مخلصة فيه النية، و كانت الخطوط

العريضة لهذا العطاء على وجه الإجمال عبارة عن مفردات هائلة، و نظريات متراصة، يصلح أن يشكل كل عنوان منها فصلا من باب، أو بابا فى كتاب، يستقرئ به الباحث ما قدمه علماء العربية من جهد صوتى متميز و اكبه الغربيون بعد أن عبد طريقه العرب و المسلمون، هذه المفردات فى عنوانات ريادية تمثل الموضوعات الآتية فى نظرية الصوت:

١- ظاهرة حدوث الصوت.

٢- معالم الجهاز الصوتى عند الإنسان.

٣- أنواع الأصوات العالمية.

۴- درجات الأصوات فى الاهتزازات ۵- بدايات الأصوات عند المخلوقات.

۶- علاقة الأصوات باللغات الحيّة.

٧- أعضاء النطق. و علاقتها بالأصوات.

٨- الأصوات الصادرة دون أعضاء نطق.

٩- علاقة السمع بالأصوات.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ٣٢

١٠- مقاييس الأصوات امتدادا أو قصرا.

١١- تسميات الأصوات و أصنافها.

١٢- الأصوات الزائدة على حروف المعاجيم.

١٣- الزمان و الصوت (مسافة الصوت).

١۴- المكان و الصوت (مساحة الصوت).

١۵- المقاطع الصوتية بالإضافة إلى مخارج الأصوات.

١۶- النقاء الصوتى.

١٧- الموسيقى و الصوت.

١٨- العروض و الصوت.

١٩- النبر و الصوت.

٢٠- التنغيم و الصوت.

٢١- التقريب بين الأصوات.

٢٢- الرموز الكتابية و الأصوات.

٢٣- ائتلاف الحروف و علاقته بالأصوات.

هذه أهم مفردات المصطلح الصوتى فى نظرية الصوت اللغوى عند العرب توصلنا إليها من خلال عروض القوم فى كتبهم، و طروحهم فى بحوثهم، و إن لم يشتمل عليها كتاب بعينه، و إنما جاءت استطرادا فى عشرات التصانيف، و نحن لا نريد حصرها بقدر ما نريد من التنبيه، أن هذه الموضوعات التى سبق إليها العرب، هى التى توصل إليها الأوروبيون اليوم، و منها استقوا معلوماتهم الأولوية، و لكنهم أضافوا و جددوا و أبدعوا، و تمرست عندهم المدارس الصوتية الجديدة، تدعمها أجهزة العلم، و الأموال الطائلة، و الخبرات الناشئة، مع الصبر على البحث، و الأناة فى النتائج.

لقد كان ما قاله المرحوم الأستاذ مصطفى السقا و جماعته فى

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ٣٣

مقدمتهم لسر صناعة الإعراب ملحظا جديرا بالاهتمام ... «و الحق أن الدراسة الصوتية قد اكتملت و سائلها و موضوعاتها و مناهجها عند الأوروبيين، و نحن جديرون أن نقفوا آثارهم و ننتفع بتجاربهم، كما انتفعوا هم بتجارب الخليل و سيبويه و ابن جنى و ابن سينا فى بدء دراساتهم للأصوات اللغوية» «۱». فالأوروبيون أفادوا من خبراتنا الأصيلة. فهل نحن منتفعون؟

لقد توصل العرب حقا إلى نتائج صوتية مذهلة أيدها الصوت الغوى الحديث فى مستويات هائلة نتيجة لعمق المفردات الصوتية التى خاض غمارها الرواد القدامى، و قد أيد هذا التوصل اثنان من كبار العلماء الأوروبيين هما: المستشرق الألمانى الكبير الدكتور براجشتراسر، و العالم الانكليزى اللغوى المعروف الأستاذ فيرث.

أ- يقول الدكتور براجشتراسر فى معرض حديثه عن علم الأصوات:

«لم يسبق الأوروبيين فى هذا العلم إلا قومان: العرب و الهنود» «۲».

ب- و يقول الأستاذ فيرث:

«إن علم الأصوات قد نما و شب فى خدمة لغتين مقدستين هما:

السنسكريتية و العربية» «۳» و العرب مقدمون على الهنود فى النص الأول لأنهم أسبق:

و السنسكريتية فى النص الثانى لغة بائدة آثارية، و العربية خالدة.

و- أقف عند رأيين فى نظرية الصوت اللغوى:

الأول: توصل الدكتور العطية «أن بعض مباحث العرب فى البحث الصوتى داخلة فى (علم الصوت:Phonetics (لاشتماله على دراسة التكوين التشريحى لجهاز النطق و الصوت و مكوناته و عناصره و صفاته العامة و الخاصة على مستوى المجموعة البشرية. كما أن بعض جوانب (علم الصوت

---

(۱)- مصطفى السقا و آخرون، سر صناعة الاعراب، مقدمة التحقيق: ۱۹.

(۲)- براجشتراسر، التطور النحوى: ۵۷.

(۳) ظ: أحمد مختار عمر، البحث اللغوى عند العرب: ۱۰۱ و انظر مصدره.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۳۴

الوظيفى Phonology (تبدو جلية فى دراسة قوانين التأثر و التأثير، و استكناه النبر و التنغيم، و طول الصوت و قصره، سواء أ كان طوله صفة دائمة أم آنية عارضة» «۱».

الثانى: إن الصوت قد فرض نفسه عند العرب فى دراسات قد لا تبدو علاقتها واضحة بالصوت، و قد وقف الدكتور الجنابى عند جملة «من مسائل النحو عرض لها النحويون و تأولوها، و اعتلوا لها بعلل لا تقنع باحثا، و لا ترضى متعلما، و لكن التفسير الصوتى هو الذى يحل الإشكال و يزيل اللبس بمعزل عن القرائن أو العلاقات المعنوية بين المفردات، فلا صلة للتغيير الحركى بالفاعلية و المفعولية مثلا، و لا رابطة له بالأساليب.

و إنما هو لون من الانسجام مع التغيير التلقائى الذى أشرت إليه» «۲».

هذان الرأيان نلمح بهما تمكن الدرس الصوتى عند العرب، فجملة مباحثهم صوتيا داخلة فى علوم الصوت، و ما لم يجدوا له تعليلا فيحل إشكاله التفسير الصوتى، و هذان ملحظان جديران بالتأمل.

أما خلاصة تجارب الأوروبيين فى المصطلح الصوتى فقد كانت نتيجة حرفية لمداليل النظرية الصوتية عند العرب فى نتائج ما توصل إليه علماؤهم الأعلام.

هذه النظرية الصوتية عند العرب عبارة عما توصل إليه العرب من خلال تمرسهم و تجاربهم بنظريات نحوية و صرفية و بيانية و صوتية

و إیقاعیة و تشریحیة شکلت بمجموعها «نظریة الصوت» و هی فی تصور تخطیطی تشمل المنظور الآتی:

أ- النظریة العربیة فی الأبجدیة الصوتیة علی أساس المخارج و المدارج و المقاطع کما عند الخلیل و سیبویه و الفرّاء.

ب- النظریة العربیة فی أجهزة النطق و أعضائه، و تشبیهه بالنای تارة، و بالعود فی جس أو تارة تارة أخری کما عند ابن جنی.

---

(۱) خلیل إبراهیم العطیة، فی البحث الصوتی عند العرب: ۱۰۸.

(۲) طارق عبد عون الجنابی، قضایا صوتیة فی النحو العربی «بحث».

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۳۵

ج- النظریة العربیة فی التمییز بین الأصوات عن طریق إخفاء الصوت.

د- النظریة العربیة فی ربط الإعلال و الإبدال، و الترخیم و التنغیم، و المد و الإشمام بعملیة حدوث الأصوات و إحداثها.

ه- النظریة العربیة فی التلاؤم بین الحروف و أثره فی سلامة الأصوات، و التنافر فیها و أثره فی تنافر الأصوات.

و- النظریة العربیة فی أصول الأداء القرآنی، و عروض الشعر و الإیقاع الموسیقی، و علاقة ذلک بالأصوات.

ز- النظریة العربیة فی التوصل إلی معالجة التعقیدات النحویة، و المسوغات الصرفیة فی ضوء علم الأصوات.

هذا العرض الإشاری لنظریة الصوت اللغوی، یکفی عادة للتدلیل علی أصالة النظریة عند العرب، دون حاجة إلی استجداء المصطلحات الأجنبیة، أو استحسان الجنوح إلی الموارد الأوروبیة، فبحوث العرب فی هذا المجال متوافرة، و قد یقال إن التنظیم یعوزها، و أنها تفتقر إلی الترتیب الحدیث، و للاجابة عن هذه المغالظة نضع بین أیدی الباحثین المنصفین:

الفصل الثانی من هذا الکتاب بین یدی الموضوع، و الذی أطمح أن یکون مقنعا بأمانة و إخلاص فی إثبات تنظیم البحث الصوتی، و سلامة مسیرة الصوت اللغوی، و موضوعیة العرض دون تزید أو ابتسار فی علم الأصوات و عالمها.

و اللّه ولی التوفیق.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۳۷

الفصل الثانی منهجیة البحث الصوتی

اشارة

۱- الخلیل بن أحمد و مدرسته الصوتیة ۲- الصوت فی منهجیة سیبویه ۳- الفکر الصوتی عند ابن جنّی ۴- القرآن و الصوت اللغوی

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۳۹

الخلیل و مدرسته الصوتیة

ذهب أستاذنا الدکتور المخزومی: «أن الخلیل أول من التفت إلی صلة الدرس الصوتی بالدراسات اللغویة الصرفیة، الصرفیة و النحویة، و لذلک کان للدراسة الصوتیة من عنایته نصیب کبیر، فقد أعاد النظر فی ترتیب الأصوات القدیمة، الذی لم یکن مبنیا علی أساس منطقی، و لا علی أساس لغوی، فرتبها بحسب المخارج فی الفم، و کان ذلک فتحا جدیدا، لأنه کان منطلقا إلی معرفة خصائص الحروف و صفاتها» «۱».

لم تکن هذه الأولیة اعتباطیة، و لا الحکم بها مفاجئا، فهما یصدران عن رأی رصین لأن الخلیل بن أحمد الفراهیدی (ت: ۱۷۵ ه) هو أول من وضع الصوت اللغوی موضع تطبیق فنی فی دراسته اللغویة التی انتظمها کتابه الفرید (العین) بل هو أول من جعل الصوت

اللغوی أساس اللغة المعجمی، فکان بذلک الرائد و المؤسس.

لا أریـد التحدث عن أهمیة کتاب العین فی حیاة الدرس اللغوی و لکن أود الإشارة أن کتاب العین ذو شـقین: الأول المقدمة، و الثانی الکتاب بمادته اللغویة و تصریفاته الإحصائیة المبتکرة التی اشتملت علی المهمل و المستعمل فی لغة العرب.

و الذی یعنینا فی مدرسة الخلیل الصوتیة مواکبة هذه المقدمة فی منهجیتها لتبویب الکتاب، و بیان طریقته فی الاستقراء، و إبداعه فی

---

(۱) المخزومی، فی النحو العربی، قواعد و تطبیق: ۴

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۴۰

الاحصاء، و رأیه فی الاسـتنباط و مسـلکیة التصنیف الجدید، و الأهم الذی نصبو إلیه «إن مقدمة العین علی إیجازها، أول مادة فی علم الأصوات دلت علی أصالة علم الخلیل، و أنه صاحب هذا العلم و رائده الأول» «۱».

یبدأ الخلیل المقدمة بالصوت اللغوی عند السطر الأول بقوله: «هذا ما ألفه الخلیل بن أحمد البصری من حروف:

أ. ب. ت. ث ...» «۲».

و أضـاف أنه لم یمکنه «أن یبتـدئ التألیف من أول: أ، ب، ت، ث. و هو الألف، لأن الألف حرف معتل، فلما فاته الحرف الأول کره أن یبتـدئ بالثـانی- و هو الباء- إلا بعـد حجـة و اسـتقصاء النظر، فـدبّر و نظر إلی الحروف کلها، و ذاقها فوجـد مخرج الکلام کله من الحلق، فصیّر أولاها بالابتداء أدخل حرف فی الحلق» «۳».

و معنی هـذا أن الخلیل قـد أحاط بالترتیب (الألفبائی) من عهـد مبکر، و لم یشأ أن یبتـدئ به مع اهتـدائه إلیه، لأن أول حرف فی هـذا النظام حرف معتل، و لا معنی أن یبتـدئ بما یلیه و هو الباء لأنه ترجیـح بلا مرجح، و تقدیم دون أساس، فذاق الحروف تجریبیا، فرأی أولاها بالابتداء حروف الحلق، و ذاقها مرة أخری، فرأی (العین) أدخل حرف منها فی الحلق، بل فی أقصی الحلق.

قـال ابن کیسان: (ت: ۲۹۹ ه-) سـمعت من یـذکر عن الخلیـل أنه قـال: «لم أبـدأ بالهمزة لأنها یلحقها النقص و التغییر و الحـذف، و لا بالألف لأنها لا تکون فی ابتـداء کلمـة لا فی اسم و لا فعل إلا زائـدة أو مبدلة، و لا بالهاء لأنها مهموسة خفیة لا صوت لها، فنزلت إلی الحیز الثانی و فیه العین و الحاء، فوجدت العین أنصع الحرفین فابتدأت به لیکون أحسن فی التألیف» «۴».

---

(۱)- مقدمة التحقیق لکتاب العین: ۱/ ۱۰.

(۲) الخلیل: کتاب العین: ۱/ ۴۷.

(۳) نفس المصدر: ۱/ ۴۷.

(۴) السیوطی: المزهر: ۱/ ۹۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۴۱

و إذا صـح مـا نقله ابن کیسـان، و سـتجد فی البحث مـا یتعـارض معه نوعـا ما- فالخلیل یعتبر الهمزة و الألف فی الحیز الأول لاصوات حروف المعجـم، و لکنه ینتقـل إلی الحیز الثـانی فیختـار الصـوت الأنـصع بتـذوقه للحرف من مخرجه الصـوتی، و هـو یوضـح طریقته المبدعـة بذاک، فیجرد من نفسه معنیا یتکلم عنه، فیقول: «و إنما کان ذواقه إیاها أنه کان یفتح فاه بالألف، ثم یظهر الحرف نحو: إب، ات، اع، اغ، فوجـد العین أدخـل الحروف فی الحلق فجعلهـا أول الکتـاب، ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتی أتی آخرها و هو المیم» «۱».

و معنی هذا أنه سار مع الحروف مسـیرة مختبریة اسـتقرائیة، ابتداء من أقصـی الحلق، فالحلق، و مرورا بفضائه، فالاسنان، و انتهاء بالشفة فالمیم عندها، لأن المیم أرفع حروف الشفة.

و هذا یدل علی ذائقة حسیة فریدة، و صبر عنیف علی الاستنتاج، حتی توصل إلی ما توصل إلیه ابتداعا و ابتکارا، دون الاستعانة بأی جهاز علمی، إذ لا جهاز آنذاک، و هو ما لم یثبت العلم التشریحی الحدیث بکل أجهزته الدقیقة، و مختبراته الضخمة خلافا له فیما یبدو إلا یسیرا «۲».

إن الخلیل فی ذائقته الصوتیة هذه، قد قلب حروف العربیة، فوضعها فی منازل معینة ضمن مخارج صوتیة معینة بحسب مدارج مقدرة من أقصی الحلق حتی إطباق الشفة فی المیم.

و اتضح أن الخلیل رحمه اللّه تعالی قد صنف هذه المخارج إلی عشرة أصناف کالآتی:

۱- ع، ح، ه، خ، غ.

۲- ق، ک.

۳- ج، ش، ض.

---

(۱) الخلیل، کتاب العین: ۱/ ۴۷.

(۲) ظ: المؤلف، منهج البحث الصوتی عند العربی: نقد و تحلیل: «بحث».

۴- ص، س، ز.

۵- ط، د، ت.

۶- ظ، ث، ذ.

۷- ز، ل، ن.

۸- ف، ب، م.

۹- و، ا، ی.

۱۰- همزة «۱».

و لم یکتف الخلیل بهذا التقسیم الفیزولوجی الدقیق بحسب تذوقه الخاص، بل نصّ علی تسمیة کل قسم من هذه الأقسام، و أفاد اللغات العالمیة جمعاء، بأصل من الأصول الأولی فی الاصطلاحات الصوتیة دون أن یسبقه إلی ذلک سابق، بل عوّل علیه فیه کل لاحق.

لقد حدد الخلیل کل صنف من أصناف الحروف المعجمیة علی بنیة صوتیة متمیزة، تحسها کیانا مستقلا، و تتذوقها قاعدة صلبة، و علل ذلک علی أساس صوتی متکامل، و وعی بأبعاد هذا الأساس، فکوّن بذلک نظاما فریدا غیر قابل للرد إذ جاء فیه بضرس قاطع لا یختلف به اثنان، و سیّر ذلک مسیرة نابضة بالحیاة لا یلحقها الهرم، و لا تعوزها النضارة، فهی غضة طریة فی کل حین، قال الخلیل:

«فالعین و الحاء و الغین و الخاء حلقیة، لان مبدأها من الحلق.

و القاف و الکاف لهویتان، لأن مبدأها من اللهاة.

و الجیم و الشین و الضاد شجریة، لأن مبدأها من شجرة الفم.

و الصاد و السین و الزاء أسلیة، لأن مبدأها من أسلة اللسان.

و الطاء و التاء و الدال نطعیة، لأن مبدأها من نطح الغار الأعلی.

---

(۱) الخلیل، کتاب العین: ۱/ ۴۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۴۳

و الظاء و الذال و الثاء لثویة، لأن مبدأها من اللثة.

و الراء و اللام و النون ذلقیة، لأن مبدأها من ذلق اللسان.

و الفاء و الباء و المیم شفویة، لأن مبدأها من الشفة.

و الیاء و الواو و الألف و الهمزة هوائیة فی حیز واحد، لأنها لا یتعلق بها شیء «۱».

إن هذه التسمیات التشخیصیة قد نهضت بکیان کل صوت و عادت به إلی نقطة انطلاقه، و اهتداء الخلیل إلیها بذهنه المتوهج فطنة و ذکاء، دون مثال یحتذیه عند من سبقه من علماء العربیة کنصر بن عاصم اللیثی و أبی عمرو بن العلاء لدلیل ناصع علی موسوعیة فذة، و عبقریة لا تقاس بالأشباه، کیف لا و بدایة إفاضاته الصوتیة مبکرة و مبتکرة.

ختم الخلیل هذه المقدمة بما بدأه من ملحظ صوتی لیس غیر: «بدأنا فی مؤلفنا هذا بالعین، و هو أقصی الحروف، و نضم إلیه ما بعده حتی نستوعب کلام العرب الواضح و الغریب، و بدأنا الأبنیة بالمضاعف لأنه أخف علی اللسان، و أقرب مأخذا للمتفهم» «۲». و لمّا کانت هذه المتقدمة مشتملة علی الإفاضة الصوتیة الأولی عند العرب، فإننا نشیر إلی بعض ملامحها بإیجاز و تحدید:

۱- لقد أدرک الخلیل بفطرته الصافیة، و حسه المتوقد، أهمیة الصوت اللغوی، فی الدراسات اللغویة المتخصصة، فأشار إلی أبعادها من ینابیعها الأولی، فوضع یده علی الأصول فی انطلاق الأصوات من مخارجها الدقیقة، و أفرغ جهده الدءوب فی التماس التسمیات للمسمیات فطبق بها المفصل، و تمکن من استنباط طائفة صالحة من الأسرار الصوتیة من هذا الخلال، لذلک فقد کان صحیحا ما توصل إلیه محققا العین أن فی المقدمة منه «بواکیر معلومات صوتیة لم یدرکها العلم فیما خلا العربیة من اللغات إلا بعد قرون عدة من عصر الخلیل» «۳».

---

(۱) الخلیل، کتاب العین: ۱/ ۵۸.

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۶۰.

(۳) ظ: مقدمة التحقیق لکتاب العین: ۱/ ۱۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۴۴

فقد استعمل الخلیل کلمة (حرف) للدلالة علی إرادة (صوت) منها، فکانت الأصوات عنده هی: الحروف الذلق/ الحروف الشفویة/ حروف الحلق/ حروف أقصی الحلق/ الحروف الصحاح/ الحروف الصم/ حروف الجوف/ حروف اللین/ حروف ما بین عکدة اللسان/ الحروف اللهویة/ الحروف الشجریة/ الحروف الأسلیة/ الحروف النّطعیة/ الحروف اللثویة ... إلخ «۱» و هو یرید بذلک، أصوات الذلاقة، و أصوات الشفة، و أصوات الحلق، و أصوات أسلة اللسان. إلخ.

و لا یکتفی بهذا حتی یسمی هذه الأصوات بالإضافة إلی مخارجها و مدارجها، ناظرا إلی هیئة المخرج من المدرج، و ما یصطدم بها من أجهزة النطق أو یتجاوزها باندفاع الهواء، فیصفها فی مثل النحو الآتی:

فمنها ما یخرج من الجوف و لیس لها حیّز تنسب إلیه سواه، و منها ما یقع فی مدرجة من مدارج اللسان، و ما یقع فی مدرجة من مدارج الحلق، و ما یقع من مدرج اللهاة، و ما هی هوائیة، أی أنها فی الهواء کالألف اللینة و الواو و الیاء «۱».

۲- یبتدع الخلیل فی هذه المقدمة أمرا ذا أهمیة قصوی فی حیاة الأصوات، فیصنع- و بدقة متناهیة- مخططا شاملا لمخرج کل صوت، و یقارن بین بعض الأصوات، فیضعها فی حیز متمیز عن حیز الأصوات الأخری، و یعطی بعض الخصائص المفرقة لصوت عن صوت، و یعالج إلحاق بعض الأصوات ببعض المخارج دون سواها، فتقف عند العلة و السبب، و تستظهر العلة التی تخفی و لا تکاد تبین، یقول الخلیل فی هذا التخطیط:

«فأقصی الحروف کلها العین ثم الحاء، و لو لا بحة فی الحاء لأشبهت العین لقرب مخرجها من العین.

ثم الهاء، و لو لا هتة فی الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من

---

(۱) ظ: الخلیل، کتاب العین: ۱/ ۵۳- ۵۷.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۴۵

الحاء، فهذه ثلاثة أحرف فی حیّز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء و الغین فی حیّز واحد کلها حلقیة.

ثم القاف و الکاف لهویتان، و الکاف أرفع.

ثم الجیم و الشین و الضاد فی حیّز واحد.

ثم الصاد و السین و الزاء فی حیّز واحد.

ثم الطاء و الدال و التاء فی حیّز واحد.

ثم الظاء و الذال و الثاء فی حیّز واحد.

ثم الراء و اللام و النون فی حیز واحد.

ثم الفاء و الباء و المیم فی حیّز واحد.

ثم الألف و الواو و الیاء فی حیّز واحد.

و الهمزة فی الهواء لم یکن لها حیّز تنسب إلیه «۱». و أقف عند الهمزة، فهی مختلف فیها، ففی الوقت الذی لا یوجد لها حیّز عند الخلیل، إلا فیما نسبه إلیه ابن کیسان فیما سبق، نجد سیبویه یبتدئ بها، و یعتبرها من حروف أقصی الحلق «۲». فی حین یعتبرها ابن جنی أول الحروف مخرجا، و یبتدئ بها «۳». بینما یعدّها الخلیل هوائیة منبعثة من الرئتین، و قد یوافقه ابن الجزری لأنه یعتبرها صوتا مرققا، سلس النطق، لا مبالغة فی تحقیقه «۴».

و الحق أن الهمزة صوت مهموس غیر مجهور، و قد ذهب دانیال جونز D. Joenes فیما بین ذلک إلی أنه صوت لیس بالمجهور، و لا هو بالمهموس، و إنما هو حالة بین حالتین.

و ذهب هفنر R. M. Heffner إلی أنه صوت مهموس دائما، و یبدو أن لا تعارض بین الرأیین، فکلاهما قد نفی عن الهمزة صفة الجهر، و لکن کلا

---

(۱) ظ: کتاب العین: ۱/ ۵۷- ۵۸.

(۲) ظ: سیبویه، الکتاب: ۲/ ۴۰۵.

(۳) ظ: ابن جنی، سر صناعة الأعراب: ۱/ ۵۰.

(۴) ظ: ابن الجزری، النشر فی القراءات العشر: ۱/ ۲۱۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۴۶

منهما أصدر حکمه بناء علی نظرة إلی الحنجرة تختلف عن نظر الآخر، فجونز قد اعتبر أن للحنجرة ثلاثة أوضاع: الاحتباس، الانفتاح دون ذبذبة، الانفتاح مع الذبذبة، و بذلک تکون الهمزة صوتا لا هو بالمجهور و لا بالمهموس.

أما هفنر فقد اعتبر أن للحنجرة وظیفتین هما: ذبذبة الأوتار الصوتیة، و هی صفة الجهر، و عدم ذبذبتها و هی صفة الهمس، و یدخل فی حالة عدم الذبذبة احتباس فی الحنجرة أو انطلاق فیها فی بقیة المهموسات، علی أن من المسلم به لدی کل منهما: أن الهمزة عبارة عن احتباس فی الحنجرة «۱».

إن هـذا العرض إنما تم لجونز و هفنر بعد تقدم العلم الفيزولوجى الذى أعانهما على فهم جهاز الحنجرة بتفصيلات ذبذبته و عدمها، و مع هـذا فقـد اختلفا من وجه فى الهمزة، أما الخليل فقـد عينها حسيا بذاته دون الاسـتعانة بخبرة تشـريحية معقدة، و انبعاثها من الرئتين دون حيّز تنسب إليه، لا يضـير معرفته الدقيقة بجهة انطلاقها و اصـطدامها و خروجها من فضاء الفم، و إذا كان العلم الحديث يميل إلى رأى سـيبويه فى الموضوع على فرض أن الخليـل لم يعتبرهـا أول الأـصوات، فسـيبويه تلميـذ الخليل و ابنه حملـة علمه، فالعائديـة على الخليل فى كلتا الحالتين، و هـذا ما يقرب ما نسـبه ابن كيسان إلى الخليل فى شأن الهمزة، فيبـدو لنا أنه لم يبدا بها لأن العين أنصع منها ليس غير.

۳- فى هـذه المقدمة: إشارات صوتية، و إشارات لغوية، و قد يدخل الملحظ الصوتى ضـمن الملحظ اللغوى كما فعل الخليل هذا لدى حديثه عن ألف الخماسى باعتبارها ليست أصلية فقال:

«أدخلت هذه الألفات فى الأفعال و أمثالها من الكلام لتكون الألف عمادا و سلما للسان إلى حرف البناء، لأن اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل» «۲».

---

(۱) ظ: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات فى الأصوات: ۱۶۷ و ما بعدها.

(۲) الخليل، العين: ۱/ ۴۹.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۴۷

لقـد كان بامكان الخليل التصـريح بأن هـذه الألف من حروف الزيادة، و لكنه لم يفعل، بل أراد و هو معيب بهـذه الإرادة، أنها وسـيلة لإخراج الصوت، فكأن أى صوت لا يمكن للمعرب أن ينطقه، و لا أن يأخـذ الصوت مادته و صـفته إلا بعد اعتماده على صوت الألف الأولى قبله، و من أجل ذلك دعاها عمادا أو سـلّما، كما أشار إلى أن إخراج الصوت، و هو ساكن بصـفته: محتاج إلى وسيلة إخراجه، لأن اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف، و كانت هذه الوسيلة هى ألف الوصل «۱».

و الخليـل يراعى هـذا التمـازج الصوتى فى اللغـة فيحكم أن الاسم لا يكون أقل من ثلاثـة أحرف. حرف يبتـدأ به، و حرف يحشـى به الكلمـة، و حرف يوقف عليه، فهـذه ثلاثـة أحرف، فـإن صـيرت الثنـائى مثـل: قـد، هل لو، اسـما أدخلت عليه التشديـد فقلت: هـذه لوّ مكتوبة، و هذه قدّ حسنة الكتبة، زدت واوا على واو، و دالا على دال، ثم أدغمت و شدّدت.

فالتشديد علامة الإدغام، و الحرف الثّالث «۲».

إن هـذا الاهتمام السـليم فى ربط اللغـة بالصوت، و اعتبار الصوت امتـدادا للبنية التركيبة، و أصـلا للأفكار المنظورة فى اللغة، هو الذى توصل إليه بعـد قرون عـدة الأسـتاذ اللغوى فرديناند دى سوسور فى أن اللغـة فكرة منظمـة مقرونـة بالصوت من خلال تأمل عنصـرين يشتركان فى تأدية اللغة لوظيفتها، و هما: الأفكار و الأصوات من خلال الربط بينهما كما صنع الخليل.

يقول دى سوسور: «إن المادة الصوتيـة ليست أكثر ثبوتا، و لا أشد تحديدا من الفكر: و هى ليست قالبا يصب فيه الفكر بالضـرورة، بل هى مادة مرنـة تنقسم فى كل حالـة إلى أجزاء متميزة لتوفر الـدوال Significes التى يحتـاج إليهـا الفكر. و بـذلك يمكن أن نتصور الحقيقـة اللغويـة فى مجملهـا على أنهـا سلسـلة من التقسـيمات المتجاورة التى حـددت على مسـتويين: المسـتوى غير المحـدد للأفكار المكدسة، و مستوى الأصوات.

---

(۱) ظ: مقدمة التحقيق لكتاب العين: ۱/ ۱۱.

(۲) ظ: الخليل، العين: ۱/ ۴۹- ۵۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۴۸

إن الدور المميز للغة بالنسبة للفكر ليس وسيلة صوتية مادية للتعبير عن الأفكار، بل القيام بوظيفة حلقة الوصل بين الفكر و الصوت، فى ظروف تؤدى بالضرورة إلى التمييز المتبادل لوحدات الفكر و الصوت» «۱».

إن هذا المنحنى من التخطيط الصوتى هو الذى يرمى إليه الخليل فى مقدمة العين ليخلص إلى صلة التفاعل الحقيقى بين الأفكار و الأصوات، بل أنه يحصر ما فى كتاب العين من لغة و تصريف و اشتقاق بمنطق تذوقه لأصوات حروف المعجم «فإذا سئلت عن كلمة و أردت أن تعرف موضعها، فانظر إلى حروف الكلمة، فمهما وجدت منها واحدا فى الكتاب المقدم (يعنى مقدمة العين) فهو ذلك الكتاب» (يعنى كتاب العين) «۲».

فهو يرى فى اللغة امتدادا طبيعيا للأصوات أولا فيربطها بها ارتباط الأصل بالفرع، و نعنى بذلك ربط الأصوات أصلا، باللغة باعتبارها متفرعة عن الأصوات.

۴- و لعل أهم ما توصل إليه الخليل فى علم الأصوات حصره للمعجم العربى بأبعاد صوتية فضلا عن وصف الأصوات منفردة و مجتمعة و منضمّة إلى سواها. و إنى ليمتلكنى العجب حينما أجده يضع حدا جديدا، و معيارا فنيا متوازنا، للكلمات العربية باشتمالها على الحروف الذلق و الشفوية، و للكلمات الأعجمية التى لا تشتمل على واحد من حروف الذلاقة و الشفة.

هذا المقياس الفنى الصوتى لدى الخليل لم يخطئ و لا مرة واحدة حتى فى كلمة واحدة، فيا له من مقياس ما أكمله.

يقول الخليل: «فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرّاة من حروف الذلق أو الشفوية، و لا يكون فى تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك، فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب، لأنك لست واجدا من يسمع من كلام العرب

---

(۱) دى سوسور: علم اللغة العام: ۱۳۱ و ما بعدها.

(۲) ظ: الخليل، كتاب العين: ۱/ ۴۷.

بكلمة واحدة رباعية أو خماسية إلّا و فيها من حروف الذلق أو الشفوية واحد أو اثنان أو أكثر» «۱».

فهو هنا و بحس صوتى جامع مانع: يدرأ الدخيل و المعرّب و المولّد و المحدث و المبتدع عن لغة العرب، و تلك ميزة ما بعدها ميزة فى هذا الخضم المتلاطم من الكلمات و اللغى.

قال الليث: قلت: فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشىء من هذه الحروف؟ فقال نحو:

(الكشعثج و الخضعثج و الكشعطج و أشباههن) فهذه مولدات لا تجوز فى كلام العرب، لأنه ليس فيهن شىء من حروف الذلق و الشفوية فلا تقبلن منها شيئا، و إن أشبه لفظهم و تأليفهم، فإن النحارير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس فى كلام العرب إرادة اللبس و التعنيت» «۲».

و ليس جديدا بعد العروض السابقة القول بأن الخليل كان ضليعا بكل تفصيلات الجهاز الصوتى عند الإنسان، و لا يضيره- إن صح ما يقال- أن لا يذكر الوترين الصوتيين، لأنه ليس عالما بالتشريح، و لا متخصصا بجراحة الحنجرة، و ما اضطلع بمهمة طبية قط، و ما ذكره من أجزاء هذا الجهاز فيه الكفاية لعصره إن لم نقل للعصور كافة، لأنه قد تضمن بكثير من الأبعاد الإشارة لهذه المباحث التى تفرغ لها الأوروبيون.

قال جملة من الأساتيذ:

«و من أحسن ما عرض له العرب فى دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتى، و هو الحلق و الفم إلى الشفتين، و تقسيمه إياه إلى مناطق و مدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف، و ما أشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج،

فقد هدی بذکائه المتفوق فی ذلک إلی مقاییس صحیحة أقرّ کثیرا منها علماء الأصوات المحدثون» «۳».

---

(۱) الخلیل، کتاب العین: ۱/ ۵۲.

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۵۲ و ما بعدها

(۳) مصطفی السقا و آخرون، مقدمة تحقیق سر صناعة الأعراب: ۱/ ۱۳.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۰

لقد اهتم علماء الأصوات المحدثون بوصف الجهاز الصوتی، و بیان وظیفته فی تفصیل دقیق استعانوا علی تحقیقه بعلم الصوت الفسملجی، فأعطوا ثمرات جیدة و مفیدة، و لکنها لا تختلف إلا قلیلا عن معطیات قدماء العرب، و لقد اقتصر العالم اللغوی دی سوسور (۱۸۵۷- ۱۹۱۳ م) أبرز لغوی أوروبی فی العصر الحدیث، اقتصر فی وصفه لجهاز الصوت علی تجویف الأنف، و تجویف الفم، و الحنجرة بما فی ذلک فتحة لسان المزمار الواقعة بین الوترین الصوتیین، و کانت المفردات التی أخضعها للدراسة عبارة عن الشفتین، و اللسان، و الأسنان العلیا، و الحنک، و اللهاة.

یقول دی سوسور: «إن فتحة لسان المزمار تتألف من عضلتین موازیتین، أو حبلین صوتیین، تفتح کلما ابتعدت العضلتان، بعضهما عن بعض، و تغلق عند ما تقتربان، و عند ما تتسع الفتحة تسمح بدخول الهواء بحریة کاملة فلا یحدث أی تذبذب فی الوترین الصوتیین. فی حین یحدث مثل هذا التذبذب (الصوت) عند ما تکون الفتحة ضیقة. و لیس لهذه العملیة فی إخراج الأصوات بدیل عادة.

إن التجویف الأنفی عضو غیر متحرک، و لا یمکن إیقاف تدفق الهواء فیه إلا برفع اللهاة. فهو عبارة عن باب مفتوح أحیانا.

أما تجویف الفم، فالاحتمالات التی یوفرها أکثر: إذ یمکن استخدام الشفتین لزیادة طول القناة (تجویف الفم) کما یمکن دفع الفکین إلی الخارج أو تقلیصهما نحو الداخل. و للشفتین و اللسان حرکات کثیرة مختلفة یمکن استخدامها، و یتناسب دور هذه الأعضاء فی إخراج الأصوات تناسبا طردیا مع مرونة حرکتها، فالحنجرة و التجویف الأنفی ثابتان، لهما وظیفة ثابتة ... و یستطیع المرء أن یخرج صوتا حنجریا بشد الوترین الصوتیین، و لکن الحنجرة لا تستطیع أن تخرج أصواتا متنوعة ... أما القناة الأنفیة فلیس لها من وظیفة فی النطق سوی إحداث رنین للذبذبات الصوتیة ...

و علی العکس من ذلک یسهم تجویف الفم فی إخراج الأصوات و إحداث الرنین.

و موجز القول: إن العناصر التی تسهم فی إخراج الأصوات هی:

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۱

الهواء إلی الخارج، و النطق فی الفم، و تذبذب فی منطقة الحنجرة، و الرنین الأنفی «۱».

إذن: اندفاع الهواء من الرئتین+ النطق فی الفم+ التّصویت فی الحنجرة+ الرنین فی الأنف- إحداث الأصوات.

بهذا أعطی دی سوسور تفصیلا مکثفا لإحداث الأصوات و تولیدها من أجهزتها، و لکن هذا التفصیل لم یکن لیتأتی له لو لا تطور الدراسات الصوتیة فسلجیا و فیزیائیا و تشریحیا، أما الخلیل فقد اهتدی لذلک فطریا علی وجه العموم، و اکتشف و لأول مرة کل التفصیلات الصحیحة لجهاز النطق و إحداث الصوت بذهنیته الوقادة دون الاستعانة بأی علم یتسع لمثل إبداعاته الصوتیة فی بیئته البدویة.

و لم یکن فهم الخلیل لأبعاد إحداث الأصوات بمنأی عن الفهم عند دی سوسور، بل لقد زاد علیه- کما عرفت سابقا- فی کثیر من الخصوصیات الانطلاقیة لهذه الأجزاء- التی قد تعتبر أولیة فی مدرسته الصوتیة- تنم عن إدراک متکامل للموضوع، و تمرس عمیق فی قضایا صوتیة معقدة.

---

(۱) دی سوسور، علم اللغة العام: ۶۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۲

الصوت فی منهجیة سیبویه

و لو ترکنا الخلیل ذاته إلی من تأثر بمدرسته لوجدنا جهودا صوتیة متناثرة، تستند فی أغلبها إلی مبتکرات الخلیل، توافقه حینا، و تخالفه حینا آخر. فأعضاء النطق مثلا عند الخلیل و عند سیبویه (ت: ۱۸۰ ه) واحدة، و الحروف فی مدارجها، و یعنی بها الأصوات تبعا للخلیل، تبدأ بأقصی الحلق، و تنتهی بالشفتین، فهی عند سیبویه کما هی عند الخلیل «۱».

و لکن ترتیب الحروف فی کتاب سیبویه تخالف ترتیب الخلیل، فحینما وضع الخلیل الأبجدیة الصوتیة للمعجم العربی مبتکرا لها، خالفه سیبویه فی ترتیب تلک الأصوات، إذ بدأ بالهمزة و الألف و الهاء، و قدّم الغین علی الخاء، و أخر القاف عن الکاف و هکذا ...

یتضح هذا من ترتیبه للحروف علی هذا النحو:

همزة. ا. ه.

ع. ح. غ. خ.

ک. ق.

ض. ج. ش.

ی. ل. ر.

ن. ط. د. ت. ص.

---

(۱) ظ: سیبویه، الکتاب: ۲/ ۴۰۵.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۳

ز. س. ظ.

ذ. ث. ف.

ب. م. و «۱».

و هذا و إن کان خلافا جوهریا فی ترتیب مخارج الأصوات، إلا أنه لا یعنی أکثر من العملیة الاجتهادیة فی الموضوع دون الخروج عن الأصل عند الخلیل. «کذلک نلاحظ اختلافا واحدا فی ترتیب المجموعات الصوتیة بالنظر إلی تقدمها و تأخرها، فقد جاءت حروف الصّیغیر فی کتاب العین بعد الضاد، و هو حرف حافة اللسان، و الذی عند سیبویه بعد الضاد: حروف الذلاقة. و نتیجة لتقدیم حروف الصفیر، فقد وضع مکانها حروف الذلاقة، و معنی ذلک أنه فی العین حدث تبادل بین حروف الصفیر و حروف الزلاقة» «۲».

إن الاختلاف من هذا القبیل لا یعدو وجهة النظر الصوتیة المختلفة، و لکنه لا یمانع أن تکون آراء سیبویه فی الکتاب امتدادا طبیعیا لمدرسة الخلیل، نعم لا ینکر أن لسیبویه ابتکاراته المقررة، فنحن لا نبخس حقه، و لا نجحد أهمیته فی منهجة البحث الصوتی، فقد کان له فضل بذلک لا ینکر، فتصنیفه لصفات الأصوات فی الجهر و الهمس و الشدة و الرخاوة و التوسط، و کشفه لملامح الإطباق و اللین، و تمییزه لمظاهر الاستطالة و المد و التفشی، کل أولئک مما یتوّج صوتیته بالأصالة.

و لسیبویه قدم سبق مشهود له فی قضایا الإدغام، و هی معالم صوتیة فی الصمیم، فقد قدم لها بدراسة علم الأصوات، کما قدم الخلیل معجمه بعلم الأصوات، فالخلیل قد ربط بین اللغة و الصوت، و سیبویه قد ربط بین قضایا الصوت نفسها، لأن الإدغام قضیة صوتیة «و نحن نقرر هنا مطمئنین أن سیبویه قد وضع قواعد هذا البحث و أحکامه لا لفترة معینة من الزمن،

(۱) المصدر السابق و الصفحة.

(۲) حسام النعیمی، الدراسات اللهجیة و الصوتیة عند ابن جنّی: ۲۲۹.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۴

بل یکاد یکون ذلک نهائیا، و کان تصرفه فیها تصرفا رائعا، صادرا عن عبقریة سبقت الزمن، فلم یکن ممن جاء بعده من العلماء و الباحثین إلا- أن اتبعوا نهجه، و اکتفوا بما قال، و لم یزیدوا بعد سیبویه علی ما قال حرفا، بل أخذوا یرددون عباراته مع کتبهم، و یصرحون بأنهم إنما یتبعون مذهبه، سواء فی ذلک علماء النحو و علماء القراءة» «۱».

و قد یکون فی هذا الحکم مبالغة، و لکنه مقارب للحقیقة فی کثیر من أبعاده، إذ کان سبّاقا إلی الموضوع بحق.

و مما یجلب الانتباه حقا عند سیبویه فی صفات الحروف و مخارجها، هو تمییزه الدقیق بین صفة الجهر و صفة الهمس فیما أشرنا له فی الفصل السابق فمصدر الصوت المجهور یشترک فیه الصدر و الفم، و مصدر الصوت المهموس من الفم وحده، و بمعنی آخر أن للرئتین عملا ما فی صفة الجهر، بینما ینفرد الفم بصفة الهمس «۲».

فتعریف المجهور عنده: «حرف أشبع الاعتماد فی موضعه، و منع النفس أن یجری معه حتی ینقضی الاعتماد علیه، و یجری الصوت. بینما المهموس: حرف أضعف الاعتماد فی موضعه حتی جری النفس معه» «۳».

و هو یعبر بالموضع هنا عن المخرج فیما یبدو، و یجری الصوت عن الشیء الإضافی فی حالة الجهر عن حالة الهمس التی یجری النفس معها لا الصوت. «و قد ظلت محاولة سیبویه تفسیر المجهور و المهموس من الأصوات قانونا سار علیه جمیع من جاء بعده من النحاة و القراء. إلی أن جاءت بحوث المحدثین فصدقت کثیرا مما قاله فی هذا الباب» «۴».

و من المفید الرجوع إلی ما فسره فی هذا المجال أستاذنا المرحوم الدکتور إبراهیم أنیس فقد أشبعها بحثا و تنویرا «۵».

(۱) عبد الصبور شاهین، أثر القراءات فی الأصوات و النحو العربی: ۱۹۸.

(۲) سیبویه، الکتاب: ۲/ ۲۸۴.

(۳) المصدر نفسه: ۲/ ۴۰۵.

(۴) عبد الصبور شاهین، أثر القراءات فی الأصوات و النحو العربی: ۲۰۵.

(۵) ظ: إبراهیم أنیس، الأصوات اللغویة: ۹۲ و ما بعدها.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۵

و لا یمکن فی منظورنا أن تفصل سیبویه عن مدرسة الخلیل فی اللغة و الأصوات، فهو الممثل الحقیقی لها فیما نقل لنا من علم الخلیل فی الکتاب، و تبقی مدرسة الخلیل الصوتیة منارا یستضاء به فی کثیر من الأبعاد لمن جاء بعده. فابن درید (ت: ۳۲۱ ه) مثلا، یذکر فی مقدمة الجمهرة إفاضات الخلیل بعامة، و یضیف إلیها بعض الإشارات فی ائتلاف الحروف و الأصوات، و لکن هذا بالطبع لا یخرجه عن إطار هذه المدرسة فی کل الأحوال، فلدیه علی سبیل المثال جملة کبیرة من التسمیات المتوافقة مع الخلیل کالاصوات الرخوة، و الأصوات المطبقة، و الأصوات الشدیدة. کما أن له بعض الاجتهادات الصوتیة فی أکثر الحروف ورودا فی الاستعمال، فأکثرها الواو و الیاء و الهاء، و أقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشین ثم القاف ثم الخاء ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم المیم «۱».

و لا تعلم صحة هذا الاجتهاد إلا بالاحصار. و لیس کثیرا علی ابن درید الإحصاء و الاستقصاء.

و بعد مدرسة الخلیل نجد ابن جنی (ت: ۳۹۲ ه) مؤصل هذا الفن و مبرمجه، و أول مضیف له إضافات مهمة ذات قیمة منهجیة فی الدراسات الصوتیة، بما تواضعنا علی تسمیته ب (الفکر الصوتی عند ابن جنی) أو أن جهود ابن جنی فی الأصوات ارتفعت إلی

مستوی الفکر المخطط و الممنهج، فأفردناه ببحث خاص، إذ انتهل من هذا الفکر رواد هذا الفن کما سنری.

---

(۱) ظ: ابن درید، جمهرة اللغة: ۱/ ۳۰۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۶

الفکر الصوتی عند ابن جنی

اشارة

نهض ابن جنی (ت: ۳۹۲ ه) بأعباء الصوت اللغوی بما یصح أن نطلق علیه اسم الفکر الصوتی، إذ تجاوز مرحلة البناء و التأسیس إلی مرحلة التأصیل و النظریة، فقد تمحض لقضیة الأصوات فی کتابه (سر صناعة الإعراب) مما جعله فی عداد المبدعین، و خطط لموضوعات الصوت مما اعتبر فیه من المؤصلین، و نحن الآن بإزاء بیان المبادئ العامة لفکره الصوتی دون الدخول فی جزئیات الموضوع.

و یجدر بنا فی بدایة ذلک أن ننتبه لملحظین مهمین و نحن نستعرض هذا الفکر فی سر صناعة الأعراب: «۱» أ- إن ابن جنی کان أول من استعمل مصطلحا لغویا للدلالة علی هذا العلم ما زلنا نستعمله حتی الآن، و هو «علم الأصوات».

ب- إن ابن جنی یعدّ الرائد فی هذه المدرسة، و کان علی حق فی قوله فی کتابه: «و ما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض فی هذا الفن هذا الخوض، و لا أشبعه هذا الإشباع ... «۲»

و بدءا من المقدمة یعطیک ابن جنی منهجه الصوتی، لتقرأ فیه فکره، و تتلمس فلسفته، و تتثبت من وجهته، فیذکر أحوال الأصوات فی حروف المعجم العربی (من مخارجها و مدارجها، و انقسام أصنافها، و أحکام مجهورها و مهموسها، و شدیدها و رخوها، و صحیحها و معتلها، و مطبقها

---

(۱) ظ: أحمد مختار عمر، البحث اللغوی عند العرب: ۹۹.

(۲) ابن جنی، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۶۳.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۵۷

و منفتحها، و ساکنها و متحرکها، و مضغوطها و مهتوتها، و منحرفها و مشرّبها، و مستویها و مکررها، و مستعلیها و منخفضها، إلی غیر ذلک من أجناسها» «۱».

و ابن جنی فی هذا الاسترسال السلس یعطینا مهمة الفکر الصوتی فی تحقیق المصطلحات بعامة عن طریق تشخیص المسمیات التی أسماها، و إن سبق إلی بعضها عند الخلیل و سیبویه و هو لا یکتفی بهذا القدر حتی یبحث الفروق، و یعین المیزات و یذکر الخصائص لکل حرف من هذه الأصناف، و یفرق بینها و بین الحرکات، مع لوازم البحث و مقتضیاته، إلماما بجمیع الجوانب، و تنقیبا عن کل النوادر المتعلقة بهذه الأبواب فیقول:

«و أذکر فرق ما بین الحرف و الحرکة، و أین محل الحرکة من الحرف:

هل هی قبله أو معه أو بعده؟ و أذکر أیضا الحروف التی هی فروع مستحسنة، و الحروف التی هی فروع مستقبحة، و الحرکات التی هی فروع متولدة عن الحرکات، کتفرع الحروف من الحروف. و أذکر أیضا ما کان من الحروف فی حال سکونه له مخرج ما، فإذا حرک أقلقته الحرکة، و أزالته عن محله فی حال سکونه، و أذکر أیضا أحوال هذه الحروف فی أشکالها، و الغرض فی وضع واضعها،

و كيف ألفاظها ما دامت أصواتا مقطعة، ثم كيف ألفاظها إذا صارت أسماء معرفة، ما الذى يتوالى فيه إعلالان بعد نقله، مما يبقى بعد ذلك من الصحة على قديم حاله، و ما يمكن تركبه و مجاورته من هذه الحروف و ما لا يمكن ذلك فيه، و ما يحسن و ما يقبح فيه مما ذكرنا، ثم أفرد- فيما بعد- لكل حرف منها بابا أغترف فيه ذكر أحواله و تصرفه فى الكلام من أصليته و زيادته، و صحته و علته، و قلبه إلى غيره، و قلب غيره إليه» «۲».

إن هذا المنهج يكشف عن عمق الفكر الصوتى عند ابن جنى إذ يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية دقيقة منظّمة، و يتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف يتنقل فيه من الأدنى إلى الأعلى، و من البسيط إلى المركب حتى إذا تكاملت الصورة لديه، بدأ بالبحث المركز،

---

(۱) ابن جنى، سر صناعة الإعراب: ۱/ ۳- ۴.

(۲) المصدر نفسه و الصفحة.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۵۸

فلا ترى حشوة و لا نبوة، و لا تشاهد تكرارا أو اجترارا، فأنت بين يدى مناخ جديد مبوّب بأفضل ما يراد من التصنيف و التأليف، فلا تكاد تستظهر علما مما أفاض حتى يلاحقك علم مثله كالسبيل اندفاعا، و لعل أبرز ما تعقبه فى سر صناعة الاعراب لصوقا بجوهر الصوت الخالص البحوث الآتية:

۱- فرق ما بين الصوت و الحرف.

۲- ذوق أصوات الحروف.

۳- تشبيه الحلق بآلات الموسيقى (المزمار، العود).

۴- اشتقاق الصوت و الحرف.

۵- الحركات أبعاض حروف المد.

۶- العلل و علاقتها بالأصوات.

۷- مصطلحات الأصوات العشرة التى ذكرها آنفا مع ما يقابلها.

۸- حروف الذلاقة و الإصمات.

۹- حسن تأليف الكلمة من الحروف فيما يتعلق بالفصاحة فى اللفظ المفرد، و تأصيل ذلك على أساس المخارج المتباعدة.

۱۰- خصائص كل صوت من حروف المعجم، و حيثياته، و جزئياته كافة، بمباحث متخصصة لم يسبق إليها فى أغلبها، فهى طراز خاص فى المنهج و العرض و التبويب.

و لو أضفنا إلى مباحث (سر صناعة الإعراب) جملة من مباحثه فى جهوده الأخرى لا سيما فى كتاب (الخصائص) لتوصلنا من ضم بعضها لبعض إلى مجموعة مفضلة من مباحث الصوت اللغوى يمكن رصدها و تصنيفها على النحو الآتى:

۱- الصوامت من الحروف و الصوائت.

۲- علاقة اللهجات بالأصوات.

۳- علاقة الإعراب بالأصوات.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۵۹

۴- التقديم و التأخير فى حروف الكلمات و تأثيرهما على الصوت.

۵- علاقة الافعال بالاصوات.

۶- الإعلال و الإبدال و الإدغام و أثرها فى الأصوات.

۷- الأصوات و علاقتها بالمعانى.

۸- زيادة المبنى الصوتى و أثره فى زيادة المعنى.

و يبدو لى أن هذه هى أهم الأصول العامة لمباحث الصوت اللغوى عند ابن جنى فى كتابيه، و التوسع فى كل أصل يقتضى بحثا متكاملا فى كل مقوماته، و بذلك يتوصل إلى فكره الصوتى، فى العرض و الأسلوب و النتائج، و السبيل مسيرة أمام الباحثين، و لا بد لنا من الإشارة لملامح هذا الفكر فى نقاط، لأننا لسنا بإزاء تتبعه، بل بإزاء القربة إليه لرصد مميزاته و منهجه فى المعالجة و الإفاضة و التصنيف.

أولا- لقد تتبع ابن جنى الحروف فى المخارج، و رتبها و نظمها على مقاطع مستفيدا بما ابتكره الخليل، إلا- أنه كان مخالفا له فى الترتيب، و موافقا لسيبويه فى الأغلب إلا فى مقام تقديم الهاء على الألف، و تسلسل حروف الصفير «۱».

و يرجح الدكتور حسام النعيمى أن تقدم الهاء على الألف فى كتاب سيبويه من عمل النسّاخ، لأن ابن جنى- و هو أقرب إلى عصر سيبويه من النساخ المتأخرين- قد نصّ على أن الألف مقدمة على الهاء عند سيبويه، و إن حروف الصفير و هى (الزاى)، السين، الصاد) من مخرج واحد فلا يتقدم أحدها على الآخر، فلم يبال بالتقديم و التأخير بينها لذلك «۲».

و هكذا كان ترتيب الحروف عند ابن جنى على ترتيب المخارج:

الهمزة، الألف، الهاء، العين، الحاء، الغين، الخاء، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الياء، الضاد، اللام، الراء، النون، الطاء، الدال، التاء،

---

(۱) قارن بين: سيبويه، الكتاب: ۲/ ۴۰۵+ ابن جنّى، سر الصناعة: ۱/ ۵۲- ۵۳.

(۲) ظ: حسام النعيمى، الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جنّى: ۳۰۱.

الصاد، الزاى، السين، الظاء، الذال، الثاء، الفاء، الباء، الميم، و الواو «۱».

و هذا الترتيب مخالف للخليل، و فيه بعض المخالفة لسيبويه فى ترتيبه كما يظهر هذا لدى المقارنة فى جدولة الترتيبين كما سبق.

و ابن جنى لا يخفى هذا الخلاف بل ينص عليه، و يذهب إلى صحة رأيه دونهما فيقول:

«فهذا ترتيب الحروف على مذاقها و تصعدها، و هو الصحيح، فأما ترتيبها فى كتاب العين ففيه خطل و اضطراب، و مخالفة لما قدمناه آنفا محاربته سيبويه، و تلاه أصحابه عليه، و هو الصواب الذى يشهد التأمل له بصحته» «۲».

ثانيا: و يضيف ابن جنى إتماما لنظريته فى الأصوات: ستة أحرف مستحسنة على حروف المعجم العربى، و ثمانية أحرف فرعية مستقبحة، و لا يصح ذلك عنده إلا بالسمع و المشافهة، حتى تكون حروف المعجم مع الحروف الفرعية المستحسنة خمسة و ثلاثين حرفا، و هما مع الحروف الفرعية المستقبحة ثلاثة و أربعون حرفا.

و لا معنى لهذه الإضافات من قبله لو لم يكن معنيا بالصوت فحروف العربية تسعة و عشرون حرفا، لا شك فى هذا، و لكن الحروف المستقبحة و المستحسنة التى أضافها، و إن لم يكن لها وجود فى المعجم العربى، إلا أن لها أصواتا فى الخارج عند السامعين، و هو إنما يبحث فى الأصوات فأثبتها، فعادت الأصوات فى العربية عنده ثلاثة و أربعين صوتا، و هو إحصاء دقيق، و كشف جديد، و تثبيت بارع.

و قد ذهب ابن جنى فى هذه الحروف مذهبا فنيا تدل عليه قرائن الأحوال، فهو يعطى استعمالها فى مواطنه، و تشخيصها فى مواضعه، فالحروف المستحسنة عنده، يؤخذ بها فى القرآن و فصيح الكلام، و هى:

---

(۱) ابن جنی، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۵۰

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۵۰- ۵۱.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۶۱

«النون الخفیفة، و الهمزة المخففة، و ألف التفخیم، و ألف الإمالة، و الشین التی کالجیم، و الصاد التی کالزای ... و الحروف الفرعیة المستقبحة، هی فروع غیر مستحسنة، لا یؤخذ بها فی القرآن و لا فی الشعر، و لا تکاد توجد إلا فی لغة ضعیفة مرذولة، غیر متقبلة. و هی: الکاف التی بین الجیم و الکاف، و الجیم التی کالکاف، و الجیم التی کالشین، و الضاد الضعیفة، و الصاد التی کالسین، و الطاء التی کالتاء، و الظاء التی کالثاء، و الباء التی کالمیم» «۱».

ثالثا: و یحصر ابن جنی مخارج الحروف فی ستة عشر مخرجا، ناظرا إلی موقعها فی أجهزة النطق، و منطلقا معها فی صوتیتها، و یسیر ذلک بکل ضبط و دقة و أناقة، فیقول:

«و اعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر، ثلاثة منها فی الحلق:

۱- فأولها من أسفله و أقصاه، و مخرج الهمزة و الألف و الهاء.

۲- و من وسط الحلق: مخرج العین و الحاء.

۳- و مما فوق ذلک من أول الفم: مخرج الغین و الخاء.

۴- و مما فوق ذلک من أقصی اللسان: مخرج القاف.

۵- و من أسفل من ذلک و أدنی إلی مقدم الفم: مخرج الکاف.

۶- و من وسط اللسان، بینه و بین وسط الحنک الأعلی: مخرج الجیم و الشین و الیاء.

۷- و من أول حافة اللسان و ما یلیها: مخرج الضاد.

۸- و من حافة اللسان من أدناها إلی منتهی طرف اللسان، من بینها و بین ما یلیها من الحنک الأعلی، مما فویق الضاحک و الناب و الرباعیة و الثنیة: مخرج اللازم.

۹- و من طرف اللسان بینه و بین ما فوق الثنایا: مخرج النون

---

(۱) ابن جنی، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۵۱.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۶۲

۱۰- و من مخرج النون، غیر أنه أدخل فی ظهر اللسان قلیلا لانحرافه إلی اللام: مخرج الراء.

۱۱- و مما بین طرف اللسان و أصول الثنایا: مخرج الطاء و الدال و التاء.

۱۲- و مما بین الثنایا و طرف اللسان: مخرج الصاد و الزای و السین.

۱۳- مما بین اللسان و أطراف الثنایا: مخرج الظاء و الذال و الثاء.

۱۴- و من باطن الشفة السفلی و أطراف الثنایا العلی: مخرج الفاء.

۱۵- و ما بین الشفتین، مخرج الباء و المیم و الواو.

۱۶- و من الخیاشیم، مخرج النون الخفیفة، و یقال الخفیفة أی:

الساکنة، فذلک ستة عشر مخرجا» «۱».

و حینما یتابع ابن جنی مسیرته الصوتیة فی مخارج هذه الحروف، نجده متمحضا لها فی دقة متناهیة بما نعتبره أساسا لما تواضع علیه الأوروبیون باسم الفونولوجی Phonolojy أی «التشکیل الأصواتی» أو هو النظام الصوتی فی تسمیة دی سوسور له و هو ما نمیل إلیه

«۲».

و من خلال هـذا النظام نضع أيدينا على عدة ظواهر صوتية متميزة فى المنهج الصوتى عند ابن جنى كشـفنا عنها بصورة أولية فى عمل أصواتى مستقل سبقت تغطيته «۳».

الصوت اللغوى فى القرآن ۶۲ الفكر الصوتى عند ابن جنى ..... ص : ۵۶

و هنـا نحـاول فلسـفتها بصورة متكاملـة مقارنـة بظروفهـا المماثلـة فى الفكر الصوتى الإنسـانى، فيمـا حقق من نظام أصواتى حـديث لا يختلف كثيرا عما أبداه ابن جنى فى الظواهر الآتية:

۱- مصدر الصوت و مصطلح المقطع:

: يتحدث ابن جنى عن مصدر الصوت، و كيفية حدوثه، و طريق

---

(۱) ابن جنى، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۵۲- ۵۳.

(۲) ظ: دى سوسور، علم اللغة العام: ۵۱.

(۳) ظ: المؤلف، منهج البحث الصوتى عند العرب: بحث.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۳

خروجه، و عوامل تقاطعه، و اختلاف جرسه بحسب اختلاف مقاطعه، و بذلك يعطينا الفروق المميزة بين الأصوات و الحروف فيقول: «اعلـم أن الصـوت عرض يخرج مع النفس مسـتطيلا متصـلا، حـتى يعرض له فى الحلق و الفم و الشـفتين مقـاطع تثنيه عن امتـداده و اسـتطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، و تختلف أجراس الحروف بحسب مقاطعها، و إذا تفطنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك، أ لا ترى أنك تبتـدئ الصوت من أقصـى حلقك، ثم تبلغ به أى المقاطع شـئت، فتجـد له جرسا ما، فإن انتقلت عنه راجعا منه أو متجاوزا له ثم قطعت، أحسـست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، و ذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سـمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، و إن جزت إلى الجيم سمعت غير ذينك الأولين ... «۱»

هـذا العرض فى إحداث الصوت كشف لنا عن مصـطلح حديث عند الأوروبيين هو المقطع، و أقف عنده لما اسـتقطبه هذا الاصـطلاح الذى سيره «ابن جنى» من مناقشات و ممارسات أصواتية متميزة، كان هو الأساس فيها فى الدلالة الدقيقة على المعنى المراد دون غيره عند الأصواتيين العالميين.

الأصوات عادة تتجمع فى وحدات، تكون تلك الوحدات أكبر من الأصوات بالضرورة، لأنها أطول مسافة صوتية، فتشكل فى أكثر من صوت وحـدة صوتيـة معينـة، و أهم هـذه الوحـدات هو المقطع الذى تذوقه ابن جنى، فرأى فيه ما يثنى الكلام عن اسـتطالته و امتداده تارة، و ما تحس به صدى عند تغير الحرف غير الصدى الاول تارة أخرى.

و التعريف البسـيط للمقطع هو «تـأليف أصواتى بسـيط، تتكون منه واحـدا أو أكثر كلمات اللغـة، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعى، و مع نظام اللغة فى صوغ مفرداتها» «۲».

و قد جرى تأليف المقطع العربى على البدء بحرف صامت، و يثنى

---

(۱) ابن جنى، سر صناعة الأعراب: ۱/ ۶.

(۲) عبد الصبور شاهين، علم الأصوات- الدراسة: ۱۶۴.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۴

بحركة، و لا يبدأ بحركة إطلاقا خلافا للغات الأوروبية.

و من المبادئ الأساسية أن اللغة العربية تبدأ كلماتها بمتحرك واحد، و تختمها إما بحركة، فهو المقطع المفتوح. و إما بصامت، فهو المقطع المقفل. و من غير الممكن فى العربية أن تبدأ الكلمة بمجموعة من الصوامت، أو أن يتخلل الكلمة أكثر من صامتين متجاورين، أو أن تختم الكلمة بمجموعة من الأصوات الصامتة «۱».

إذن: حرف صامت+ حركة مقطع، و هذا هو المقطع القصير، و قد يضاف إلى هذا حرف صامت، أو حركة أخرى، فيكون المقطع طويلا، لأنه تجاوز الحد الأدنى من التكوين، و هو الحرف و الحركة، و تخطاهما إلى ثالث، حركة كان هذا الثالث أم حرفا.

و العربية عادة تتكون الغالبية العظمى من كلماتها من ثلاثة مقاطع فى المادة دون اشتقاقها، ففى الثلاثى خذ كلمة: «ذهب» فى ثلاثة مقاطع هى:

ذ/ ه/ ب، و كل مقطع هنا مكوّن من حرف و حركة كما ترى.

قال ابن جنى، مستفيدا بما قدمه الخليل «۲»: «إن الاصول ثلاثة:

ثلاثى رباعى و خماسى، فأكثرها استعمالا، و أعدلها تركيبا الثلاثى، و ذلك لأنه: حرف يبتدأ به، و حرف يحشى به، و حرف يوقف عليه. و ليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه حسب، لو كان كذلك لكان الثنائى أكثر منه لأنه أقل حروفا ... فتمكن الثلاثى إنما هو لقلة حروفه لعمرى، و لشىء آخر هو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه و لامه، و ذلك لتعادى حاليهما. أ لا ترى أن المبتدا لا يكون إلا متحركا و أن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنا، فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزا بينهما لئلا يفجئوا و الحسّ بضد ما كان آخذا فيه» «۳».

لقد أدرك الأصواتيون العرب هذا التخطيط المقطعى من ذى قبل

---

(۱) ظ: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات فى الأصوات و النحو العربى: ۴۰۹.

(۲) ظ: عبارة الخليل فى العين: ۱/ ۴۹.

(۳) ابن جنى، الخصائص: ۱/ ۵۵- ۵۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۵

فأكدوا عليه حتى فى تقطيع الوزن العروضى للشعر عند الخليل فى حدود، و هو ما أثبته ابن جنى فى برمجته للمقاطع فى تفصيله.

و لقد أفاد الأوروبيون من هذا الملحظ إفادة تامة، فقد كان المقطع- تبعا للتفكير التقليدى عند الغربيين- يتكون من حركة تعتبر دعامة أو نواة، يحوطها بعض الصوامت Consonnes و عليه بنى اسم Consonne أى الذى يصوّت مع شىء آخر، و هو الذى لا يصوت وحده، و أطلق على الحركات اسم مصوتات Sonnetes لأنها قادرة على التصويت دون الاعتماد على شىء آخر، و من هنا كان المفهوم الوظيفى للمقطع، كما جاءت أفكار الحركات و الصوامت «۱».

و هو نفسه ما تحدث عنه ابن جنى، و هو الواقع فى الفكر الصوتى عند العرب فالحرف لا ينطق وحده فيشكل صوتا، إلا بانضمام الحركة إليه، فيتكون بذلك المقطع الصالح للتصويت.

و يرى أتوجسبرسن OttoJespersen : أن الوحدات الأصواتية تتجمع حول الوحدة الأكثر إسماعا، بحسب درجة الوضوح السمعى، و المقطع طبقا لرأيه هو المسافة بين حدين أدنيين من الوضوح السمعى.

إن نظرية جسبرسن من بين ما ارتضاه عالم الأصوات الانجليزى دانيال جونز، فهى وصف جيد للمقطع المثالى، و لكنها لا تقول شيئا لنا عما هو جوهرى فى المقطع، و لا تقول لنا: أن الحد بين المقاطع، و هو ما يطلق عليه الحد المقطعى «۲».

حقا لقد كان البنيوى السويسرى فرديناند دى سوسور أقرب إلى الفكر العربى فى تصوره لحدود المقطع الصوتى على أساس درجة

الانفتاح فى الأصوات، إذ تتجمع الصوامت حول الحركات تبعا لدرجة الانفتاح، فالحد المقطعى يوجد و يتوافر حين يكون التنقل من صوت أكثر انغلاقا إلى صوت أكثر انفتاحا «۳».

---

(۱) ظ: برتيل مالمبرج، علم الأصوات: ۱۵۵.

(۲) ظ: المرجع نفسه بتصرف: ۱۵۷.

(۳) ظ: دى سوسور، علم اللغة العام: ۷۷ و ما بعدها.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۶

إن هذا التوصل إلى حدود المقطع و تعريفاته عند الأوروبيين هو الذى ذهب إليه ابن جنى، و أضاف إليه ذائقة كل مقطع، قال: «و سبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به ساكنا لا متحركا، لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه و مستقره، و تجتذبه إلى جهة الحرف التى هى بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: اك. اق. اج، و كذلك سائر الحروف، إلا أن بعض الحروف أشد حصرا للصوت من بعضها» «۱».

و هذا ما نعتبره ابتكارا لم يسبق إليه، إلا فيما عند الخليل فى ذواقة للأصوات اب/ ات/ اع/ اغ «۲».

فإنها مقاطع طويلة مقفلة تكونت من ثلاثة عناصر فى كل منها هى الألف و الكسرة و الحرف: ب/ ت/ ع/ غ.

و المدهش حق عند ابن جنى أن يهتدى إلى سر المقطع من خلال تصريفه لشئون الحركات، فهو يعتبر الحركة صوتيا تتبع الحرف، فتجد بهما الصوت يتبع الحرف «و إنما يعرف هذا الصويت التابع لهذه الحروف و نحوها ما وقفت عليها، لأنك لا تنوى الأخذ فى حرف غيرها، فيتمكن الصويت فيظهر، فأما إذا وصلت هذه الحروف و نحوها، فإنك لا تحس معها شيئا من الصوت كما تجده معها إذا وقفت عليها» «۳».

۲- جهاز الصوت المنتقل:

يتحدث ابن جنى عن جهاز الصوت المنتقل، أو مجموعة الأجهزة الصوتية فى الحلق و الفم، و سماعنا تلك الأصوات المختلفة، و ذلك عند ذائقته للحرف العربى، و وجدانه الاختلاف فى أجراسه، و التباين فى أصدائه فشبه الحلق بالمزمار، و وصف مخارج الحروف و مدارجها بفتحات هذا المزمار، و تتوجه عنايته بمجرى الهواء فى الفم عند إحداث الأصوات،

---

(۱) ابن جنى، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۷.

(۲) ظ: الخليل، العين: ۱/ ۴۷.

(۳) ابن جنى، سر صناعة الاعراب: ۱/ ۷.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۷

و يشبه بمراوحة الزامر أنامله على خروق الناى لسماع الأصوات المتنوعة و المتشعبة بحسب تغييره لوضع أنامله لدى فتحات المزمار، «فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة، و راوح بين أنامله، اختلفت الأصوات، و سمع لكل منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق و الفم، باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة» «۱».

و كذلك تعقيبه على هذا التمثيل فى إحداث الصوت بالنسبة لأوضاع أجهزة الصوت، بتشبيهه ذلك بوتر العود، و كيفية ضربه ببعض أصابع اليسرى أو جسّه فى اليمنى مما يحدث أصواتا مختلفة عند تلقى الأذن لذلك، فتتذوق من خلال ذلك جوهر الصوت، كما تتذوقه فى أصوات الحروف تبعا للرقة و الصلابة فى الوتر، و كذلك الحال بالنسبة للوترين الصوتيين فى جهاز النطق الصوتى عند

الإنسان، يقول:

«و نظير ذلك أيضا وتر العود، فإن الضارب إذا ضربه و هو مرسل سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا، سمعت غير الاثنين، ثم كذلك كلما أدنى إصبعه من أول الوتر غفلا غير محصور، تجده بالإضافة إلى ما أداه و هو مضغوط محصور، أملس مهتزا، و يختلف ذلك بقدر قوة الوتر و صلابته، و ضعفه و رخاوته، فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق، و الخفقة بالمضراب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق، و جريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت فى الألف الساكنة، و ما يعترضه من الضغط و الحصر بالأصابع كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع، و اختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا» «۲».

إن ما أبداه ابن جنى من تفصيل تمثيلى دقيق لجهاز النطق عند الإنسان و أثر انطلاق الهواء مضغوطا و غير مضغوط فى إحداث الأصوات مختلفة بحسب إرادة الناطق أو المصوّت: هو ما تبناه علم الأصوت

---

(۱) ابن جنى، سر صناعة الإعراب: ۱/ ۹.

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۹- ۱۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۸

الفيزيولوجى (Phonnetics -Physiology) فى الحديث عن الجهاز التنفسى الذى يقدم الهواء المناسب لتكييف حدوث الأصوات، و عن الحنجرة باعتبارها مفجرة الطاقة الصوتية، و عن التجاويف فوق المزمارية التى تلعب دور عزف الرنين فى إنتاج غالبية الضوضاء المستخدمة فى الكلام، و عن دور التنفس فى مرحلتى الشهيق و الزفير فى اتساع القفص الصدرى لدى الشهيق، فيدعو الهواء الخارجى بسبب هبوط الحجاب الحاجز، و ارتفاع الأضلاع إلى الدخول من فتحتى الأنف أو الفم عبر القصبة الهوائية إلى الرئتين، فتنتج أصواتا استثنائية مسموعة عند الأطفال، أو فى حالتى النشيج و الضحك.

أما الزفير فيشتمل على ارتفاع الحجاب الحاجز، و هبوط الأضلاع، و نتيجة لهذا يندفع الهواء بكمية كبيرة من الرئتين، هذا الهواء المندفع بالزفير هو الذى يستخدم فى التصويت «۱».

إن هذا التحليل الحديث فى حدوث الأصوات من وجهة نظر علمية أو تشريحية هو الذى أراده ابن جنى فى عنايته بمجرى الهواء فى عملية إحداث الأصوات، و لكن بأسلوب يتجاوز مناخ بيئته إلى البيئات المعاصرة، و تشبيهه لهذا الجهاز بمراوحة الزامر أنامله فى خروق الناى لسماع الأصوات لم يعد اليوم تشبيها بل عاد تسمية اصطلاحية فى علم الأصوات الفيزيولوجى بالنسبة للتصويت، إذ تطلق كلمة المزمار على الفراغ المثلث المحاط بالحبلين الصوتيين «فالمزمار يكون مفتوحا فى التنفس العادى، كما يكون مفتوحا خلال النطق ببعض الصوامت المهموسة، أما خلال التصويت فإن المزمار يجب أن ينغلق، على طول الخط الوسيط، فإذا بقى الجزء الموجود بين الغضروفين الهرميين مفتوحا، بحيث يسمح للهواء بالمرور سمعنا صوتا مستسرا هو صوت الوشوشة، و إذا كان الائتلاف كاملا كان المزمار فى وضع الاستعداد للتذبذب ... و من الممكن أيضا أن نقصر التذبذب على جزء من الحبل الصوتى، و بذلك نختصر طول الجسم المتذبذب، و هو ما يعطينا نغمة أكثر حدة. هذه المعطيات الفيزيولوجية تتفق اتفاقا كاملا مع القوانين الفيزيقية التى تحكم التردد

---

(۱) ظ: برتيل مالمبرج، علم الأصوات: ۴۳ بتصرف.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۶۹

الخاص باسم التذبذب» «۱».

أستطیع القول من خلال النص المتقدم دون مبالغة أو تردد: إن هذا النص یکاد أن یکون ترجمة عصریة لرأی ابن جنی فی تشبیهه جهاز الصوت لدی التذبذب فی إخراج الأصوات بالمزمار، الذی أصبح الیوم نقطة انطلاق الأصوات باعتباره فراغا یحاط بالوترین الصوتیین، إذ لم یکن هناک بد عند ابن جنی من تلمس جهاز ملموس للاستدلال من خلاله علی قضیة یصعب الاستدلال علیها فی عصره دون النظر إلی ذلک الجهاز، أما التشبیه الذی عاد الیوم مظنة لمساحة نطقیة قرب الحنجرة، فإنه قد لوّن بصبغة خاضعة لعلم التشریح، و لیس عصر ابن جنی عصر تشریح، و لا هو بمتخصص فیه مع فرض وجود أولیات الموضوع. لذلک جاءت هذه الترجمة معبرة عن رأیه، أو کاشفة عن تخطیطه تلقائیا، و حاکیة لتشبیهه تمثیلیا، و الأمر المنتزع من الحس، إذ أقیم علیه الدلیل الفعلی، کان مقاربا للأفهام، و مسایرا لحرکة التفکیر.

لقد کان ابن جنی موضوعیا فی صفة الجهاز المتنقل فی الأصوات مما جعله فی عداد المؤسسین.

۳- أثر المسموعات فی تکوین الأصوات:

و یتمرس ابن جنی بعض الحقائق الصوتیة، و لکنه یعرضها بحذر و یقظة، و قد ینسبها إلی بعض الناس، و ما یدرینا فلعلها له لأنه من بعضهم إلا أن له وجهة نظر قد تمنعه من التصریح بها لأسباب عقیدیة، قد لا یسیغها المناخ الاجتماعی فی نظر و إن کانت واقعا.

فهو یتحدث عن صدی الصوت فی بدایة تکوین اللغة، و أثر المسموعات الصوتیة فی نشوء الأصوات الإنسانیة، و هو ینقل ذلک عن بعضهم، و لکنه یذهب إلیه باعتباره مذهبا متقبلا و وجها صالحا للتعلیل، دعما لنظریته الصوتیة التی یربط بها الأشباه و النظائر، و یحشد لها الدلائل و البراهین، فیقول:

---

(۱) المرجع السابق: ۴۷ و ما بعدها باختصار.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۰

«و ذهب بعضهم إلی أن أصل اللغات إنما هو من الأصوات المسموعات، کدوی الریح، و حنین الرعد، و خریر الماء، و شحیج الحمار، و نعیق الغراب، و صهیل الفرس، و نزیب الظبی و نحو ذلک، ثم ولدت اللغات عن ذلک.

و هذا عندی وجه صالح و مذهب متقبل» «۱».

فهو یربط بین الأصوات الإنسانیة، و بین أصداء الطبیعة حینا، و أصوات الکائنات الحیوانیة حینا آخر، مما هو من ظواهر الموجودات فی الکون، و بین تکوین اللغات التی نشأت من هذه الأصوات فی بداایاتها الأولی.

«و قد ذهب إلی هذا الرأی معظم المحدثین من علماء اللغة و علی رأسهم العلامة وتنی۲ - Whitney¬.

و هذا ما یوقفنا علی رأی الأوروبیین، و تعلیلهم الصوتی فی أصل نشوء اللغات، و أهمهما فی نظرنا ما یوافق ابن جنی المنقول آنفا، و القائل بامتداد الصوت عند الإنسان عن الصوت الطبیعی للأشیاء، أو الصوت الحیوانی غیر العاقل، و إن جملة اللغات الإنسانیة قد انحدرت من تلک الأصوات.

و هذا لا یمانع أن یکون اللّه سبحانه و تعالی هو ملهم الأصوات، و منشئ اللغات، و معلم الکائنات، فهذا هو الاعتقاد الصحیح الذی لا تشوبه شائبة، فالکلام عن هذا شیء و البحث عن أصل اللغات فی انطلاق الأصوات شیء آخر.

علی أن هناک رأیا آخر یذهب إلی أن استعمال الإنسان لجهازه الصوتی کان عن طریق التأوهات و الشهقات التی صدرت عنه بصورة لا إرادیة، و ذلک حینما عبر عن آلامه حینا، و آماله حینا آخر «۳».

---

(۱) ابن جنی، الخصائص: ۱/ ۴۶- ۴۷.

(۲) علی عبد الواحد وافی، علم اللغة: ۹۵.

(۳) ظ: فی تفصیل هذه النظریات، إبراهیم أنیس، دلالة الألفاظ: ۲۰- ۳۵.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۱

۴- محاکاة الأصوات:

و قد ذهب ابن جنی مذهبا صوتیا فریدا یربط بین الصوت و الفعل تارة، و بین الصوت و الاسم تارة أخری، و یبحث علاقة کل منهما بالآخر علاقة حسیة و مادیة متجسدة، فجرس الألفاظ و وقعها فیما یحدثه من أصوات و أصداء سمعیة قد یکون متجانسا و مقاربا لنوعیة عنده فیقول:

«فإن کثیرا من هذه اللغة وجدته مضاهیا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التی عبر بها عنها، أ لا تراهم قالوا: قضم فی الیابس، و خضم فی الرطب. و ذلک لقوة القاف و ضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوی للفعل الأقوی، و الصوت الأضعف للفعل الأضعف» «۱».

و تجده یلائم بین الصوت اللغوی و علاقته بصوت الطائر فی الاستطالة و القطع، فالراء مرددة مکررة مستطیلة، و صوت الجندب مثلا مستطیل، فجعلت له «صرّ» مشددة، و صوت البازی مثلا متقطع، فقطعت الراء فکانت «صرصر» و ذلک ما رآه:

«و کذلک قالوا «صر الجندب» فکرروا الراء لما هناک من استطالة صوته، و قالوا «صرصر البازی» لما هناک من تقطیع صوته» «۲».

و فی هذا المجال فإن ابن جنی لا یقف عند هذا الحد من النظریة و التطبیق، بل یربط أحیانا بین الأصوات و بین ما سمی به الشیء، نظرا لمشابهته لذلک الصوت المنطلق من التسمیة، کالبط لصوته، و الواق للصرد لصوته، و غاق للغراب لصوته «۳».

و هو بهذا یذهب مذهب من یجد مناسبة ما بین الصوت و المعنی، لا سیما عند البلاغیین فی التماس علاقة اللفظ بالمعنی، أو فی الدلالة الحسیة للفظ بالمعنی، و هو من باب تسمیة الشیء باسم صوته، و تلک مقولة صحیحة فی جملة من الأبعاد، و حقیقة فی کثیر من المسمیات و التسمیات.

---

(۱) ابن جنی، الخصائص: ۱/ ۶۵.

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۱۶۵.

(۳) المصدر نفسه ۲/ ۱۶۵.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۲

و ابن جنی یؤکّد هذه الحقیقة فی المفردات اللغویة، لیعطیها صفة صوتیة متمازجة، فالعرب «قد یضیفون إلی اختیار الحروف و تشبیه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتیبها، و تقدیم ما یضاهی أول الحدیث، و تأخیر ما یضاهی آخره، و توسیط ما یضاهی أوسطه، سوقا للحروف علی سمت المعنی المقصود و الغرض المطلوب، و ذلک کقولهم: بحث، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الکف علی الأرض، و الحاء لصلحها تشبه مخاطب الأسد و براثن الذئب و نحوهما إذا غارت فی الأرض، و الثاء للنفث و البث للتراب» «۱».

و لا غرابة بعد هذا أن نجد صیغتین من صیغ العربیة تدلان علی الحدث الصوتی من جانبین:

أ- فعال، و تستعمل فی جزء کبیر منها للدلالة علی الأصوات و الضوضاء مثل: صراخ.

ب- فعللة، فإنها تستعمل فی العربیة فی جزء کبیر منها للدلالة علی حکایات الأصوات مثل: «الغرغرة» فإن صوتها من جنس تشکیل حروفها لفظیا، و إن معناها صدی من أصداء صوتها.

هذا نفسه هو ما ینجم عن التولید الصوتی للألفاظ عند الأوروبیین، کما فی الکلمة (قهقه) و الأصوات فیها دلیل من دلائل المعنی، و إذا أضفنا إلی (قهقه) (تمایل) فإننا سنجد فی الکلمة الأولی حدث تقلید صوت لصوت آخر، و فی الثانیة ترجمت الحرکة ترجمة بیانیة

بوسائل صوتیة.

و المصطلح الذی یغلب إطلاقه فی حالة الکلمات التی من هذا النوع هو (محاکاة الأصوات۲) Onomatopeid.¬

هذه جولة قد تکون نافعة فیما أوجده لنا ابن جنی من تأصیل صوتی لکثیر من الملامح و الخصائص و المکتشفات.

---

(۱) ابن جنّی، الخصائص:/ ۱۶۲- ۱۶۳.

(۲) ظ: ستیفن أولمان، دور الکلمة فی اللّغة: ۷۳- ۷۴ بتصرف.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۳

القرآن و الصوت اللغوی

اتخذت المباحث الصوتیة عند العرب القرآن أساسا لتطلعاتها، و آیاته مضمارا لاستلهام نتائجها، و هی حینما تمازج بین الأصوات و اللغة، و تقارب بین اللغة و الفکر، فإنما تتجه بطبیعتها التفکیریة لرصد تلک الأبعاد مسخرة لخدمة القرآن الکریم، فالقرآن کتاب هدایة و تشریع لا- شک فی هذا، و لکنه من جانب لغوی کتاب العربیة الخالد، یحرس لسانها، و یقوّم أود بیانها، فهی محفوظة به، و هو محفوظ باللّه تعالی: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹) «۱». لهذا بقیت العربیة فی ذروة عطائها الذی لا ینضب، و ظلت إضاءتها فی قمة ألقها الذی لا یخبو، فکم من لغة قد تدهورت و تعرضت لعوامل الانحطاط، و انحسرت أصالتها برطانة الدخیل المتحکم من اللغی الأخری، فذابت و خمد شعاعها الهادی، إلا العربیة فلها مدد من القرآن، و رافد من بحره المتدفق بالحیاة، تحسه و کأنک تلمسه، و تعقله و کأنک تبصره، فهو حقیقة مستطیلة لا تجحد، مسک القرآن باللسان العربی عن الانزلاق، و أفعم التزود اللغوی عن الارتیاد فی لغات متماثلة، حتی عاد اللسان متمرسا علی الإبداع، و التزود سبیلا للثقافات الفیاضة، لا یحتاج إلی لغة ما، بل تحتاجه کل لغة.

و رصد أیة ظاهرة لغویة یعنی العنایة باللغة ذاتها، و یتوجه إلی ترصین دعائمها من الأصل، لأن الأصوات بانضمام بعضها إلی بعض تشکل مفردات تلک اللغة، و المفردات وحدها تمثل معجمها، و بتألیفها تمثل الکلام فی تلک اللغة، و القدرة علی تناسق هذا الکلام و تآلفه، من مهمة

---

(۱) الحجر: ۹.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۴

الأصوات فی تناسقها و تآلفها، و تنافر الکلمات و تهافتها قد یعود علی الأصوات فی قرب مخارجها أو تباعدها، أو فی طبیعة ترکیبها و تماسها، أو من تداخل مقاطعها و تضامها، ذلک أن اللغة أصوات. «و مصدر الصوت الإنسانی فی معظم الأحیان هو الحنجرة، أو بعبارة أدق: الوتران الصوتیان فیها، فاهتزازات هذین الوترین هی التی تنطلق من الفم أو الأنف ثم تنتقل خلال الهواء الخارجی» «۱».

و لغتنا العربیة کبقیة لغات العالم، عبارة عن أصوات متآلفة تنطلق من الوتر بین الصوتیین لتأخذ طریقها إلی الخارج.

بید أن العربیة سمیت باسم صوت متمیز بین الأصوات فعاد معلما لها، و مؤشرا علیها، فقیل: لغة الضاد.

و مع أن ابن فارس (ت: ۳۹۵ ه-) یقول:

«و مما اختصت به لغة العرب الحاء و الظاء» «۲». إلا أن الضاد یبقی صوتا صارخا فی العربیة لا مشابه له فی اللغات العالمیة، بل و حتی فی اللغات السامیة القریبة الأصر من اللغة العربیة، و کان لهذا الصوت نصیبه من الالتباس بصوت «الظاء» فکانت الإشارة منا فی عمل مستقل إلی الاختلاف فیما بین الضاد و الظاء حتی عند العرب أنفسهم، و أن الالتباس بالضاد کان ناجما عن مقاربتها للظاء فی الأداء، و عدم تمییز هذین الصوتین حتی لدی العرب المتأخرین عن عصر القرآن «۳».

و من عجائب القرآن الأدائية، وضعه هذين الصوتين فى سياق واحد، و بعرض مختلف، فى مواضع عديدة من القرآن، ذلك من أجل الدربة الدقيقة على التلفظ بهما، و المران على استعمالهما منفصلين، بتفخيم الضاد و ترقيق الظاء، قال تعالى: ... وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (۵۰)

---

(۱) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۸.

(۲) ابن فارس، الصاحبى فى فقه اللغة: ۱۰۰.

(۳) المؤلف، منهج البحث الصوتى عند العرب: بحث.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۷۵

وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ (۵۱) «۱». فالظاء فى (غليظ) و الضاد فى (أعرض) و فى (عريض) مما تواضع الأوائل على قراءته بكل دقة و تمحيص، و ميزوا بذائقتهم الفطرية فيما بين الصوتين.

و الحاء بالعربية تنطق «هاء» فى بعض اللغات السامية، و كذلك صوتها فى اللغات الأوروبية، فهما من مخرج واحد «و لو لا هتة فى الهاء لأشبهت الحاء لقرب مخرج إلهاء من الحاء» «۲».

و لعمق التوجه الصوتى فى القرآن لدى التمييز بين المقاربات نجده يضعهما فى سياق واحد فى كثير من الآيات، من أجل السليقة العربية الخالصة، قال تعالى:

فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكافِرِينَ (۲) وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ... (۳) «۳».

فالحاء من «فسيحوا» و الهاء من «أشهر» فى الآية الأولى إلى جنب الهاء من «اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» و الحاء من «الحج» فى الآية الثانية، جاءت جميعها بسياق قرآنى متناسق فى هدف مشترك للتمييز بين الصوتين حينا، و للحفاظ على خصائص العربية حينا آخر، و لبيان اختلاطهما عند غير العربى المحض، فلا يستطيع أداء «الحاء» تأديته «الهاء» إذ قد يلتبسان عليه، و هو جانب فنى حرص القرآن على كشفه بعيدا عن الغرض الدينى إلا فى وجوب أداء القرآن قراءة كما نزل عربيا مبينا.

لهذا نرى أن القرآن هو القاعدة الصلبة للنطق العربى الصحيح لجملة أصوات اللغة، و لا سيما الضاد و الظاء أو الحاء و الهاء، فى التمرس عليهما و التفريق الدقيق بينهما.

و لقد كان سليما جدا ما توصل إليه صديقنا المفضل الدكتور أحمد مطلوب عضو المجمع العلمى العراقى بقوله:

---

(۱) حم السجدة (فصلت): ۵۰- ۵۱.

(۲) الخليل، كتاب العين: ۱/ ۵۷.

(۳) التوبة: ۲- ۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۷۶

«إن من أهم خصائص العربية ثبات أصوات الحروف فيها، لأن جوهر الصوت العربى بقى واضحا، و هو ما يتمثل فى قراءة القرآن الكريم و إخراج الحروف الصامتة إخراجا يكاد يكون واحدا» «۱». لأن اللغة العربية تستمد أصولها من القرآن، بل تبقى أصولها ثابتة فى القرآن، و أولويات هذه الأصول هى الأصوات لأن الأصوات أصل اللغات.

و لا غرابة بعد هذا أن يكون استقراء ملامح الظاهرة الصوتية فى التراث العربى الإسلامى يوصلنا إلى أن القرآن الكريم هو المنطلق الأساس فيها، و أنه قد نبه بتأكيد بالغ على مهمة الصوت اللغوى فى إثارة الإحساس الوجدانى عند العرب، و إيقاظ الضمائر الإنسانية

للتوجه نحوه لدی استعماله الحروف الهجائیة المقطعة فی جمهرة من فواتح السور القرآنیة، و فی أسرار فواصل الآیات، و فی قیم الأداء القرآنی، و فی الدلالة الصوتیة للألفاظ فی القرآن، و هو ما خصصت له هذه الرسالة فصولا مستقلة، شکلت المادة الأولیة للبنات الموضوع، و نهضت بمفصّل حیثیات الصوت اللغوی فی القرآن.

و لا بد من الإشارة هنا إلی أن البدایة فی اعتماد الصوت اللغوی فی القرآن ضمن الدراسات العربیة قد جاء ضمن مجموعتین دراستین هما:

الدراسات القرآنیة و الدراسات البلاغیة، و لا بد من الإشارة قبل ذلک إلی تردد جهود بعض الفلاسفة الموسوعیین لمجمل حیاة الأصوات تمهیدا لخوضها فی القرآن.

فهذا ابن سینا (ت: ۴۲۸ ه-) یضع رسالة متخصصة نادرة فی الأصوات أسماها (أسباب حدوث الحروف) «۲». و قد کان متمرسا فیها للإشارات الصوتیة و تمییزها فی الأسماع، و تحدث عن مخارج الأصوات و غضاریف الحنجرة، و عرض للفم و اللسان تشریحیا و طبیا و ترکیبیا، و عنی عنایة خاصة بترتیب مخارج الصوت العربی مقارنا باللغات الأخری بحسب ترکیب أجهزة الصوت الإنسانی، و بحث ممیزات الحرف العربی صوتیا،

---

(۱) أحمد مطلوب، بحوث لغویة: ۲۷.

(۲) طبعت فی القاهرة، ۱۳۳۲ ه- ۱۳۵۲ ه.

و حکم جهازه السمعی فی معرفة الأصوات و أثر تذبذبها. و أما الدراسات القرآنیة، فقد انطلقت إلی دراسة الأصوات من خلال الفصول القادمة فی الرسالة ضمن موضوعاتها الدقیقة المتخصصة، و کانت علی نوعین کتب إعجاز القرآن و کتب القراءات. أما کتب إعجاز القرآن، فقد کان المجلی فیها بالنسبة للصوت اللغوی علی بن عیسی الرمانی (ت: ۳۸۶ ه) فهو أبرز الدراسین صوتیا، و أقدمهم سبقا إلی الموضوع، و أولهم تمرسا فیه، إلا أنه بالضرورة قد مزج بین دراسة الأصوات و علم المعانی مطبقا تجاربه فی باب التلاؤم تارة و متخصصا لدراسة فواصل الآیات بلاغیا کما سیأتی فی موضعه.

أما التلاؤم الصوتی عند الرمانی فهو نقیض التنافر، و التلاؤم تعدیل الحروف فی التألیف، لأن تألیف الکلام علی ثلاثة أوجه: متنافر، و متلائم فی الطبقة الوسطی، و متلائم فی الطبقة العلیا «۱».

و یعود الرمانی بالتلاؤم إلی تجانس الأصوات، و لما کانت أصوات القرآن متجانسة تماما، فإن القرآن کله متلائم فی الطبقة العلیا، و ذلک بین لمن تأمله، و الفرق بین القرآن و بین غیره من الکلام فی تلاؤم الحروف علی نحو الفرق بین المتنافر و المتلائم فی الطبقة الوسطی، و بعض الناس أشد إحساسا بذلک و فطنة له من بعض «۲».

و یبحث الرمانی التلاؤم فی أصوات القرآن من وجوه:

۱- السبب فی التلاؤم و یعود به إلی تعدیل الحروف فی التألیف، فکلما کان أعدل کان أشد تلاؤما.

۲- و الفائدة فی التلاؤم، و یعود بها إلی حسن الکلام فی السمع، و سهولته فی اللفظ، و تقبل المعنی له فی النفس لما یرد علیها من حسن الصورة و طریق الدلالة.

۳- و ظاهرة التلاؤم، و یعود بها إلی مخارج الحروف فی اختلافها،

---

(۱) الزمانی، النکت فی إعجاز القرآن: ۹۴.

(۲) المصدر نفسه: ۹۵.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۸

فمنها ما هو من أقصی الحلق، و منها ما هو من أدنی الفم، و منها ما هو فی الوسط بین ذلک.

«و التلاؤم فی التعدیل من غیر بعد شدید أو قرب شدید. و ذلک یظهر بسهولته علی اللسان، و حسنه فی الأسماع، و تقبله فی الطباع، فإذا انضاف إلی ذلک حسن البیان فی صحة البرهان فی أعلی الطبقات، ظهر الإعجاز للجید الطباع البصیر بجواهر الکلام» «۱».

و أما کتب القراءات، فقد انتهی کثیر منها بإعطاء مصطلحات صوتیة اقترنت بالنحو تارة و باللغة تارة أخری، و تمحضت للصوت القرآنی بینهما، و کان ذلک فی بحوث متمیزة برز منها: الإدغام، الإبدال، الإعلال، الإخفاء، الإظهار، الإشمام، الإمالة، الإشباع، المد، التفخیم، الترقیق مما اصطنعه علماء الأداء الصوتی للقرآن کما سیأتی بحثه فی حینه.

الحق أن الصوت اللغوی فی القرآن قد بحث متناثرا هنا و هناک فی مفردات حیة، تتابع علیها جملة من الأعلام المبرزین الذین اتسمت جهودهم بالموضوعیة و التجرد و بیان الحقیقة، کان منهم: علی بن عیسی الزمانی (ت:

۳۸۶ ه) و أبو بکر الباقلانی (ت: ۴۰۳ ه) و أبو عمر الدانی (ت: ۴۴۴ ه-) و محمد بن الحسن الطوسی (ت: ۵۴۸ ه-) و جار اللّه الزمخشری (ت: ۵۳۸ ه) و أبو علی الطبرسی (ت ۵۴۸ ه) و عبد اللّه بن محمد النکزاوی (ت:

۶۸۳ ه) و إبراهیم بن عمر الجعبری (ت: ۷۳۲ ه) و بدر الدین الزرکشی (ت: ۷۹۴ ه) و جلال الدین السیوطی (ت: ۹۱۱ ه).

و أما الدراسات البلاغیة التی اشتملت علی خصائص الأصوات فقد بحثت علی أیدی علماء متمرسین کالشریف الرضی (ت: ۴۰۶ ه) و عبد القاهر الجرجانی (ت: ۴۷۱ ه) و ابن سنان الخفاجی (ت: ۴۶۶ ه) و أبی یعقوب السکاکی (ت: ۶۲۶ ه) و أضرابهم:

و کانت مباحثهم طبقا لتوجه علم المعانی: و تزاحم الأصوات فی قبول ذائقتها النطقیة أو السّمعیة و رفضها، من خلال: تنافر الحروف، تلاؤم الأصوات، التعقید اللفظی، التعقید المعنوی، فصاحة اللفظ المفرد، مما

---

(۱) الرمانی: النکت فی إعجاز القرآن: ۹۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۷۹

هو معلوم فی مثل هذه المباحث مما یتعلق بالصوت منها، و خلصت إلی القول بخلو القرآن العظیم من التنافر فی الکلمات، أو التشادق فی الألفاظ، أو العسر فی النطق، أو المجانبة للأسماع، و کونه فی الطبقة العلیا من الکلام فی تناسقه و ترکیبه و تلاؤمه.

أما ما یتعلق بالأصوات من مخارجها فی موضوع التنافر فلهم بذلک رأیان:

الأول: أن التنافر یحصل بین البعد الشدید أو القرن الشدید و قد نسب الرمانی هذا الرأی إلی الخلیل «و ذلک أنه إذا بعد الشدید کان بمنزلة الطفر، و إذا قرب القرب الشدید کان بمنزلة مشی المقید، لأنه بمنزلة رفع اللسان و رده إلی مکانه، و کلاهما صعب علی اللسان، و السهولة من ذلک فی الاعتدال، و لذلک وقع فی الکلام الإدغام و الإبدال» «۱».

الثانی: أن التنافر یحصل فی قرب المخارج فقط و هو ما یذهب إلیه ابن سنان الخفاجی (ت: ۴۶۶ ه) بقوله: «و لا رأی التنافر فی بعد ما بین مخارج الحروف و إنما هو فی القرب. و یدل علی صحة ذلک الاعتبار، فإن هذه الکلمة «الم» غیر متنافرة، و هی مع ذلک مبنیة من حروف متباعدة المخارج- لأن الهمزة من أقصی الحلق، و المیم من الشفتین، و اللام متوسطة بینهما. فأما الإدغام و الإبدال فشاهدان علی أن التنافر فی قرب الحروف دون بعدها، لأنهما لا یکادان یردان فی الکلام إلا فرارا من تقارب الحروف، و هذا الذی یجب عندی اعتماده لأن التتبع و التأمل قاضیان بصحته» «۲».

و قد یتبعه بالرد علی هذا الرأی ابن الأثیر (ت: ۶۳۷ ه) فقال: «أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربیة دائر علیه ... و لهذا أسقط الواضع حروفا کثیرة فی تألیف بعضها مع بعض استثقالا و استکراها، فلم یؤلف بین حروف الحلق کالحاء و الخاء و العین، و کذلک لم یؤلف بین الجیم و القاف، و لا بین اللام و الراء، و لا بین الزای و السین، و کل هذا دلیل علی عنایته

(۱) الرمانی، النکت فی إعجاز القرآن: ۹۶.

(۲) ابن سنان الخفاجی، سر الفصاحة: ۹۱.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸۰

بتألیف المتباعد المخارج، دون المتقارب» «۱».

و بعیدا عن هذا و ذاک، فان الطبیعة الترکیبة فی اللغة العربیة قد تمرست فی تعادل الأصوات و توازنها، مما جعل لغة القرآن فی الذروة من طلاوة الکلمة، و الرقة فی تجانس الأصوات، لذلک فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتیا فی تداخل حروفها، و تنافر مخارجها، سواء أ کانت قریبة أم بعیدة «فإن الجیم لا تقارن الفاء و لا القاف و لا الطاء و لا الغین بتقدیم و لا بتأخیر.

و الزای لا تقارن الظاء و لا السین و لا الضاد و لا الذال بتقدیم و لا تأخیر» «۲».

و فی هذا دلالة علی «امتیاز اللغة العربیة فی مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتی سعة تقابل أصوات الطبیعة فی تنوعها وسعتها، و تمتاز من جهة أخری بتوزعها فی هذا المدرج توزعا عادلا یؤدی إلی التوازن و الانسجام بین الأصوات» «۳».

و کان التنافر فی أصوات الکلمة موضع عنایة عند السکاکی (ت:

۶۲۶) و من بعده القزوینی (ت: ۷۳۹ ه) عند مباحث فصاحة المفرد، و هی خلوصه من تنافر الحروف و الغرابة، و مخالفة القیاس اللغوی، و عند فصاحة الکلام، و هی خلوصه من ضعف التألیف، و تنافر الکلمات، و التعقید بشقیه اللفظی و المعنوی، و هی موضوعات جری علی إدراجها فی الموضوع علماء المعانی و البیان بعد السکاکی و القزوینی إدراجا تقلیدیا للقول بسلامة القرآن من التنافر «۴».

و لا حاجة بنا إلی تأکید هذا القول فهو أمر مفروغ عنه فی القرآن، و بقیت مفردات الصوت اللغوی فیه موضع عنایة البحث.

(۱) ابن الأثیر، المثل السائر: ۱۵۲.

(۲) الجاحظ، البیان و التبیین: ۱/ ۶۹.

(۳) أحمد مطلوب، بحوث لغویة: ۲۸.

(۴) ظ: القزوینی، الإیضاح فی علوم البلاغة: ۷۲- ۷۹.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸۱

الفصل الثالث الصوت اللغوی فی فواتح السور القرآنیة

۱- القرآن یوجه اهتمام العرب للصوت اللغوی ۲- أصناف الأصوات اللغویة فی فواتح السور عند الباقلانی.

۳- جدولة الصوت اللغوی فی فواتح السور عند الزمخشری ۴- الصدی الصوتی للحروف المقطعة عند الزرکشی ۵- القرآن فی ترکیبه الصوتی من جنس هذه الأصوات

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸۳

یبدو أن القرآن الکریم قد وجه اهتمام العرب- منذ عهد مبکر- و لفت نظرهم إلی ضرورة الإفادة من الزخم الصوتی فی اللغة العربیة و هو یستهل بعض السور القرآنیة بجملة محددة من الحروف الهجائیة التی تنطق بأصواتها أسماء، لا بأدواتها حروفا، للإفادة من صوتیتها لدی الاستعمال دون حرفیتها.

و کان القرآن العظیم قد افتتح عامة سوره بعشرة أنواع بیانیة من فن القول شملت طائفة متمیزة من معانی النحو و أسالیب البلاغة حتی

حصر أرباب علوم القرآن ذلك بذلك دون تزيّد عليها أو نقصان منها، فلا يخرج شيء من فواتح السور عنها، و قد يتداخل بعضها ببعض تارة «۱».

و لعل من المفيد حقا الإشارة على سبيل النموذج بأصل قرآنى واحد لكل نوع تمهيدا بين يدى النوع المراد بحثه صوتيا، و سنكتفى بإيراد هذا النموذج الواحد للدلالة عليه فى النماذج الثرة المتوافرة وجودها فى أضراب أخرى لكل أصل.

۱- الاستفتاح بالثناء على اللّه تعالى، كما فى أول الفاتحة، و ذلك قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱)،

---

(۱) ظ: للتفصيل، الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ۱/ ۱۶۴.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۸۴

۲- الاستفتاح بالنداء، كما فى أول المدثر، و ذلك قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱).

۳- الاستفتاح بالقسم، كما فى أول سورة الفجر، و ذلك قوله تعالى: وَ الْفَجْرِ (۱).

۴- الاستفتاح بالجملة الخبرية، كما فى أول سورة «المؤمنون» و ذلك قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱).

۵- الاستفتاح بصيغة الأمر، كما فى أول سورة العلق، و ذلك قوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (۱) ۶- الاستفتاح بصيغة الشرط، كما فى أول سورة النصر، و ذلك قوله تعالى: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (۱) ۷- الاستفتاح بصيغة الاستفهام، كما فى أول سورة النبأ، و ذلك قوله تعالى: عَمَّ يَتَساءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (۲).

۸- الاستفتاح بالدعاء، كما فى أول سورة المطففين، و ذلك قوله تعالى: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (۱).

۹- الاستفتاح بالتعليل، و قد ورد مرة واحدة فى القرآن، فى أول سورة الإيلاف، و ذلك قوله تعالى: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (۱).

۱۰- الاستفتاح بحروف التهجى، و هى موضوع هذا البحث فى الصوت اللغوى، إذ تم استفتاح تسع و عشرين سورة فى المصحف الشريف بحروف هجائية مقطعة يمكن حصرها بالضبط فى النحو الآتى:

أ- ثلاثة حروف موحدة هى: ص. ق. ن.

ب- عشرة حروف مثناة هى: طه، طس، يس، و حم استعملت فى افتتاح سبع سور، فهذه عشرة.

ج- اثنا عشر مثلثة الحروف هى: الم، الر، طسم.

و قد تكرر الأولان عدة مرات فى المصحف دون طسم.

د- اثنان حروفهما أربعة: المر. المص.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۸۵

ه- اثنان حروفهما خمسة: كهيعص. حمعسق.

و قد اهتم علماء الإعجاز القرآنى بالتصنيف الصوتى لهذه الحروف فى فواتح هذه السورة، و بيان أسرارها التركيبية، و دلائلها الصوتية، و كان أبو بكر الباقلانى (ت: ۴۰۳ ه) فى طليعة هؤلاء الاعلام، فقال:

«إن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة و عشرون حرفا، و عدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان و عشرون «۱» سورة، و جملة ما ذكر من هذه (الحروف) فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، و هو أربعة عشر حرفا ليدل بالمذكور على غيره، و الذى تنقسم إليه هذه الحروف أقساما: فمن ذلك قسموها إلى حروف مهموسة و أخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة و هى: الحاء و الهاء و الخاء و الكاف و الشين و الثاء و الفاء و التاء و الصاد و السين.

و ما سوى ذلك من الحروف فهى مجهورة، و قد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة فى جملة الحروف المذكورة فى أوائل

السورة، و کذلک نصف الحروف المجهورة علی السواء لا زیادة و لا نقصان» «۲».

فالباقلانی یعدد حروف المعجم، و یقارن ذلک بأعداد حروف السور المفتتحة بها، و یضیف هذه الحروف، و هی إما مجهورة، و إما مهموسة و نصف هذه الحروف بتقسیمها مقسوم علی السواء بین حروف هذه الفواتح القرآنیة، فنصف المهموسة مذکور فی جملة هذه الحروف، و نصف المجهورة مذکور أیضا دون تزیّد علیها أو نقصان منها.

و قد أیّد أهل اللغة المذهب الأول للباقلانی بما أورده الشیخ الطوسی (ت: ۴۶۰ ه) عنهم «فقال بعضهم: هی حروف المعجم استغنی بذکر ما ذکر منها فی أوائل السور عن ذکر بواقیها التی هی تمام ثمانیة و عشرین حرفا کما یستغنی بذکر: أ. ب. ت. ث. عن ذکر الباقی» «۳».

---

(۱) تقدم أنها تسع و عشرون سورة.

(۲) الباقلانی، إعجاز القرآن: ۶۶.

(۳) الطوسی، التبیان فی تفسیر القرآن: ۱/ ۴۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸۶

ثم یعرض الباقلانی إلی تفصیل آخر: أن نصف حروف الحلق (العین و الحاء و الهمزة و الهاء و الخاء و الغین) مذکور فی جملة هذه الحروف، و أن النصف المذکور هو: العین و الحاء و الهاء. و کذلک نصف عدة الحروف التی لیست من حروف الحلق مذکور فی جملة هذه الحروف. و أن نصف الحروف الشدیدة: (الهمزة و القاف و الکاف و الجیم و التاء و الدال و الطاء و الباء) مذکور فی جملة هذه الحروف، و المذکور: الطاء و القاف و الکاف و الهمزة. و أن نصف الحروف المطبقة و هی (الطاء و الضاد و الصاد و الظاء) مذکور فی جملة هذه الحروف، و المذکور هو الصاد و الطاء «۱».

و الذی یخلص لنا من هذا الاهتمام المتکامل و اشتمال فواتح السور القرآنیة المبدوءة بالحروف الهجائیة علی نصف تقسیمات أصناف الحروف، بل علی أنصاف کل الأصناف علی هذا النحو:

۱- نصف الحروف المجهورة.

۲- نصف الحروف المهموسة.

۳- نصف حروف الحلق.

۴- نصف حروف غیر الحلق.

۵- نصف الحروف الشدیدة.

۶- نصف الحروف المطبقة.

و جمیع هذه الحروف المثبتة فی جدولة الباقلانی لها تمثل نصف حروف المعجم العربی، و هذا التصنیف بعامة یمثل بعدا استقرائیا فی حصر أوائل السور ذات الحروف الهجائیة المقطّعة علی أساس مخارج الصوت اللغوی.

و لا یکتفی الباقلانی بهذه البرمجة حتی یضیف إلیها تصورا صوتیا منظّما، و یعلل ظاهرة استعمال بعض الحروف دون سواها للتأکید علی المناخ الصوتی المتمیز فی وضع الحروف بموقعها المناسب بحسب

---

(۱) ظ: للتفصیل، الباقلانی، إعجاز القرآن: ۶۷- ۶۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸۷

تسلسلها فی النطق مترددة بجهاز النطق من مبتداه إلی منتهاه، و ذلک حینما یبدأ القرآن الکریم ب (الم) فی أول سورة قرآنیة ضمن

الترتیب المصحفی و هی سورة البقرة التی استعملت هذه الأصوات متقاطرة، فیعطی التعلیل الصوتی الآتی: «لأن الألف المبدوءة بها هی أقصاها مطلقا، و اللام متوسطة، و المیم متطرفة، لأنها تأخذ فی الشفة، فنبه بذکرها علی غیرها من الحروف، و بیّن أنه إنما أتاهم بکلام منظوم مما یتعارفون من الحروف التی تردد بین هذین الطرفین» «۱».

و سیأتی فیما بعد إفادة الزرکشی (ت: ۷۹۴ ه) من هذا المنحنی لهذه الأصوات و توسعه فیه و فی سواه علی أس صوتی مکثف.

و قد أفاض جار اللّه الزمخشری (ت: ۵۳۸ ه) فی تعقب هذه الوجوه، و ذکر هذه الملاحظ، و أفاد مما أبداه الباقلانی و زاد علیه متوسعا، و فصل ما ذکره مجملا بما نحاول برمجته باختصار علی النحو التالی:

أولا- قال الزمخشری: «اعلم أنک إذا تأملت ما أورده اللّه عزّ سلطانه فی الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامی حروف المعجم أربعة عشر سواء، و هی: الألف و اللام و المیم و الصاد و الراء و الکاف و الهاء و الیاء و العین و الطاء و السین و الحاء و القاف و النون فی تسع و عشرین سورة علی عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت فی هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة علی أنصاف أجناس الحروف» «۲».

و الملاحظ من هذا النص أن الزمخشری قد جعل أسامی حروف المعجم ثمانیة و عشرین، بینما ینص علی أن عدد حروف المعجم تسعة و عشرون حرفا، مما قد یتصور معه التناقض و عدم الدقة، و لیس الأمر کذلک، لأن الألف اسم یتناول عندهم جزءین من الحروف هما رسما (ا) و (ء) أی المدة و الهمزة، لهذا قالوا الألف إما ساکنة أو متحرکة، و الألف الساکنة هی المدة، و الألف المتحرکة هی الهمزة، و من ثم بدأ التفریق الدقیق بینهما، فأطلقت (ا) علی الألف اللینة، و أطلقت (ء) علی الهمزة،

---

(۱) الباقلانی، إعجاز القرآن: ۶۸- ۶۹.

(۲) الزمخشری، الکشاف: ۱/ ۱۰۱.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۸۸

فنبه بقوله الألف علی هذین الملحظین، و تذرع بقوله:

«الهمزة و الألف حرف واحد عند الفقهاء و حرفان فی عرف العامة» «۱». و سواء أ کانا حرفا أم حرفین فإنهما صوتان لا شک فی هذا.

ثانیا: أوضح الزمخشری تبعا للباقلانی أن فی هذه الحروف من المهموسة نصفها و عددها، و من المجهورة نصفها و عددها، و من الشدیدة نصفها و عددها، و من الرخوة نصفها و عدّدها، و من المطبقة نصفها و عددها، و من المنفتحة نصفها و عددها، و من المستعلیة نصفها و عددها، و من المنخفضة نصفها و عددها، و من حروف القلقلة نصفها، و یمکن جدولة هذه الحروف فی منهج الزمخشری علی النحو التالی: «۲».

۱- الحروف المهموسة: الصاد، الکاف، الهاء، السین، الحاء.

۲- الحروف المجهورة: الألف، اللام، المیم، الراء، العین، الطاء، القاف، الباء، النون.

۳- الحروف الشدید: الألف، الکاف، الطاء، القاف.

۴- الحروف الرخوة: اللام، المیم، الراء، الصاد، الهاء، العین، السین، الحاء، الیاء، النون.

۵- الحروف المطبقة: الصاد، الطاء.

۶- الحروف المنفتحة: الألف، اللام، المیم، الراء، الکاف، الهاء، العین، السین، الحاء، القاف، الیاء، النون.

۷- الحروف المستعلیة: القاف، الصاد، الطاء.

۸- الحروف المنخفضة: الألف، اللام، المیم، الراء، الکاف، الهاء، الیاء، العین، السین، الحاء، النون.

۹- حروف القلقلة: القاف، الطاء.

(۱) الزمخشرى، الكشاف: ۱/ ۱۰۱.

(۲) ظ: المصدر نفسه: ۱/ ۱۰۲ و ما بعدها.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۸۹

و يلاحظ أن الزمخشرى قد استدرك على الباقلانى فى جدولته لأصناف الحروف الواردة فى فواتح السورة استدرك عليه: الحروف الرخوة، و المنفتحة، و المستعلية، و المنخفضة، و حروف القلقلة، و لكنها داخلة عند الباقلانى فى جملة حروف الحلق و غير الحلق، إلا أن الزمخشرى، قد وسعها تفصيلا، و ترك الاجمال، و أورد المسميات.

ثالثا: و بعد هذا التقسيم الدقيق تعقب الزمخشرى حكمة هذا التركيب، و غاية هذا الذكر، و فلسفة هذه الأصوات، فقال: «ثم إذا استقريت الكلم و تراكيبها، رأيت الحروف التى ألغى اللّه ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها، فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته. و قد علمت أن معظم الشىء و جله ينزل منزلة كله، و هو المطابق للطائف التنزيل و اختصاراته، فكأن اللّه عزّ اسمه عدد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم، و إلزام الحجة إياهم» «۱».

رابعا: و رصد الزمخشرى مواطن استعمال هذه الأصوات و كثرتها، بحسب الجارى على ألسنة العرب فى تكاثر بعض الحروف دون بعض، و عرض لفائدة التكرار فى جملة منها، و تناول مسألة تفريقها على السور دون جمعها فى أول القرآن، و كأنه يشير إلى الحكمة المتوخاة من كل جانب فقال: «و مما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها و قوعا فى تراكيب الكلم: أن الألف و اللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا فى معظم هذه الفواتح مكررتين، و هى: فواتح سورة البقرة، و آل عمران، و الروم، و العنكبوت، و لقمان و السجدة، و الأعراف، و الرعد، و يونس، و إبراهيم، و هود، و يوسف، و الحجر. فإن قلت: فهلا عددت بأجمعها فى أول القرآن، و ما لها جاءت مفرقة على السور؟ قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، و تجديده فى غير موضع واحد، أوصل إلى الغرض، و أقوله فى الأسماع و القلوب، من أن يفرد ذكره مرة، و كذلك مذهب كل تكرير جاء فى القرآن فمطلوب به تمكين المكرر فى النفوس

(۱) الزمخشرى، الكشاف: ۱/ ۱۰۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۹۰

و تقريره. فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة، و لم اختلفت أعداد حروفها؟ قلت: هذا على عادة افتنانهم فى أساليب الكلام و تصرفهم فيه على طرق شتى و مذاهب متنوعة، و كما أن أبنية كلماتهم على حرف و حرفين إلى خمسة أحرف لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك «۱».

و وقف بدر الدين الزركشى (ت: ۷۹۴ ه) عند الصدى الصوتى للحروف المقطعة فى فواتح هذه السور من عدة وجوه صوتية، يمكن رصد أبعادها بالخطوط الآتية:

أولا: عرض الزركشى لأعداد هذه الأصوات فى فواتح السور، و وقف عند ما أبتدئ به بثلاثة حروف، و اعتبر لذلك سرا صوتيا بارزا علّله بقوله عن «الم» فى تركيبها: «و ذلك أن الألف إذا بدئ بها أولا كانت همزة، و هى أول المخارج من أقصى الصدر، و اللام من وسط مخارج الحروف، و هى أشد الحروف اعتمادا على اللسان، و الميم آخر الحروف، و مخرجها من الفم. و هذه الثلاثة هى أصل مخارج الحروف أعنى الحلق و اللسان و الشفتين، و ترتبت فى التنزيل من البداية إلى الوسط، إلى النهاية.

فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة، التى يتفرع منها ستة عشر مخرجا، ليصير منها تسعة و عشرون حرفا، عليها مدار الحلق أجمعين، مع تضمنها سرا عجيبا، و هو أن الألف للبداية، و اللام للتوسط، و الميم للنهاية، فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على البداية و النهاية و

الواسطة بینهما» «۲».

و هذه الإنارة فی استعمال مصطلحات الصوت فی المخارج إلی الحلق و اللسان و الشفتین یضطلع فیها الزرکشی بحسّ صوتی رفیع قد سبق إلیه الخلیل بن أحمد الفراهیدی (ت: ۱۷۵ ه) و سیبویه (ت: ۱۸۰ ه) و أبو الفتح عثمان بن جنی (ت: ۳۹۲ ه) یؤکده الخط الثانی فی تذوقه الحروف، و تأکیده علی مسافتها و مکانها و زمانها.

ثانیا و الزرکشی بطلق لفظ الحروف و یرید بذلک الأصوات کما هو

---

(۱) الزمخشری، الکشاف: ۱/ ۱۰۴ و ما بعدها.

(۲) الزرکشی، البرهان فی علوم القرآن: ۱/ ۱۶۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۱

شأن الخلیل فی بدایات العین. و کأن قدماء العرب کانوا ینظرون الحرف و الصوت بمنظار واحد، فیطلقون اسم أحدهما علی الآخر، لا سیما فی إطلاق الحرف و إرادة الصوت، و هذا ما نهجه الزرکشی لدی بحثه أسرار صوت الهمزة، و اللام، و المیم من وجه آخر غیر الوجه الصوتی الأول فقال:

«و أیضا من أسرار علم الحروف أن الهمزة من الرئة، فهی أعمق الحروف، و اللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلی من الفم، فصوتها یملأ ما وراءها من هواء الفم، و المیم مطبقة، لأن مخرجها من الشفتین إذا أطبقا، و یرمز بهن إلی باقی الحروف» «۱».

ثالثا: و تعقب الزرکشی ملائمة صوت الطاء للسین فی (طس) و مجانسته للهاء فی (طه)، و هو یعمم هذه الملائمة و تلک المجانسة صوتیا علی القرآن فیقول:

«و تأمل اقتران الطاء بالسین و الهاء فی القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم یجمعها غیرها و هی: الجهر، و الشدة، و الاستعلاء، و الإطباق، و الإصمات، و السین: مهموس، رخو، مستفل، صفیر، منفتح، فلا یمکن أن یجمع إلی الطاء حرف یقابلها، کالسین و الهاء، فذکر الحرفین اللذین جمعا صفات الحروف» «۲».

و هذا التعقب خالص الصوتیة فی الاستقراء و الاستنتاج معا، فإن ما ذکره اهتمام صوتی لیس غیر، و إن ما عدده من المصطلحات: الجهر، الشدة، الاستعلاء، و الإطباق، و الإصمات، المهموس، الرخو، المستفل، الصفیر، المنفتح، مصطلحات صوتیة فی الصمیم، و هو و إن سبق إلی التسمیة و سبق إلی الضبط، إلا أنه طبقها تنظیرا صوتیا علی فواتح السور.

رابعا، و تنبه الزرکشی أیضا إلی اشتمال سورة (ق) علی ذات الحرف، لما فی صوت القاف من القلقلة و الشدة من جهة، و لاشتماله علی

---

(۱) الزرکشی، البرهان فی علوم القرآن: ۱/ ۱۶۸.

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۱۶۹.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۲

الجهر و الانفتاح من جهة أخری. «و تأمل السورة التی اجتمعت علی الحروف المفردة: کیف تجد السورة مبنیة علی کلمة ذلک الحرف، ممن ذلک ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیدِ (۱) «۱» فإن السورة مبنیة علی الکلمات القافیة:

من ذکر القرآن، و من ذکر الخلق، و تکرار القول و مراجعته مرارا، و القرب من ابن آدم، و تلقی الملکین، و قول العتید، و ذکر الرقیب، و ذکر السابق، و القرین، و الإلقاء فی جهنم، و التقدم بالوعد، و ذکر المتقین، و ذکر القلب، و القرآن، و التنقیب فی البلاد، و ذکر القتل مرتین، و تشقق الأرض، و إلقاء الرواسی فیها، و بسوق النخل، و الرزق، و ذکر القوم، و خوف الوعید، و غیر ذلک» «۲».

و الحق أننى تتبعت سورة (ق) فوجدت ذكر هذا الحرف قد تكرر بعده أربعا و خمسين مرة فى خمس و أربعين آية زيادة على الحرف الاستفتاحى.

فما هذا السر الصوتى لهذا الحرف؟ و ما علاقة تسمية السورة به من خلال هذا البناء عليه؟ و ما هو موقع القلقلة فى القاف، و الشدة فى صوتها، و الجهر بأدائها، و الانفتاح عند نطقها بهذا التكرار فى شتى الكلمات، مما ذكره الزركشى و مما لم يذكره. الجواب عن هذا و ذاك بعد إدراك العناية الصوتية: اللّه أعلم.

خامسا: و أشار الزركشى إلى خصوصية للدلالة الصوتية فى سورة (ص) للإبانة بهذا الحرف و صوتيته على أصداء الخصومات النازلة، و المحاكمات الشديدة الوقع، بما يتناسب و اصطكاك الصاد فى الجلجلة، و صداها الواقع على الأذن، و اشتمالها على ما حدث من مجريات أحاديث السورة نفسها محاكاة فى الأصوات الشديدة لما نشب من الأحداث الجسيمة، فقال مؤكدا و جهة نظره الصوتية، فى تذوق الشدة و الوقعة و الخصومة من خلال صوت الصاد، و مصاقبته لما ورد فى السورة ذاتها من إشارات موحية بذلك.

«و إذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة (ص) من

---

(۱) سورة ق: ۱.

(۲) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ۱/ ۱۶۹.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۹۳

الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و قولهم: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً «۱» إلى آخر كلامهم. ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى فى العلم، و هو الدرجات و الكفارات، ثم تخاصم إبليس و اعتراضه على ربه و أمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيا فى شأن بنيه، و حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم» «۲».

و هكذا نجد الزركشى فى تنبيهاته الصوتية- سواء أ كان ناقلا لها، أم مجمعا لشتاتها، أم مبرمجا لخططها، أم مبتدعا لبعضها-، يؤكد العمق الصوتى لدى علماء العربية فى إبراز حقيقة الصوت اللغوى فيما اتسمت به فواتح السور القرآنية ذات الحروف الهجائية المقطّعة.

و الحق أن استقرار المراد من هذه الحروف المقطعة- و إن لم تدرك أسراره- لا يخرجها عن حقيقة واقعها الصوتى فى الأسماع، و لا جوهرها الإنصاتى لدى الإطلاق، فهى من جنس أصوات العرب فى لغتهم، و من سنخ حروف معجمهم، و من روح أصداء لغة القرآن العظيم، و لا يمانع هذا الاستقراء على اختلاف و جهات النظر فيه من شموخ الصوت اللغوى فى أضوائها، و بروز الملحظ الصوتى فى تأويلاتها- توصل إلى الواقع أو لم يتوصل- على أن السلف الصالح مختلف فى المراد من هذه الحروف المقطعة، أو الأصوات المنطوقة على قولين:

الأول: ان هذه الحروف فى دلالتها و إرادتها من العلم المستور و السر المحجوب الذى استأثر به اللّه تعالى.

و ادعى الشعبى: أنها من المتشابه، نؤمن بظواهرها، و نكل العلم فيها إلى اللّه عزّ و جل «۳».

و

قد روى الشيخ الطوسى (ت: ۴۶۰ ه) أنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا اللّه

، و اختاره الحسين بن على المغربى «۳».

---

(۱) سورة ص: ۵.

(۲) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ۱/ ۱۷۰.

(۳) ظ: الطوسی، التبیان فی تفسیر القرآن: ۱/ ۴۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۴

و

القول أنها من المتشابهات التی استأثر اللّه تعالی بعلمها، و لا یعلم تأویلها إلا هو، هو المروی عن أئمة اهل البیت علیهم السلام فی روایة أهل السنّة «۱».

و قد أنکر المتکلمون هذا القول، وردوا هذا الزعم، فقالوا: لا- یجوز أن یرد فی کتاب اللّه ما لا یفهمه الخلق لأن اللّه أمر بتدبره، و الاستنباط منه، و ذلک لا یمکن إلا مع الإحاطة بمعناه «۲».

بینما أیّده من المتأخرین کل من مالک بن نبی فقال:

«و لسنا نعتقد بإمکان تأویلها إلا إذا ذهبنا إلی أنها مجرد إشارات متفق علیها، أو رموز سریة لموضوع محدد تام التحدید، أدرکته سرا ذات واعیة ... «۳»

و السید عبد الأعلی الموسوی السبزواری فقال:

«و الحق أنها بحسب المعنی من المتشابهات التی استأثر اللّه تعالی العلم بها لنفسه، فلا یلزم الصاد الفحص عن حقیقتها، و بذل الجهد فی إدراکها و فهمها بل لا بد من إیکال الأمر إلیه تعالی» «۴».

الثانی: أن المراد منها معلوم، و لکنهم اختلفوا فیه بعدة آراء تتفاوت قیمة و دلالة و موضوعیة، و قد تداعت کلمات الأعلام فی هذه الآراء حتی نقل الخلف عن السلف، و استند اللاحق إلی السابق بنسبة إلیه و بدون نسبة.

و نحاول فیما یلی أن نعطی کشفا منظّما بأبرز هذه الآراء، و نعقبها بما نأنس به، و نطمئن إلی مؤداه باعتباره جزاء من کلّی فرائدها، دون القطع بأنه مراد اللّه منها، أو القول به «۵»

---

(۱) ظ: الطبرسی، مجمع البیان فی تفسیر القرآن: ۱/ ۳۲.

(۲) ظ: الزرکشی: البرهان فی علوم القرآن: ۱/ ۱۷۳.

(۳) مالک بن بنی: الظاهرة القرآنیة: ۳۱۲.

(۴) السبزواری: مواهب الرحمن فی تفسیر القرآن: ۱/ ۶۲.

(۵) ظ: للتوفیق بین هذه الآراء و تفاصیلها کلا من:

الطبری، جامع البیان: ۱/ ۵۰+ الطوسی، التبیان: ۱/ ۴۷+ الطبرسی، مجمع البیان: ۱/ ۳۳+ الزمخشری، الکشاف: ۱/ ۷۶+ الرازی، مفاتیح الغیب+ ابن الزملکانی، البرهان:

۱/ ۱۷۳+ الزرکشی، البرهان+ السیوطی، الاتقان: ۳/ ۲۱.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۵

۱- اختار ابن عباس: أن کل حرف منها مأخوذ من أسماء اللّه تعالی، و یقاربه ما روی عن السدی و الشعبی أنها: اسم اللّه الأعظم «۱».

و لا تعلیق لنا علی هذا الزعم من ناحیتین:

الأولی: أن أسماء اللّه تتداخل بضمنها جمیع الحروف فی المعجم العربی و قد تستقطبها، فلا میزة- و الحالة هذه- لحرف علی حرف.

الثانیة: أننا نجهل اسم اللّه الأعظم لاختلاف الآثار و المرویات فیه، إن صحّ صدور تلک الآثار و المرویات.

۲- إن اللّه تعالی أقسم بهذه الحروف علی وجهین:

وجه اختاره ابن عباس و عکرمة: إن هذا القسم بأسمائه لأنها أسماؤه.

و وجه: أن هـذا الكتاب الـذی يقرؤه محمد صـلی اللّه عليه و آله و سـلم: هو الكتاب المنزل لا شك فيه، و ذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف، إذا كانت مادة البيان. و قد أقسم اللّه: ب (الفجر) و (الطور) و غيرهما، فكذلك شأن هذه الحروف فی القسم بها «۱».

و هما احتمالات جائزان يشكل علينا الخوض فيهما.

۳- إن هذه الحروف أسماء لسور القرآن الكريم، و روی ذلك عن زيد بن أسلم و الحسن البصری «۳».

و ذلك أن الأسـماء وضـعت للتمييز ف (الم) اسم هـذه السورة، و (حم) اسم لتلك، و (كهيعص) اسم لغيرهما و هكـذا. و قد وضـعت هذه الحروف أسماء لتلك السور لتمييزها عن سواها.

و قد نص على ذلك سيبويه (ت: ۱۸۰ ه) «۴».

---

(۱) ظ: الطوسی، التبيان: ۱/ ۴۷.

(۳) المصدر نفسه: ۱/ ۴۷.

(۴) ظ: سيبويه: الكتاب: ۲/ ۳۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۶

و نقله الزمخشری (ت: ۵۳۸ ه) عن الأكثرين «۱» و قال فخر الدين الرازی (ت: ۶۰۶ ه) بأنه قول أكثر المتكلمين «۲».

و هذا الوجه يؤيده مدرك السيرة الاستقرائية، ففی متعارف أقوال الناس تسـمية هذه السور بهذه الأسـماء بحدود معينة، و إذا أطلقت دلت على مسمياتها إجمالا.

و قد اختار ذلك الشيخ الطوسی (ت: ۴۶۰ ه) فقال: «و أحسن الوجوه التی قيلت قول من قال أنها أسماء للسور» «۳».

و أيـده بهـذا الاتجـاه أبو علی الطبرسـی (ت: ۵۴۸ ه) «۴». و إذا كـانت هـذه الحروف أسـماء لسورهـا، فلا كـبير أمر من بحث وجوه تسـميتها، فهی قضايا توقيفية، إن صح الفرض، ثم ألا تلتبس هذه السور فی مسـمياتها بعضـها ببعض لا سـيما فی المكرر منها، كما هی الحال فی: (حم) و (الر) و (الم) و هكذا، و اللّه العالم.

۴- إنها فواتح يفتتح بها القرآن، و قد روی ذلك عن مجاهد بن جبر المكی، و مقاتل بن سليمان البلخی «۵».

و فائدة هذا الاستفتاح على وجهين:

الأول: أن يعلم ابتداء السورة و انقضاء ما قبلها.

الثانی: أنها تنبيهات، كما هی الحال فی أدوات التنبيه و النداء.

و قد اختار الوجه الثانی شمس الدين الخويّی (ت ۶۳۸ ه) فرأی بأن القول بأنها تنبيهات جيـد، لأن القرآن كلام عزيز، و فوائده عزيزة، فينبغی أن يرد على سـمع متنبه ... و إنمـا لم تسـتعمل الكلمات المشـهورة فی التنبيه كألا و أما لأنها من الألفاظ التی يتعارفها الناس فی كلامهم، و القرآن

---

(۱) ظ: الزمخشری، الكشاف: ۱/ ۸۳.

(۲) ظ: الرازی، مفاتيح الغيب نقلا عن الزركشی، البرهان: ۱/ ۱۷۴.

(۳) ظ: الطوسی، التبيان فی تفسير القرآن: ۱/ ۴۷.

(۴) ظ: الطبرسی، مجمع البيان فی تفسير القرآن: ۱/ ۳۳.

(۵) ظ: الطوسی، التبيان فی تفسير القرآن: ۱/ ۴۷.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۷

کلام لا یشبه الکلام، فناسب أن یؤتی فیه بألفاظ تنبیه لم تعهد، لتکون أبلغ فی قرع سمعه «۱».

و التنبیه إنما یکون بأصوات تقبل علیها الناس، و یصغی لما بعدها السامعون، إذا المراد صوتیة التنبیه لیس غیر.

و یمیل إلی هذا الرأی کثیر من المعاصرین، و یقطع بعضهم بأن المراد من هذه الحروف- دون شک- هو الافتتاح بها، کما استفتحت العرب بألا الاستفتاحیة و أضرابها «۲».

و یجب الالتفات إلا أن ابن عطیة قد عدّ القول بأنها تنبیهات مغایرا للقول بأنها فواتح، و الظاهر عند السیوطی أنه بمعناه. «۳»

و یعضد القول بأنها فواتح روایتان أوردهما السید هاشم البحرانی فی تفسیره، أسند أحدهما إلی الإمام علی علیه السلام، و الأخری إلی الإمام جعفر الصادق علیه السلام «۴» و إذا ثبتت هاتان الروایتان فالأخذ بمضمونهما هو أولی الوجوه فی استکناه الفوائد المترتبة علیها، أو المعانی المترددة فیها.

۵- إن العرب کانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فیه، فأنزل اللّه هذا النظم البدیع لیعجبوا منه، و یکون تعجبهم سببا لاستماعهم، و استماعهم سببا لاستماع ما بعده، فترق القلوب و تلین الأفئدة «۵».

و هذا القول کان مظنة لإقبال المستمعین علی القرآن کما تدل علی ذلک وقائع الأحداث عند تلاوة الرسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلم لهذه الفواتح علی قریش، و قد ضعّفه ابن کثیر القرشی (ت: ۷۷۴ ه) «۶».

---

(۱) السیوطی، الاتقان فی علوم القرآن: ۳/ ۲۷.

(۲) عبد الجبار حمد شرارة، الحروف المقطعة فی القرآن الکریم: ۵۸- ۶۸.

(۳) ظ: السیوطی، الاتقان فی علوم القرآن: ۳/ ۲۷.

(۴) ظ: هاشم البحرانی، البرهان فی تفسیر القرآن: ۱/ ۳۴.

(۵) الزرکشی، البرهان فی علوم القرآن: ۱/ ۱۷۵.

(۶) ظ: ابن کثیر تفسیر القرآن العظیم: ۱/ ۳۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۸

و قد انتصر له من المحدثین الأستاذ محمد جمال الهاشمی و ترجمه بمنظور عصری، و أضاف إلیه البعد الرمزی فقال:

«إن القرآن فی أسلوبه البیانی الفذ أراد أن یجذب الأنظار و الأفکار، فافتتح بعض سورة المبارکة بهذه الحروف المقطعة فهی أشبه ما تکون بإشارات المحطات العالمیة فی الرادیو حیث تتخذ کل دولة رمزا خاصا لها یدل علی محطة إذاعتها، و یمیز بینها و بین غیرها من المحطات، و هکذا القرآن کان یتخذ من هذه الحروف رمزا مخصوصا لوحیه یستلفت به الأذهان لتستمع إلی آیاته المنزلة بوعی و انتباه، و لا زالت هذه الهزّة الوجدانیة تعتری النابهین من المؤمنین کلما طرقت أسماعهم هذه الحروف الساحرة فی تقاطیعها المطربة، و إنما کان یستعمل هذه الإشارة الحروفیة فی الحالات الخاصة التی تستدعی الاهتمام، کما أنه ربما یبادی الإنسانیة بموضوعه من دون تقدمة و تمهید حتی بما التزم به من الاستهلال کجملة:

بسم اللّه الرحمن الرحیم، لأن الموضوع نفسه یستدعی المبادأة و المفاجأة کسورة (براءة)، فالقرآن إنما یجری فی مفاتیح سوره مع الظروف المحیطة بتلک السورة المبارکة، و إن للحروف المقطعة من التأثیر ما لا یخفی علی السامع و الواعی» «۱».

۶- إن هذه الحروف تدعو العرب و تناویهم إشارة إلی إعجاز القرآن، فهذا القرآن الذی یتلوه علیکم محمد صلی اللّه علیه و آله و سلم و من جنس کلامکم و سنخ حروفکم، و مما یتکون منه معجمکم ... وَ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلی عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۳) «۲» قال أبو مسلم، محمد بن بحر (ت: ۳۷۰ ه):

«إن المراد بذلک بأن هذا القرآن الذی عجزتم عن معارضته، و لم تقدروا علی الإتیان بمثله، هو من جنس هذه الحروف التی

تتحاورون بها فی کلامکم و خطابکم، فحیث لم تقدروا علیه فاعلموا أنه من فضل اللّه» «۳».

---

(۱) محمد جمال الهاشمی، من تفسیر القرآن الکریم «بحث».

(۲) البقرة: ۲۳.

(۳) ظ: الطوسی، التبیان فی تفسیر القرآن: ۱/ ۴۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۹۹

و مما یؤیده ما حکی عن الأخفش (ت: ۲۱۵ ه):

«إن الحروف مبانی کتب اللّه المنزلة بالألسنة المختلفة، و أصول کلام الأمم» «۱».

فهی أصل الکلام العربی فی هذا الکتاب العربی المبین الذی أعجز الأولین و الآخرین من العرب و غیر العرب، علی أنه مرکب من جنس حروف العرب، و هذا أدل علی الإعجاز باعتباره مشاکلا لکلامهم، و علی سنن تراکیبهم، فعلم بالضرورة أنه کلام اللّه تعالی، و لا یعنی الاعتداد بهذا الملحظ من القول فی جملة الفوائد المترتبة علیه، أن ندع مضامین الأقوال السابقة، و قیمتها الفنیة، فهی جزء لا یتجزأ من غرر الإفادات القیمة فی الموضوع، علی أن القول بالمتشابه هو أسلم الوجوه فیما یخیل إلی، و لکن هذا لا- یعنی عدم الکشف عن الأسرار الهامشیة، و النکت الجانبیة التی لا- تتعلق بالمتشابه من القول، بل ترجع إلیه بالعائدیة، فیبقی المتشابه متشابها، و المحکم من القرآن محکما، و لا یمنع هذا و ذاک من بیان الحکم المتشابه، و فضل مزایاه، فیبدو فی ظلاله، ألق نستنیر به، أو شعاع نهتدی بأضوائه، فنلمس البعد الصوتی متوافرا فی هذه الحروف، و الرصد الإعجازی قائما فی هیکلها العام و إن بقی السر ماثلا، و المعنی الحقیقی محجوبا، و المراد منها فی علم الغیب، و لکن الحکمة قد تلتمس، و الثمرة قد تقتطف، و قد أورد ابن کثیر (ت: ۷۷۴ ه) حاکیا: «إنما ذکرت هذه الحروف فی أوائل السور التی ذکرت فیها بیانا لإعجاز القرآن، و إن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مرکب من هذه الحروف المقطعة التی یتخاطبون بها، و قد حکی هذا المذهب الرازی فی تفسیره عن المبرد و جمع من المحققین، و حکی القرطبی عن الفرّاء و قطرب نحو هذا، و قرّره الزمخشری فی کشافه و نصره أتم نصر، و إلیه ذهب ابن تیمیة و أبو العجاج المزی» «۲».

و الذی یظهر مما تقدم أن القول بأن هذه الحروف- فی بعض حکمها- إشارات إعجازیة لیس من ابتکارنا، و لا هو أمر نحن ابتدعناه، و إنما سبق

---

(۱) ظ: الطبرسی، مجمع البیان فی تفسیر القرآن: ۱/ ۳۳.

(۲) ابن کثیر، تفسیر القرآن العظیم: ۱/ ۳۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۰

إلیه جمع من الأعلام کما رأیت حتی لقد أورده ابن الزملکانی (ت: ۶۵۱ ه) و اعتبر هذه الحروف کالمهیجة لمن یسمعها من الفصحاء، و الموقظة للهمم الراقدة من البلغاء «۱».

و یعضد هذا الرأی أمران:

الأول: أن هذه الحروف الهجائیة فی فواتح السور القرآنیة طالما ورد بعدها ذکر القرآن أو الکتاب معظما مفخما، یتلوه الدلیل علی إعجازه، و الحدیث عن الانتصار له، و الإشارة إلی تحدیه العالم و الأمم و الشعوب و القبائل، مما یؤید حکمة هذه الأصوات لبیان إعجازه و کماله، و حسن نظمه و تألیفه، و سر بقائه و خلوده، کونه نازلا من اللّه، مستقرا فی هذا المصحف الشریف، دون تصحیف أو تحریف، أو زیادة أو نقصان، زیادة فی دوامه، و تعهدا بحفظه و سلامته، بما أکده اللّه تعالی: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹)

«۲».

الثانى: أن المتتبع لأسباب النزول، و الأحداث التى رافقت قرع الأسماع بهذه الأصوات، يجد الإيذاء بها قد تقاطر سيله بأشدّ الظروف قسوة على الرسالة الإسلامية، فكان التحدى قائما على أشدّه بمثل هذه الأصوات المدوّية فى الآفاق.

فما كان منها فى السور المكية، و هى الحقبة التى واجهت بها الرسالة عنفا و غطرسة و تكذيبا، فقد جاءت فيه هذه الحروف ردا مفحما فى التحدى الصارخ، و الدليل الناصح على صدق المعجزة.

و ما كان منها فى السور المدنية، فقد جاء تحديا لأهل الكتاب فيما نصبوه من عداء للدين الجديد، و إنذارا للمنافقين فيما كادوا به محمدا و الذين معه.

إلا أن الملحظ الصوتى الذى نقف عنده للدلالة على التنبيه على صوتية هذه الحروف، مع كونها إشارات إعجازية فى بعض حكمها، الملحظ هذا: أنها تنطق كنطقك الأصوات، و لا تلفظ كلفظك الحروف، فتقول فى قوله تعالى: ص «صاد» صوتا نطقيا، لا حرفا مرسوما «ص»

---

(۱) ابن الزملكانى، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ۵۷.

(۲) الحجر: ۹.

أو «أص» و كذلك فى قوله تعالى: ق فإنك تقول «قاف» لا «ق» و لا «اق» و هكذا فى الحروف الثنائية كقوله تعالى: طس و فى الحروف الثلاثية كقوله تعالى: الم و كذلك فى الحروف الرباعية كقوله تعالى:

المر و كذلك فى الحروف الخماسية كقوله تعالى: كهيعص (۱) فكلها تنطق بأسماء تلك الحروف أصواتا، لا بأشكالها الهجائية رسوما، مما يقرب منها البعد الصوتى المتوخى، بينما كتبت فى المصاحف على صورة الحروف لا صورة الأصوات.

و قد علل الزركشى (ت: ۷۹۴ ه) المؤشر الأخير بالوقوف عند خط المصحف بأشياء خارجة عن القياسات التى يبنى عليها علم الخط و الهجاء «ثم ما عاد ذلك بنكير و لا نقصان لاستقامة اللفظ، و بقاء الحفظ» «۱».

و أشار الشيخ الطوسى (ت: ۴۶۰ ه) إلى جزء من صوتية هذه الحروف بملحظ الوقف عندها فقال: «و أجمع النحويون على أن هذه الحروف مبنية على الوقف لا تعرب، كما بنى العدد على الوقف، و لأجل ذلك جاز أن يجمع بين ساكنين، كما جاز ذلك فى العدد» «۲».

هذه لمحات صوتية فى خضم دلالات الحروف المقطعة فى فواتح السور القرآنية، وقفنا عند الصوت اللغوى فيها، و أشرنا إلى البعد الإعجازى من خلالها، و ليس ذلك كل شىء فى أبعادها، فقد تبقى من المتشابه الذى لا يعلمه إلا اللّه، و خير الناس من قال فيها بكل تواضع: اللّه أعلم، كما قال ذلك مالك بن بنى فى حديثه عنها.

«لقد حاول معظم المفسرين أن يصلوا إلى موضوع الآيات المغلقة إلى تفاسير مختلفة مبهمة، أقل أو أكثر استلهاما للقيمة السحرية التى تخص بها الشعوب البدائية: الكواكب، و الأرقام و الحروف، و لكن أكثر المفسرين تعقلا و اعتدالا، هم أولئك الذين يقولون فى حال كهذه بكل تواضع: اللّه أعلم» «۳».

---

(۱) الزركشى، البرهان: ۱/ ۱۷۲.

(۲) الطوسى، التبيان: ۱/ ۵۰.

(۳) مالك بن بنى، الظاهرة القرآنية: ۳۳۳.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۲

و فوق هذا و ذاک

قول أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السلام فیما ینسب إلیه: «إن لکل کتاب صفوة، و صفوة هذا الکتاب حروف التهجی»

و تبقی التأویلات سابحة فی تیارات هذه الحروف المتلاطمة، و التفسیر الحق لها عند اللّه تعالی، و لا یمنع ذلک من کشف سیل الحکم و الإشارات و التوجیهات، و الملامح اللغویة بعامة، أو الصوتیة المتخصصة، أو الإعجازیة بخاصة فی هذه الحروف فهو لیس تفسیرا لها بملحظ أن التفسیر هو الکشف عن مراد اللّه تعالی من قرآنه المجید، بقدر ما هو إشعاع من لمحاتها، و قبس من أضوائها، یسری علی هداه السالکون.

وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا و فَوْقَ کُلِّ ذِی عِلْمٍ عَلِیمٌ صدق اللّه العظیم

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۳

الفصل الرابع الصوت اللغوی فی الأداء القرآنی

اشارة

۱- أصول الأداء القرآنی ۲- مهمة الوقف فی الأداء القرآنی ۳- نصاعة الصوت فی الأداء القرآنی ۴- الصوت الأقوی فی الأداء القرآنی ۵- توظیف الأداء القرآنی فی الأحکام

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۵

أصول الأداء القرآنی:

لعل أقدم إشارة تدعو إلی التأمل فی أصول الأداء القرآنی، ما

روی عن الإمام علی علیه السلام فی قوله تعالی: وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلًا «۱».

أنه قال: «الترتیل تجوید الحروف، و معرفة الوقوف» «۲».

و فی روایة ابن الجزری أنه قال: «الترتیل معرفة الوقوف، و تجوید الحروف» «۳»

و نقف عند هاتین الظاهرتین: معرفة الوقوف، و تجوید الحروف.

الأول: الوقف، قال عبد اللّه بن محمد النکزاوی (ت: ۶۸۳ ه):

«باب الوقف عظیم القدر جلیل الخطر، لأنه لا یتأتی لأحد معرفة معانی القرآن، و لا استنباط الأدلة الشرعیة منه إلا بمعرفة الفواصل» «۴» و هو بیان موضع الوقف عند الاستراحة لغرض الفصل، إذ لا یجوز الفصل بین کلمتین حالة الوصل، فتقف عند اللفظ الذی لا یتعلق ما بعده به، و یحدث غالبا عند آخر حرف من الفاصلة، کما یحدث فی سواه، و قد عرفه السیوطی (ت: ۹۱۱ ه) تعریفا صوتیا فقال: «الوقف: عبارة عن قطع الصوت عن الکلمة زمنا یتنفس فیه عادة بنیة استئناف القراءة لا بنیة

---

(۱) المزمل، ۴.

(۲) السیوطی: ۱/ ۲۳۰.

(۳) ابن الجزری، النشر فی القراءات العشر.

(۴) السیوطی، الاتقان فی علوم القرآن: ۱/ ۲۳۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۶

الإعراض، و یکون فی رءوس الآی و أوساطها، و لا یأتی فی وسط الکلمة، و لا فیما اتصل رسما» «۱». و لا یصح الوقف علی المضاف دون المضاف إلیه، و لا- المنعوت دون نعته، و لا- الرافع دون مرفوعه و عکسه، و لا الناصب دون منصوبه و عکسه، و لا إن أو کان أو ظن و أخواتها دون اسمها، و لا اسمها دون خبرها، و لا المستثنی منه دون الاستثناء، و لا الموصول دون صلته، اسمیا أو حرفیا، و لا الفعل دون مصدره، و لا حرف دون متعلقه، و لا شرط دون جزائه، کما یری ذلک ابن الأنباری «۲».

و هذا التوقف عن الوقف قد لا- یراد ببعضه التحریم الشرعی، و إنما المراد هو عدم الجواز فی الأداء القرآنی، مما تکون به التلاوة قائمة علی أصولها، و الملحظ الصوتی متکاملا فی التأدیة التامة لأصوات الحروف.

و المقیاس الفنی لذلک: أن الکلام إذا کان متعلقا بما بعده فلا یوقف علیه، و إن لم یکن کذلک فالمختار الوقوف علیه.

و لنأخذ کلمة «نعم» فی موضعین من القرآن فی حالتی الوقوف و عدمه:

أ- قال تعالی: وَ نادی أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ (۴۴) «۳».

فالاختیار الفنی الوقوف الطبیعی عند نعم، لأن ما بعدها غیر متعلق بها، إذ لیس «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ» فی الآیة من قول أهل النار.

ب- و قال تعالی: أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (۱۸) «۴» فالاختیار الأدائی عدم الوقوف عند «نعم» بل وصلها بما بعدها، لتعلقه بما قبلها، و ذلک لأنه من تمام القول و غیر منفصل عنه.

---

(۱) السیوطی، الاتقان فی علوم القرآن: ۱/ ۲۴۴.

(۲) المصدر نفسه ۱/ ۲۳۲.

(۳) الأعراف: ۴۴.

(۴) الصافات: ۱۷- ۱۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۷

لذلک فقد عبر الزرکشی عن الوقف بأنه «فن جلیل، و به یعرف کیف أداء القرآن، و به تتبین معانی الآیات، و یؤمن الاحتراز عن الوقوع فی المشکلات» «۱».

و قد نقل السیوطی: أن للوقف فی کلام العرب أوجها متعددة، و المستعمل منها عند أئمة القراء تسعة: السکون، و الروم، و الإشمام، و الإبدال، و النقل، و الإدغام، و الحذف، و الإثبات، و الإلحاق «۲».

و هذه المفردات کلها مصطلحات فنیة تتعلق بالصوت، و تنظر إلی التحکم فیه، أو تعتمد علی إظهار الصوت بقدر معین.

فالسکون: عبارة عن ترک الحرکة علی الکلم المحرکة وصلا.

و الروم: النطق ببعض الحرکة أو تضعیف الصوت بالحرکة حتی یذهب أکثرها.

و الإشمام: عبارة عن الإشارة إلی الحرکة من غیر تصویب.

و الإبدال: فیما آخره همزة متطرفة بعد حرکة أو ألف، فإنه یوقف بإبدالها حرف مدّ من جنس ما قبلها.

و النقل: فیما آخره همزة بعد ساکن، فتنقل حرکتها إلیه، فتحرک بهاء ثم تحذف الهمزة.

و الإدغام: فیما آخره همزة بعد یاء أو واو زائدین، فإنه یوقف علیه بالإدغام بعد إبدال الهمزة من جنس ما قبله.

و الحذف: إنما یکون فی الیاءات الزوائد عند من یثبتها وصلا.

و الإثبات: فی الیاءات المحذوفات وصلا عند من یثبتها وقفا.

و الإلحاق: ما یلحق آخر الکلم من هاءات السکت عند من یلحقها.

فی: عم، و فیم، و بم، و مم. و النون المشددة مع جمع الإناث،

---

(۱) الزرکشی، البرهان فی علوم القرآن: ۱/ ۳۴۲.

(۲) ظ: السیوطی، و الاتقان: ۱/ ۲۴۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۸

نحو: هن و مثلهن. و النون المفتوحة، نحو العالمین، و الدین، و المفلحون، و المشدد المبنی، نحو: «ألا تعلو علی» و «خلقت بیدی»، و «مصرخی» و «یدیّ» «۱».

و ستجد فی غضون البحث نماذج قرآنیة کافیة لهذه المؤشرات الصوتیة تطبیقیا، و ذلک فی مواضعها من البحث، و کل بحیث یراد.

و لما کان الوقف هو الأصل فی هذا المبحث، فإن موارده فی الأداء القرآنی متسعة الأطراف، و متعددة الجوانب، و لما کانت الفاصلة القرآنیة تشکل مظهر الوقف العام و المنتشر فی القرآن، فقد سلطنا الضوء الکاشف علی جزئیاتها فی أصول الأداء القرآنی بمختلف صورها، و اعتبرنا ذلک المورد الأساس للأداء بالنسبة للفاصلة فحسب، علی أننا قد خصصنا الفواصل بفصل منفرد بالنسبة للصوت اللغوی، و لمّا کان مبنی الفواصل علی الوقف، و تلک ظاهرة صوتیة فی الأداء، فإننا قد أضفنا إلیها ظاهرة أخری فی رد الأصوات إلی مخارجها، و تنظیم النطق بحسبها فی إحداث الأصوات، و هی ظاهرة ترتیب التلاوة صوتیا، و بذلک اجتمع موردان هما الأصل فی علم الأداء القرآنی الوقف و التجوید منفرین بالمبحثین الآتیین:

مهمة الوقف فی الأداء القرآنی:

یأتی الوقف دون الموصل فی وسط الآیة، و ضمن فقراتها، و عند فواصلها، و لما کان مبنی الفواصل القرآنیة علی الوقف فی مختلف صورها مرفوعة و مجرورة و منصوبة اسما کانت أم فعلا، مفردا أم مثنی أم جمعا، مذکرا و مؤنثا، فإن الوقف فی مجالها متمیز الأبعاد، و متوافر العطاء، فقد عرضنا إلیه فی هذا الحقل للدلالة علیه فیما سواه مضافا إلی ما تقدم فی المبحث السابق، ففیه الغنیة إلی موارده.

شاع فی فواصل الآیات القرآنیة مقابلة المرفوع بالمجرور و بالعکس، و کذا المفتوح و المنصوب غیر المنون، و قارن فیما یأتی: من الآیات، و هی تقف عند السکون صوتا فی غیر الدرج، ۀ إن کانت فواصلها متعاقبة علی

---

(۱) السیوطی، الاتقان: ۱/ ۲۴۹- ۲۵۰ و قارن فی کتب التجوید.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۰۹

الرفع و الجر أو الجرّ و الرفع من حیث الموقف الإعرابی، و الرسم الکتابی:

أولا: مقابلة المجرور و المرفوع طردا و انعکاسا و المجرور بالمفتوح:

أ- قال تعالی: لا یَسَّمَّعُونَ إِلَی الْمَلَإِ الْأَعْلی وَ یُقْذَفُونَ مِنْ کُلِّ جانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (۹) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (۱۰) فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِینٍ لازِبٍ (۱۱) «۱».

فالکلمة «جانب» و هی مجرورة فی الفاصلة الأولی تتبعها «واصب» فی الفاصلة الثانیة، و هی مرفوعة. و الکلمة «ثاقب» مرفوعها تتبعها فی الفاصلة التی تلیها «لازب» و هی مجرورة، و قد جاءت الفواصل جمیعها علی نبرة صوتیة واحدة نتیجة الوقف عندها.

ب- قال تعالی: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُیُوناً فَالْتَقَی الْماءُ عَلی أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلی ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِی بِأَعْیُنِنا جَزاءً لِمَنْ کانَ کُفِرَ (۱۴) «۲».

فالكلمة «منهمر» و هى مجرورة تبعتها فى الفاصلة التى تليها «قدر» و هى مفتوحة. و الكلمة «دسر» و هى مجرورة تبعتها فى الفاصلة التى تليها «كفر» و هى مفتوحة، و قد تمت تسويتها الصوتية على وتيرة نغمية واحدة ضمن نظام الوقف فى الفواصل فنطقت ساكنة.

ج- و فى سورة الرعد، ورد اقتران المنون المجرور بالمنصوب، يليه المجرور غير المنون، فى قوله تعالى:

وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (۱۲) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِى اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (۱۳) «۳».

---

(۱) الصافات: ۸- ۱۱.

(۲) القمر: ۱۱- ۱۴.

(۳) الرعد: ۱۱- ۱۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۰

فالكلمة «وال» منونة و هى مجرورة تبعتها فى الفاصلة التى تليها «الثقال» و هى مفتوحة منصوبة، تليها «المحال» و هى مجرورة غير منونة.

و بدت الآيات فى تراصفها الصوتى مختتمة باللام الساكنة، دون تنوين أو فتح أو كسر بفصيلة الوقف.

ثانيا: و لا تتحكم هذه القاعدة فى الفواصل التى تلتزم حرفا واحدا فى أواخرها، كما فى الأمثلة السابقة بل تتعداها إلى أجزاء أخرى من الفواصل، المختلفة الخواتيم، و قارن بين الآيات التالية الذكر:

أ- ورد اقتران المجرور بالمرفوع المنوّن، و اقتران المرفوع المنون بالمنصوب فى قوله تعالى:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (۳۰) قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ (۳۱) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ، مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (۳۲) «۱».

فالألفاظ: «النار» و هى مجرورة دون تنوين، و «خلال» و هى مرفوعة منونة، و «الأنهار» و هى منصوبة مفتوحة، و قد تلاقت الكسرة و الضمة و الفتحة فى سياق قرآنى واحد، دون تقاطع النبر الصوتى، أو اختلاف النظام الترتيلى.

ب- و قد جاء التنوين فى حالة الجر إلى جنب الرفع غير المنون فى فاصلتى قوله تعالى:

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (۱۴) يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۱۵) «۲». فالكلمتان «خبير» و هى مجرورة منونة مختتمة بالراء، تبعتها فى الفاصلة التى تليها «الحميد» و هى مرفوعة دون

---

(۱) إبراهيم: ۳۰- ۳۲.

(۲) فاطر: ۱۴- ۱۵.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۱

تنوين مختتمة بالدال، انسجما صوتيا مع اختلاف الفاصلة و الهيأة نتيجة لهذا الوقف الذى قرب من الصوتين.

ثالثا: و لا يقف فضل الوقف على ما تقدم بل يظهر بمظهر جديد آخر فى تقاطر العبارات و تناسقها، و هى مختلفة فى المواقع الإعرابية، و كأنها فى حالة إعرابية واحدة و إن لم تكن كذلك، نتيجة للصوت الواحد فى الوقوف على السكون فى آخر الفاصلة.

أ- فى سورة المدثر، يقترن المرفوع المنون، بالمجرور المنون، يليه المنصوب المنون، و لا تحس لذلك فرقا فى سياق واحد فى قوله

تعالى:

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (۵۱) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (۵۲) «۱». فالكلمات: «مستنفرة» مرفوعة منونة، تلتها «قسورة» مجرورة منونة، تلتها «منشرة» منصوبة منونة، و لم تنطق صوتيا عند الوقف بكل هذه التفصيلات، بل وقفنا على الهاء.

ب- و فى سورة القيامة يقترن الاسم المنصوب فى الفاصلة بالظرف مع الاسم المجرور بسياق واحد متناسق يكاد لا يختلف فى نبر، و لا يختلط فى تنغيم، قال تعالى: بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (۴) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (۵) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (۶) «۲».

فالألفاظ: «بنانه» مفعول به منصوب مضاف إلى الهاء، و «أمامه» ظرف مضاف إلى الضمير، و «القيامة» مجرورة مضاف إليه. و جاءت الأصوات متقاطرة بالهاء عند الوقف.

أما الوقف فى وسط الآية، و فى نهاية الجملة، و عند بعض الفقرات من الآيات، فإنه يخضع لقواعد إعرابية حينا، و تركيبة حينا آخر، و قد أشرنا إليها فيما سبق، و لا يترتب عليها كبير أمر فى الأصوات، لهذا كانت الإشارة مغنية، و كان التفصيل فى الوقف عند الفواصل لارتباطه بالصوت اللغوى.

---

(۱) المدثر: ۵۰- ۵۲.

(۲) القيامة: ۴- ۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۲

نصاعة الصوت فى الأداء القرآنى:

و نريد بالنصاعة إخراج الصوت واضحا لا يلتبس به غيره من أصوات العربية، و إعطاء الحرف حقه من النطق المحقق غير مشتبه بسواه، و هذا جوهر الأداء، و قد سماه القدامى بعلم التجويد، و لعل تسمية علم الأداء القرآنى ب «التجويد» ناظرة إلى قول الإمام على عليه السلام المتقدم:

«الترتيل معرفة الوقوف، و تجويد الحروف» «۱»

فأخذ عنه هذا المصطلح بإعطاء الحروف حقوقها و ترتيبها، ورد الحرف إلى مخرجه و أصله، و تلطيف النطق به على كمال هيئته، من غير إسراف و لا تعسف، و لا إفراط و لا تكلف» «۲».

و هذه القاعدة تبنى على مخارج الحروف صوتيا، و قد تقدم أنها سبعة عشر مخرجا عند الخليل، و ستة عشر مخرجا عند تابعيه، بإسقاط مخرج الحروف الجوفية.

و مخرج الحرف للتصويت به دون ليس، أفاده ابن الجزرى (ت:

۸۳۳ ه) فى تعريفه له من الخليل عمليا، يقول: «و اختيار مخرج الحرف محققا أن تلفظ بهمزة الوصل و تأتى بالحرف بعده ساكنا أو مشددا، و هو أبين، ملاحظا فيه صفات ذلك الحرف» «۳».

فتقول فى الباء و التاء و الثاء «ابّ، اتّ، اثّ» و هكذا بقية الحروف، فتتحكم الذائقة الصوتية فى نطق الحروف على أساس منها كبير، و الدليل على ذلك تقسيم الحروف على أساس مخارجها عند علماء الأداء القرآنى تبعا لعلماء اللغة، فكل حيّز ينطلق منه الصوت يشكل مخرجا فى أجهزة النطق، و ذلك عند اندفاع الأصوات إلى الخارج من مخارج الحلق و مدارجه.

و قد أورد السيوطى (۹۱۱ ه)، ملخصا فى مخارج الأصوات استند فيه إلى ابن الجزرى (ت: ۸۳۳ ه) و كان ابن الجزرى ذكيا فى جدولته للأصوات من مخارجها، إذ- فاد من كل ما سبقه، و نظمه جامعا تلك

(۱) ابن الجزرى، النشر فى القراءات العشر.

(۲) السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن: ۱/ ۲۸۱.

(۳) ابن الجزرى، النشر فى القراءات العشر: ۱/ ۱۹۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۳

الإفادات، و هى ليست له إلا فى إضافات من هنا و هناك، استند إلى ترتيب الخليل (ت: ۱۷۵ ه) و برمجة سيبويه (ت: ۱۸۰ ه) و ذائقة ابن جنى (ت:

۳۹۲ ه).

و لا ـ ضير فى ذكر مخارجه مع الجزئيات المضافة لا على الأصل فهو واحد، بل فى تحسين العرض، و ضبط حيثيات المخارج على النحو الآتى:

الأول: الجوف، للألف و الواو و الياء الساكنين بعد حركة تجانسهما.

الثانى: أقصى الحلق، للهمزة و الياء.

(الثالث: وسطه، للعين و الحاء المهملتين.

الرابع: أدنى الحلق للفم، للغين و الخاء.

الخامس: أقصى اللسان مما يلى الحلق و ما فوقه من الحنك للقاف.

السادس: أقصاه من أسفل مخرج القاف قليلا، و ما يليه من الحنك.

السابع: وسطه، بينه و بين وسط الحنك، للجيم و الشين و الياء.

الثامن: للضاد المعجمة، من أول حافة اللسان، و ما يليه من الأضرس من الجانب الأيسر، و قيل: الأيمن.

التاسع: اللام من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه، و ما بينها و بين ما يليها من الحنك الأعلى.

العاشر: للنون من طرفه، أسفل اللام قليلا.

الحادى عشر: للراء من مخرج النون، لكنها أدخل فى ظهر اللسان.

الثانى عشر: للطاء و الدال و التاء من طرف اللسان و أصول الثنايا العليا مصعدا إلى جهة الحنك الثالث عشر: لحروف الصفير: الصاد و السين و الزاى، من بين طرف اللسان، و فويق الثنايا السفلى.

الرابع عشر: للظاء و الثاء و الذال، من بين طرفه و أطراف الثنايا العليا

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۴

الخامس عشر: للفاء، من باطن الشفة السفلى و أطراف الثنايا العليا.

السادس عشر: للباء و الميم و الواو غير المدّيّة بين الشفتين.

السابع عشر: الخيشوم للغنة فى الادغام و النون أو و الميم الساكنة «۱».

لقد اتسم تشخيص هذه المخارج بالدقة، و تعيين المواضع بما يقرّه علم التشريح حديثا، من حيث الضبط لجزئيات المدارج، فهى تتلاءم تماما مع معطيات هذا العلم بعد مروره بتجارب الأجهزة المختبرية، و نتائج جراحة مخارج الأصوات ضمن معادلات دقيقة لا تخطئ.

و لا ـ يكتفى ابن الجزرى فى هذا العرض حتى يضيف إليه مفصلا صوتيا فى خصائص الحروف، و ملامح الأـصوات، و سمات الاشتراك و الانفراد فى المخارج و الصفات.

یقول ابن الجزری (ت: ۸۳۳ ه) فالهمزة و الهاء اشترکا مخرجا و انفتاحا و استفالا، و انفردت الهمزة بالجهر و الشدة، و العین و الحاء اشترکا کذلک، و انفردت الحاء بالهمس و الرخاوة الخالصة، و الغین و الخاء اشترکا مخرجا و رخاة و استعلاء و انفتاحا و انفردت الغین بالجهر، و الجیم و الشین و الیاء اشترکت مخرجا و انفتاحا و استفالا، و انفردت الجیم بالشدة، و اشترکت مع الیاء فی الجهر، و انفردت الشین بالهمس و التفشی، و اشترکت مع الیاء فی الرخاوة، و الضاد و الظاء اشترکا صفة و جهرا و رخاوة و استعلاء، و إطباقا، و افترقا مخرجا، و انفردت الضاد بالاستطالة، و الطاء و الدال و التاء اشترکت مخرجا و شدة، و انفردت الطاء بالإطباق و الاستعلاء، و اشترکت مع الدال فی الجهر، و انفردت التاء بالهمس، و اشترکت مع الدال فی الانفتاح و الاستفال، و الظاء و الذال و الثاء اشترکت مخرجا و رخاوة، و انفردت الظاء بالاستعلاء و الأطباق، و اشترکت مع الذال فی الجهر، و انفردت الثاء بالهمس، و اشترکت مع الذال انفتاحا و استفالا، و الصاد و الزای و السین اشترکت مخرجا و رخاوة و صفیرا، و انفردت الصاد

---

(۱) انظر السیوطی، الاتقان: ۱/ ۲۸۳ و انظر مصدره.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۱۵

بالإطباق و الاستعلاء، و اشترکت مع السین فی الهمس، و انفردت الزای بالجهر، و اشترکت مع السین فی الانفتاح و الاستفال. فإذا أحکم القارئ النطق بکل حرف علی حدته موفّی حقه، فلیعمل نفسه بأحکامه حالة الترکیب لأنه ینشأ عن الترکیب ما لم یکن حالة الإفراد، بحسب ما یجاورها من مجانس و مقارب، و قوی و ضعیف، و مفخّم و مرقق، فیجذب القوی الضعیف، و یغلب المفخّم المرقق، و یصعب علی اللسان النطق بذلک علی حقه، إلا بالریاضة الشدیدة، فمن أحکم صحة التلفظ حالة الترکیب، حصل حقیقة التجوید» «۱».

حقا لقد أعطی ابن الجزری مواطن تنفیذ الأداء القرآنی علی الوجه الأکمل بما حدده من خصائص کل حرف فی المعجم، و ما لخصه من دراسة صوتیة لمواضع الأصوات و مدارجها فی الانفتاح و الاستفال، و الجهر و الهمس، و الشدة و الرخاوة، و التفشی و الاستطالة یساعد علی تفهم الحیاة الصوتیة فی عصره، و لا یکتفی بهذا حتی یربطها بعلم الأداء فی حالة ترکیب الحروف، و تجانس الأصوات قوة و ضعفا.

بقی القول أن علم الأداء القرآنی یرتبط بالأصوات فی عدة ملاحظ کالوقف و قد تقدم، و الإدغام و سیأتی، و نشیر هنا إلی ملحظین هما الترقیق و التفخیم، فالترقیق مرتبط بحروف الاستفال (الحروف المستفلة) لأنها مرققة جمیعا. و التفخیم مرتبط بحروف الاستعلاء (الحروف المستعلیة) لأنها مفخمة جمیعا، و قد سبقت الإشارة فی موضعها إلی الامالة و الاشمام.

و ما قدمناه- عادة- قد یصلح مادة أساسیة للاستدلال علی صلاحیة الرأی القائل بأن علم الأداء القرآنی فی قسیمیه الأساسیین: عبارة عن جزء مهم من کلی الصوت اللغوی فی القرآن، لارتباطه بعلم الأصوات ارتباطا متماسکیا لا- یمکن التخلی عنه، فهو ناظر إلی مخارج الحروف و تجویدها، و المخارج بأصنافها تشکل مخططا تفصیلیا لأجهزة الصوت، و کل حرف ینطلق من حیزه صوتا له مکانه و زمانه، ساحته و مسافته.

---

(۱) ابن الجزری، النشر فی القراءات العشر: ۱/ ۲۱۴.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۱۶

الصوت الأقوی فی الأداء القرآنی:

فی الأداء القرآنی یحدث أن یحتل صوت مکان صوت، أو یدغم صوت فی صوت، فیشکلان صوتا واحدا، و یکون الصوت المنطوق

هو الأقوى فى الإبانة و الإظهار، و هو الواضح فى التعبير، حينئذ يكون المنطوق حرفا، و المكتوب حرفين، و المعول عليه ما يتلفظ به أداء، و ينطق بجوهره صوتا، ذلك ما يتحقق بعده الصوتى فى ظاهرة الادغام.

إن رصد هذه الظاهرة أصواتيا فى التنظير القرآنى مهمة جدا لمقاربتها من ظاهرة «المماثلة» عند الأصواتيين.

الادغام عند النحاة: أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف فيصير اتصالهما كحرف واحد «۱».

و عند علماء القراءات: هو اللفظ بحرفين حرفا كالثانى مشددا، و ينقسم إلى كبير و صغير، فالكبير ما كان أول الحرفين متحركا، سواء كانا مثلين أم جنسين، أم متقاربين، و سمى كبيرا لكثرة وقوعه، و وجهه: طلب التحقيق.

و الادغام الصغير: ما كان الحرف الأول فيه ساكنا، و هو واجب و ممتنع و جائز، و الذى جرت عادة القراء بذكره هو الجائز «۲».

و الادغام عند الأصواتيين العرب عرفه ابن جنى (ت: ۳۹۲ ه) بأنه:

«تقريب صوت من صوت» «۳».

و هو عنده: إما تقريب متحرك من متحرك، فهو الادغام الأصغر، و هو تقريب الحرف من الحرف، و إدناؤه منه من غير ادغام يكون هناك.

و إما تقريب ساكن من متحرك فهو الادغام الأكبر لأن الصوت الأول شديد الممازجة للثانى، لأنك إنما أسكنت المتحرك لتخلطه بالثانى و تمازجه به. «۴»

---

(۱) ظ: ابن يعيش، المفصل: ۱۰/ ۱۲۱.

(۲) ظ: السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن: ۱/ ۲۶۳ و ۲۶۷.

(۳) ظ: ابن جنى، الخصائص: ۲/ ۱۳۹.

(۴) ظ: المصدر نفسه: ۲/ ۱۴۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۷

و نقف عند قول ابن جنى وقفة قصيرة لتحديد الصوت الأقوى.

فتقريب الحرف من الحرف يحصل من غير إدغام فلا حديث لنا معه، و إنما يعنينا الحديث عن الادغام و هو ما يتحقق بالأكبر دون الأصغر، و يحدث بتقريب الساكن من المتحرك. لهذا فسيكون حديثنا متأطرا بالادغام الأكبر دون سواه فيما بعد.

و التقريب الذى تحدث عنه ابن جنى هو عين المماثلة عند الأصواتيين المحدثين، لأن المماثلة عبارة عن عملية استبدال صوت بآخر تحت تأثير صوت ثالث قريب منه فى الكلمة أو فى الجملة كما يعرفها جونز «۱».

و المماثلة نوعان: رجعية و تقدمية، و ذلك بحسب كونها من الأمام إلى الخلف، أو من الخلف إلى الأمام.

و النوع الأول هو الأكثر شيوعا من الآخر مع أن كلا منهما يمكن أن يحدث فى لغة واحدة «۲».

و المماثلة الرجعية تنجم من تأثر الصوت الأول بالثانى فى صيغة افتعل فى نحو (اذتكر) حينما تتفانى الذال و التاء، و يندكان تماما ليحل محلهما الدال مشددا، فتكون (ادكر) فى مثل قوله تعالى:

وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (۴۵) «۳» فقد تلاشى الصوت الأول و هو الذال فى الصوت الثانى و هو التاء، و عادت التاء دالا لقرب المخرج مع تشديدها لتدل على الاثنين معا، و هذا هو تطبيق المماثلة فى الادغام.

«و تتخذ المماثلة صورة تقدمية فيما ينطقه بعض الناس للفظة (اجتمع) ب (اجدمع) فالتاء قد جاورت الجيم مجاورة مباشرة، ففقد صوت التاء صفته كمهموس، ليصبح مجهورا فى صورة نظيره الدال» «۴».

(۱) ظ: خليل العطية، فى البحث الصوتى عند العرب: ۷۱ و انظر مصدره.

(۲) ظ: إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۱۲۶.

(۳) يوسف: ۴۵.

(۴) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ۱۲۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۸

و الـذى يتضـح من هـذا أن الصوت القوى هو الـذى يحتل مساحـة النطق بـدل الصوت الضـعيف، نتيجـة الملائمـة الصوتيـة فى الأكثر مجاورة و احتكاكا، بينما علل «موريس جرامونت» ظاهرة المماثلـة بالتفسـير العضوى المرتبط بجهاز النطق فيقول: «أما الوجه الـذى تتم به الظاهرة فهو ذو طابع خارجى لا يعتمـد على جوهر الصوت، فإذا ما تحدثنا عنه من الوجهة النفسـية العضوية لم نجد للمماثلة الرجعية من تعليل سوى إسـراع بحركات النطق عن مواضـعها، و بأن المماثلـة التقدمية التزام هذه الحركات و الجمود عليها ... و مع ذلك فهذه التفرقـة ثانويـة، أمـا الشـىء الأساسـى فهو أن هناك صوتا يسـيطر على صوت آخر، و أن الحركـة تتم فى اتجاه أو فى آخر ما إذا كان الصوت المسيطر موجودا فى الأمام أو فى الخلف. و لا شك أن الصوت المؤثر هو ذلك الذى تتوفر فيه صفات: أن يكون أكثر قوة، و أكثر مقاومة، أو أكثر اسـتقرارا، أو أكثر امتيازا، و إنما تتحد هذه الصفات سلفا طبقا لنظام اللغة، و على ذلك يمكن التنبؤ بالوجه الذى تتم عليه ظاهرة المماثلـة، الأمر الـذى يسـتبعد معه هوى المتكلم، و لتبسـيط الأمر يمكننا أن نحـدد القضـية كلها فى كلمـة واحـدة هى (القوة). فالمماثلـة تخضع لقانون واحـد هو قانون: (الأقوى). و ليست المماثلـة و نقيضـها المخالفـة هما اللـذان يخضـعان و حدهما له، تخضع له جميع الظواهر التى يكون فيها تغير الأصوات ناشئا عن وجود صوت آخر «۱».

و هذا يدل على أن مقاومة ما تحدث بين الأصوات فى المماثلة، فيحل الأقوى بدل القوى، و يتغلب عليه فيصوت به دونه.

و على هـذا فالإدغام عنـد العرب فى نوعيه هو الأصل فى المماثلـة عند الأوروبيين، إذ يتغلب صوت أولى على صوت ثانوى، فالصوت الأـولى هو الأـقوى، لأـنه المتمكن المسـيطر على النطق، و أحيانـا يحـل محلهمـا معـا صوت ثـالث مجـاور يمثل الصوتين السابقين بعد فنائهما، و تلاشى أصدائهما كما فى الابدال.

و كان أبو عمرو بن العلاء (ت: ۱۵۴ ه) من أبرز القائلين به فى

(۱) عبد الصبور شاهين، أثر القراءات فى الأصوات: ۲۳۳ و انظر مصدره.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۱۹

القرآن الكريم و إليه ينسب القول المشهور:

«الإدغام كلام العرب الذى يجرى على ألسنتها و لا يحسنون غيره» «۱».

و قـد قـال ابن الجزرى عن عـدد مـا أدغمه أبـو عمرو فى القرآن: «جميـع مـا أدغمه أبـو عمرو من المثلين و المتقـاربين، ألف حرف و ثلاثمائة و أربعة أحرف» «۲». الصوت اللغوى فى القرآن ۱۱۹ الصوت الأقوى فى الأداء القرآنى: ..... ص : ۱۱۶

و الحق أن أبا عمرو بن العلاء قد توسع فى الادغام حتى أنكروا عليه إدغامه الراء عند اللام فى قوله تعالى:

يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴) «۳» [إذ قرأها يغفلكم].

قال الزجاج: إنه خطأ فاحش، و لا تدغم الراء فى اللام إذا قلت:

«مر لى» بكذا، لأن الراء حرف مكرر، و لا يدغم الزائد فى الناقص للإخلال به، فأما اللام فيجوز إدغامه فى الراء، و لو أدغمت اللام فى الراء لزم التكرير من الراء. و هذا إجماع النحويين «۴».

و قال أبو عمرو بن العلاء بالادغام الكبير لشموله نوعى المثلين و الجنسين و المتقاربين، و يعنى بالمثلين ما اتفقا مخرجا و صفة، و المتجانسين ما اتفقا مخرجا و اختلفا صفة، و بالمتقاربين ما تقاربا مخرجا و صفة «۵».

و عمد القراء رضوان اللّه عليهم إلى جعل الحروف المدغمة على نوعين من التقسيم «۶».

الأول: الحروف التى تدغم فى أمثالها، و اصطلحوا عليه المدغم من

---

(۱) ابن الجزرى، النشر فى القراءات العشر: ۱/ ۲۷۵.

(۲) ظ: السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن: ۱/ ۲۶۶.

(۳) نوح: ۴.

(۴) ظ: الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ۱/ ۳۲۲.

(۵) ظ: السيوطى، الاتقان: ۱/ ۲۶۳ و ما بعدها، و أنظر مصدره.

(۶) قارون فى هذا بين الجزرى، النشر: ۱/ ۲۸۰ و ما بعدها السيوطى، الاتقان: ۱/ ۲۶۴ و ما بعدها ابن يعيش، المفصل: ۱۰/ ۱۵۰ و ما بعدها.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۰

الأول: الحروف التى تدغم فى أمثالها، و اصطلحوا عليه المدغم من المتماثلين.

الثانى: الحروف التى تدغم فى مجانسها و مقاربها، و اصطلحوا عليه المدغم من المتجانسين و المتقاربين.

و النوع الأول يضم سبعة عشر حرفا، و الثانى يضم ستة عشر حرفا، و سنورد اسم الحرف مع تنظيره القرآنى.

أولا: الادغام بين المتماثلين:

۱- الباء: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِ «۱».

۲- التاء: و تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ (۱۶) «۲».

و أما إذا كانت التاء: تاء ضمير فلا تدغم كقوله تعالى: يا لَيْتَنِى كُنْتُ تُراباً «۳».

۳- الثاء: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ «۴».

و من أبرز مصاديقه وضوحا قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) «۵» ۴- الحاء: تدغم فى مثلها فى نماذج كثيرة من القرآن كنحو قوله

---

(۱) البقرة: ۲۱۳.

(۲) البقرة: ۱۶.

(۳) النبأ: ۴۰.

(۴) النساء: ۹۱.

(۵) المائدة: ۷۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۱

تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (۶۰) «۱».

۵- الراء: و تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «۲».

۶- السين: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ «۳».

۷- العين: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ «۴».

۸- الغين: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (۸۵) «۵».

۹- الفاء: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (۱) «۶».

۱۰- القاف: و تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا «۷» ۱۱- الكاف: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (۴۱) «۸».

۱۲- اللام: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ «۹».

۱۳- الميم: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى «۱۰».

---

(۱) الكهف: ۶۰.

(۲) البقرة: ۱۸۵.

(۳) الحج: ۲.

(۴) البقرة: ۲۵۵.

(۵) آل عمران: ۸۵.

(۶) الفيل: ۱.

(۷) الأعراف: ۳۲.

(۸) آل عمران: ۴۱.

(۹) الجمعة: ۲.

(۱۰) البقرة: ۱۲۵.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۲

۱۴- النون: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

وَ اللَّاتِى تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضاجِعِ «۱».

۱۵- الواو: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (۱۹۹) «۲».

۱۶- الهاء: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى:

ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲) «۳».

۱۷- الياء: تدغم فى مثلها فى نحو قوله تعالى: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) «۴».

و قد لاحظنا أن للادغام عدة شروط يصح معها:

۱- إسكان الأول المتحرك قبل إدغامه و تحرك الثانى.

۲- أن يلتقى المثلان فى الرسم فلا يفصل بينهما حرف.

۳- أن يكون المثلان مركبين من كلمتين، فإن التقيا من كلمة واحدة فلا إدغام إلا فى حرفين (مناسككم) فى البقرة، و (سلككم) فى المدثر.

و عندى أنهما مركبان من كلمتين، فالمناسك كلمة، و الضمير لجمع المخاطب كلمة أخرى، و سلك كلمة، و الضمير لجمع المخاطب كلمة أخرى، فجرى القياس على أصوله، فهما من الأصل دون الاستثناء المشار إليه.

۴- أن لا يكون الأول تاء ضمير المتكلم أو خطابا، فلا يدغم حينئذ كقوله تعالى: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ «۵».

---

(۱) النساء: ۳۴.

(۲) الأعراف: ۱۹۹.

(۳) البقرة: ۲.

(۴) هود: ۶۶.

(۵) يونس: ۴۲.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۳

۵- أن لا يكون الأول مشددا، فلا يدغم فى نحو قوله تعالى: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) «۱».

۶- أن لا يكون الأول مشددا فلا يدغم فى نحو قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «۲».

ثانيا: الادغام فى المتجانسين و المتقاربين و له شروط:

أ- أن لا يكون الحرف الأول مشددا كقوله: أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً «۳».

ب- أن لا يكون منونا كقوله تعالى: فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ «۴».

ج- أن لا يكون تاء ضمير كقوله تعالى: خَلَقْتَ طِيناً «۵».

و قد ظهر من الاستقراء القرآنى أن هذا الادغام وارد فى ستة عشر حرفا، و هى من ضم بعضها إلى بعض، تمثل الحالات التفصيلية الآتية:

۱- الباء: و تدغم فى الميم كقوله تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ «۶».

۲- التاء: و تدغم فى عشرة أحرف سواها هى:

أولا: التاء فى الثاء فى نحو قوله تعالى: وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ «۷».

ثانيا: التاء فى الجيم كقوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَ

---

(۱) القمر: ۴۸.

(۲) وردت لأول مرة فى المصحف بسورة البقرة: ۱۷۳.

(۳) البقرة: ۲۰۰.

(۴) الزمر: ۶.

(۵) الإسراء: ۶۱.

(۶) العنكبوت: ۲۱.

(۷) المائدة: ۳۲.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۴

اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۹۳) «۱».

ثالثا: التاء فى الذال كقوله تعالى: فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (۳) «۲».

رابعا: التاء فى الزاى كقوله تعالى: فَالزَّاجِراتِ زَجْراً «۳».

خامسا: التاء فى السين كقوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ «۴».

سادسا: التاء فى الشين كقوله تعالى: لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَداءَ (۱۳) «۵».

سابعا: التاء فى الصاد كقوله تعالى: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (۱) «۶».

ثامنا: التاء فى الضاد كقوله تعالى: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (۱) «۷».

تاسعا: التاء فى الطاء فى نحو قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲) «۸».

عاشرا: التاء فى الظاء: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ (۲۸) «۹».

۳- التاء: و تدغم فى خمسة أحرف سواها هى:

أولا: الثاء فى التاء كقوله تعالى: أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (۵۹) «۱۰».

ثانيا: الثاء فى الذال كقوله تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (۱۴) «۱۱».

ثالثا: الثاء فى السين كقوله تعالى: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ «۱۲».

---

(۱) المائدة: ۹۳.

(۲) الصافات: ۳.

(۳) الصافات: ۲.

(۴) النساء: ۱۲۲.

(۵) النور: ۱۳.

(۶) الصافات: ۱.

(۷) العاديات: ۱.

(۸) النحل: ۳۲.

(۹) النحل: ۲۸.

(۱۰) النجم: ۵۹.

(۱۱) آل عمران: ۱۴.

(۱۲) النمل: ۱۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۵

رابعا: الثاء فى الشين كقوله تعالى: انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (۳۰) «۱».

خامسا: الثاء فى الضاد كقوله تعالى: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (۲۴) «۲».

۴- الجيم و تدغم فى حرفين متقاربين هما:

أولا- الجيم فى التاء فى نحو قوله تعالى: مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (۳) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ

(۴) «۳».

ثانيا: الجيم فى الشين فى نحو قوله تعالى: كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ «۴».

۵- الحاء و تدغم فى موضع واحد و هو قوله تعالى: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ «۵».

۶- الدال، و تدغم الدال ما لم تفتح بعد ساكن فى عشرة أحرف إلا مع التاء فينتفى الشرط للتجانس، و هى:

أولا: الدال فى التاء فى نحو قوله تعالى: تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ «۶».

ثانيا: الدال فى الثاء فى نحو قوله تعالى: مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۱۳) «۷».

ثالثا: الدال فى الجيم فى نحو قوله تعالى: وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ «۸».

رابعا: الدال فى الذال فى نحو قوله تعالى: فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ «۹».

خامسا: الدال فى الزاى فى نحو قوله تعالى: تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا «۱۰».

---

(۱) المرسلات: ۳۰.

(۲) الذاريات: ۲۴.

(۳) المعارج: ۳- ۴.

(۴) الفتح: ۳۹.

(۵) آل عمران: ۱۸۵.

(۶) الملك: ۸.

(۷) النساء: ۱۳۴.

(۸) البقرة: ۲۵۱.

(۹) المائدة: ۹۴.

(۱۰) الكهف: ۲۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۶

سادسا: الدال فى السين فى نحو قوله تعالى: إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ «۱».

سابعا: الدال فى الشين فى نحو قوله تعالى: قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۶) «۲».

ثامنا: الدال فى الصاد فى نحو قوله تعالى: فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (۵۵) «۳».

تاسعا: الدال فى الضاد فى نحو قوله تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ «۴».

عاشرا: الدال فى الظاء فى نحو قوله تعالى: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ «۵».

۷- و تدغم الذال فى حرفين هما السين و الصاد:

أولا: الذال فى السين فى نحو قوله تعالى: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً «۶».

ثانيا: الذال فى الصاد فى نحو قوله تعالى: مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً «۷».

۸- و تدغم الراء فى اللام ما لم تفتح بعد ساكن فى نحو قوله تعالى: أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (۲۶۶) «۸».

(۱) طه: ۶۹.

(۲) يوسف: ۲۶.

(۳) القمر: ۵۵.

(۴) فصلت: ۵۰.

(۵) المؤمن- غافر: ۳۱.

(۶) الكهف: ۶۱.

(۷) الجن: ۳.

(۸) البقرة: ۲۶۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۷

۹- و تدغم السين فى حرفين هما: الزاى و السين:

أولا: السين فى الزاى فى نحو قوله تعالى: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) «۱».

ثانيا: السين فى الشين فى نحو قوله تعالى: وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً «۲».

۱۰- و تدغم الشين فى السين فى نحو قوله تعالى: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا (۴۲) «۳».

۱۱- و تدغم الضاد فى الشين فى نحو قوله تعالى: فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۲) «۴».

۱۲- و تدغم القاف فى الكاف على أن يتحرك ما قبل القاف فى نحو قوله تعالى: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا- إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (۱۰۲) «۵».

۱۳- و تدغم الكاف فى القاف إذا تحرك ما قبل الكاف فى نحو قوله تعالى: قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۴۴) «۶».

۱۴- و تدغم اللام فى الراء إذا تحرك ما قبلها فى نحو قوله تعالى:

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۸۱) «۷».

- إلا لام قال فإنها تدغم حيث وقعت قبل الراء كقوله تعالى: قالَ

(۱) التكوير: ۷.

(۲) مريم: ۴.

(۳) الإسراء: ۴۲.

(۴) النور: ۶۲.

(۵) الأنعام: ۱۰۲.

(۶) البقرة: ۱۴۴.

(۷) هود: ۸۱.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۸

رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ هَبْ لِى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۳۵) «۱».

۱۵- و تدغم الميم فى الباء، و الأصح صناعة أنها تخفى بالباء لأنها تسكن عند الباء إذا تحرك ما قبلها فتخفى بغنة، لأن الميم لا تلغى الباء و لا تحل محلها فتعود مشددة، بل تبقى الميم فى غنة أنفية، و هذا هو الاخفاء كما فى قوله تعالى: لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً «۲».

۱۶- و تدغم النون فى حرفين هما الراء و اللام على أن يتحرك ما قبل النون:

أولا: النون فى الراء فى نحو قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى «۳».

ثانيا: النون فى اللام فى نحو قوله تعالى: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (۹۰) «۴».

و قد ظهر مما تقدم رصد النتائج الصوتية التالية:

۱- إن الحروف التى تدغم فى أمثالها، و عددها سبعة عشر حرفا، هى: ب. ت. ث. ح. ر. س. ع. غ. ف. ق. ك. ل. م. ن. و. ى. ه.

۲- إن الحروف التى تدغم فى المتجانسين و المتقاربين دون المتماثلين- و عددها ستة عشر حرفا- هى: ب. ت. ث. ج. ح. د. ذ. ر. س. ش. ض. ق. ك. ل. م. ن.

۳- إن الحروف التى تدغم و يدعم فيها- و عددها ثمانية عشر حرفا- هى: ب. ت. ث. ج. د. ذ. ر. س. ش. ف. ص. ض. ظ. ط. ك. ل. م. ن.

و قد خلص لنا مما تقدم بيانه فى الادغام رصد الضوابط و القواعد الصوتية الآتية:

۱- إن كل حرفين التقيا أولهما ساكن، و هما متماثلان أو متجانسان

---

(۱) ص: ۳۵.

(۲) النحل: ۷۰.

(۳) الإسراء: ۱۰۰.

(۴) الإسراء: ۹۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۲۹

فيجب فيهما إدغام الأول عند علماء القراءة:

أ- فى المتماثلين كقوله تعالى: فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ (۱۶) «۱».

ب- فى المتجانسين كقوله تعالى: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ «۲».

۲- إن الطاء إذا جاورت التاء أدغم الطاء وجوبا مع بقاء الأطباق كقوله تعالى: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ «۳».

۳- إن الاخفاء قد يختلط بالادغام فى حالة واحدة منظورة فى اللسان العربى، و الحالة هى: إخفاء الميم بالباء، فيعده بعضهم فى الادغام، و يعده بعضهم فى الاخفاء، و هو الصحيح فيما يبدو لى، لأن الميم غير متلاشية فى نحو قوله تعالى: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ «۴».

فإن سكن ما قبلها أظهرت دون إخفاء أو إدغام، كما فى قوله تعالى:

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى «۵».

هذا فى الإدغام الكبير.

أما الإدغام الصغير فالجائز منه:

۱- إدغام حرف من كلمة فى حروف متعددة من كلمات متفرقة و تقتصر عند القراء على ما يأتى:

إذ/ قد/ تاء التأنيث/ هل/ بل.

۲- إدغام حروف قربت مخارجها، و هى سبعة عشر حرفا اختلف فيها عند القراء، و قد استوعبها السيوطى فى بحثه عنها «۶».

و الحق أن الادغام الصغير لا يعنينا صوتيا، لأن فك الادغام فيه أو عنه يعنى تكرار الحرف ليس غير، و لا يفك إدغامه فى السياق الجملى بل

---

(۱) البقرة: ۱۶.

(۲) آل عمران: ۱۲۲.

(۳) المائدة: ۲۸.

(۴) الأنعام: ۵۳.

(۵) العنكبوت: ۳۱.

(۶) ظ: السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن: ۱/ ۲۶۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳۰

عند تصريف الكلمة أو عند بيان صيغتها التفعيلية و هذا ما لا يحدث عند النطق فى العبارة، فيبقى الحرف فى الواقع صوتا واحدا و إن كان مشددا كما فى قد. هل. بل من الأدوات، و قل. سل. عد. من الأفعال. لهذه الأسباب العلمية استبعدنا الخوض عن الادغام الصغير فى هذا البحث.

نعم ألحق القراء فى هذا المبحث أحكام النون الساكنة و التنوين من وجه لأن لهما أربعة أحكام هى:

الإظهار. الإدغام. الإقلاب. و الإخفاء.

و لما كانت هذه الأحكام الأربعة تتحكم فى إخراج الصوت و حدوثه ضمن حيثيته المؤشرة، فحسن منا التنبيه عليها، و الإشارة إليها فى حدود الصوت اللغوى دون التفصيلات الأخرى.

فالاظهار عند ستة أحرف، و هى حروف الحلق:

الهمزة، الهاء، العين، الحاء الغين الخاء.

و بعضهم يخفى عند الخاء و الغين.

و الإدغام عند ستة أحرف، حرفان بلا غنّة، و هما اللام و الراء، و أربعة بغنة، و هى: النون، و الميم، و الياء، و الواو. و الإقلاب عند حرف واحد، و هو الباء بقلب النون ميما فى نحو قوله تعالى: قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ (۳۳) «۱». و يقلب التنوين ميما فى نحو قوله تعالى: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (۱۸) «۲». و الاخفاء يكون عند بقية حروف المعجم العربى، و هو حالة بين الادغام و الاظهار، و لا بد من الغنة معه «۳».

و فى هذا الضوء فإن النون الساكنة تخفى فى خمسة عشر موضعا عند خمسة عشر حرفا من القرآن الكريم، فلا تدغم نهائيا، و لا تظهر بجوهرها، و إنما هى حالة بين حالتين، و منزلة بين منزلتين، كما فى الكشف الآتى، لنماذج من الآيات القرآنية بحسب الأصوات.

---

(۱) البقرة: ۳۳.

(۲) البقرة: ۱۸.

(۳) ظ: السیوطی، الاتقان فی علوم القرآن: ۱/ ۲۷۰.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۳۱

۱- التاء، و تخفی النون عندها فی قوله تعالی: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «۱».

۲- الثاء، و تخفی النون عندها فی نحو قوله تعالی: کُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً (۲۵) «۲».

۳- الجیم ... فی نحو قوله تعالی: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَیْکُمُ اللَّیْلَ سَرْمَداً «۳».

۴- الدال ... فی نحو قوله تعالی: أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (۹۱) «۴».

۵- الذال ... فی نحو قوله تعالی: وَ سَواءٌ عَلَیْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ «۵».

۶- الزای ... فی نحو قوله تعالی: ما لَکُمْ مِنْ زَوالٍ «۶».

۷- السین فی نحو قوله تعالی: لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ یَوْمَ الْقِیامَةِ (۴۷) «۷».

۸- الشین فی نحو قوله تعالی: إِنَّ هذِهِ تَذْکِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلی رَبِّهِ سَبِیلًا (۱۹) «۸».

۹- الصاد فی نحو قوله تعالی: وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ (۲) «۹».

۱۰- الضاد فی نحو قوله تعالی: وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها «۱۰».

۱۱- الطاء فی نحو قوله تعالی: هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ ثُمَّ قَضی أَجَلًا «۱۱».

۱۲- الظاء فی نحو قوله تعالی: وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِیرٍ «۱۲».

---

(۱) آل عمران: ۱۱۰.

(۲) البقرة: ۲۵.

(۳) القصص: ۷۱.

(۴) مریم: ۹۱.

(۵) یس: ۱۰.

(۶) إبراهیم: ۴۴.

(۷) الزمر: ۴۷.

(۸) الإنسان: ۲۹.

(۹) المائدة: ۲.

(۱۰) یونس: ۱۰۸.

(۱۱) الأنعام: ۲.

(۱۲) سبأ: ۲۲.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۳۲

۱۳- الفاء فی نحو قوله تعالی: ثُمَّ قَضی أَجَلًا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ «۱» ۱۴- القاف فی نحو قوله تعالی: مِنْ ظَهِیرٍ مِنْ قَرارٍ «۲».

۱۵- الکاف فی نحو قوله تعالی: وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ کِتابٍ «۳».

و التنوین کذلک فإنه یخفی فی خمسة عشر موضعا عند خمسة عشر حرفا من القرآن، و هی الحروف المتقدمة نفسها:

۱- التاء، و یخفی التنوین عندها فی نحو قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ (۱۱) «۴».

۲- الثاء، فی نحو قوله تعالی: من فضله علیک قَوْلًا ثَقِیلًا (۵) «۵».

۳- الجيم، فى نحو قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا (۴۹) «۶».

۴- الدال، فى نحو قوله تعالى: عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (۳۱) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (۳۲) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (۳۳) وَ كَأْساً دِهاقاً (۳۴) «۷».

۵- الذال، فى نحو قوله تعالى: أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (۲) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا (۳) «۸».

۶- الزاى، فى نحو قوله تعالى: قَضى أَجَلًا «۹».

۷- السين، فى نحو قوله تعالى: ضرب الله الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ (۲۹) «۱۰».

---

(۱) النساء: ۳۷.

(۲) إبراهيم: ۲۶.

(۳) الشورى: ۱۵.

(۴) البروج: ۱۱.

(۵) المزمل: ۵.

(۶) الإسراء: ۴۹.

(۷) النبأ: ۳۱- ۳۴.

(۸) الإسراء: ۲- ۳.

(۹) الكهف: ۴۰.

(۱۰) الزمر: ۲۹.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳۳

۸- الشين، فى نحو قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ «۱».

۹- الصاد، فى نحو قوله تعالى: كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳) «۲».

۱۰- الضاد، فى نحو قوله تعالى: وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ «۳».

۱۱- الطاء، فى نحو قوله تعالى: فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً (۴۳) «۴».

۱۲- الظاء، فى نحو قوله تعالى: لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا «۵».

۱۳- الفاء، فى نحو قوله تعالى: و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزائه جهنم خلدا و غضب الله غليه و لعنه و اعد له عذابا عظيما «۶» ۱۴- القاف، فى نحو قوله تعالى: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ «۷».

۱۵- الكاف، فى نحو قوله تعالى: إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) «۸».

و هكذا نجد الإخفاء متحكما فى النون الساكنة و التنوين.

توظيف الأداء القرآنى فى الأحكام:

اشارة

كان أداء القرآن على الوجه العربى الصحيح، و فى ضوء أصول التلاوة المعتبرة موضوعا للأحكام الشرعية المتعلقة باعتبار قراء الفاتحة- مثلا- فرضا واجبا فى كل صلاة سواء أ كانت فريضة أم نافلة، و ذلك فى الأوليتين من الركعات، و يجب فى خصوص الفريضة قراءة سورة كاملة- على الأحوط- بعدها.

كان هـذا الاعتبار الشـرعى منطلقا للأحكام الدقيقـة الصادرة من الفقهاء بوجوب القراءة الصـحيحة فيما يتلى من القرآن فى الصـلاة، و ذلك بأداء الحروف و إخراجها من مخارجها على النحو اللازم فى لغة العرب، بأن

---

(۱) الشورى: ۲۳.

(۲) المرسلات: ۳۳.

(۳) الفرقان: ۳۹.

(۴) النساء: ۴۳+ المائدة: ۶.

(۵) النساء: ۵۷.

(۶) النساء: ۹۳.

(۷) الصف: ۱۳.

(۸) النمل: ۲۹.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳۴

و المـد الواجب، و أمثال هذا، فإن أخلّ بشـىء من ذلك بطلت القراءة. حتى أن من لا يحسن القراءة بأصولها وجب عليه تعلمها، و إن كان متمكنا من الائتمام، و قيل: لا وجه لوجوبه مع التمكن من الصلاة الصحيحة بالائتمام.

هـذه العنايـة فى أمر القراءة مؤداة على الوجه العربى الأمثل كـانت مناطا لأحكام أدائيـة موضوعـة للوجوب و عـدمه تارة، و للاحتياط الشرعى بشقيه الوجوبى و الاستحبابى تارة، و للجواز و عدمه تارة أخرى.

و كانت هـذه الملاحظ الدقيقـة مظنـة لإبـداء الحكم الشـرعى بتلك الصور المختلفـة، و ميـدانا جديـدا للفقهاء فى رصد حياة الصوت اللغوى فى مهمة الفرائض الدينية.

إن متابعة هذا الموضوع من أدلته التفصـيلية فى الشـريعة الإسـلامية، قد يخرج البحث من موضوعيته، و أحاول- قدر المستطاع- إعطاء أبرز الأحكـام الشـرعية المتعلقـة بهـذا الأمر- فيما يأتى- بمضـمونها الفتوائى دون أدلتها التفصـيلية، و ذلك من خلال الرجوع لأمهات المصادر فى الموضوع، و التوفيق بينها عند أغلبية المذاهب «۱».

أولا:

فى الملحظ الصوتى للكلمة الواحدة فى القراءة القرآنية عند الصلاة تتبلور الأحكام الصوتية الآتية:

۱- تجب الموالاة بين حروف الكلمـة بالمقـدار الـذى يتوقف عليه صـدق الكلمة، فإذا فاتت الموالاة- سـهوا- بطلت الكلمة، و إذا كان ذلك عمدا بطلت الصلاة. و ذلك حتى فى (أل) التعريف، إذ تجب الموالاة بينها و بين مدخولها ممّا يعد جزء الكلمة عند العرب.

---

(۱) ظ: العروة الوثقى مسـتمسك العروة الوثقى مهـذب الأحكـام كتاب الأم للشافعى، باب القراءة: ۱/ ۱۰۷+ كتاب المحلى لابن حزم كتاب الصلاة المجلد الثالث. و قارن بين آراء الفقهاء فيما سبق.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳۵

۲- فى حالة حصول فصل بين حروف كلمة واحدة اختيارا أو اضطرارا بحيث خرجت عن صدق تلك الكلمة عليها بطلت، و مع العمد أبطلت هذا إذا كان من الأول قاصدا لذلك.

۳- إذا أعرب آخر الكلمـة بقصد الوصل بما بعده فانقطع نفسه، فحصل الوقف بالحركة، فالأحوط إعادتها، و إن لم يكن الفصل كثيرا

اکتفی بها.

۴- إذا شک فی حرکة کلمة أو مخرج حروفها لا- یجوز أن یقرأ بالوجهین: فیما إذا لم یصدق علی الآخر أنه ذکر و لو غلطا، و لو اختار أحد الوجهین جازت القراءة علیه، فإذا انکشف أنه مطابق للواقع لم یعد الصلاة، و إلا أعادها.

۵- إذا اعتقد کون الکلمة علی وجه خاص من الأعراب، أو البناء، ۵- إذا اعتقد کون الکلمة علی وجه خاص من الاعراب، أو البناء، أو مخرج الحرف، فعلی مده علی ذلک الوجه، ثم تبین أنه غلط، فالظاهر الصحة، و الأحوط الاعادة أو القضاء، و إن کان الأقوی عدم الوجوب.

۶- إذا لم یدر إعراب الکلمة، أو بناءها، أو بعض حروفها، أنه الصاد- مثلا- أو السین، أو نحو ذلک، یجب علیه أن یتعلم، و لا یجوز له أن یکررها بالوجهین لأن الغلط من الوجهین ملحق بکلام الآدمیین، و فی إطلاقه منع ظاهر.

۷- یجب أن یعلم حرکة آخر الکلمة إذا أراد أن یقرأها بالوصل بما بعدها، مثلا إذا أراد أن لا یقف علی (العالمین) و یصلها بقوله (الرحمن الرحیم) یجب أن یعلم أن النون مفتوح و هکذا، نعم إذا کان یقف علی کل آیة لا یجب علیه أن یعلم حرکة آخر الکلمة.

ثانیا:

و فی الملحظ الصوتی عند کون الکلمتین أو الأکثر بنفس واحد دون فصل أو وقوف تتبین الأحکام الصوتیة الآتیة فی القراءة القرآنیة عند الصلاة.

۱- تجب الموالاة بین الجار و المجرور، و الأحوط الموالاة بین

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۳۶

المضاف و المضاف إلیه، و المبتدأ و خبره، و الفعل و فاعله، و الشرط و جزائه، و الموصوف و صفته، و المجرور و متعلقه. و نحو ذلک مما له هیئة خاصة علی نحو لا- یجوز الفصل فیه بالأجنبی، فإذا فاتت سهوا أعاد القراءة. و إذا فاتت عمدا، فالأحوط وجوبا الإتمام و الاستئناف.

۲- إذا انقطع نفسه فی مثل (الصراط المستقیم) بعد الوصل بالألف و اللام و حذف الألف، هل یجب إعادة الألف و اللام بأن یقول (المستقیم) أو یکفی قول: مستقیم؟ الأحوط الأول، و أحوط منه إعادة الصراط أیضا، و کذا إذا صار مدخول الألف و اللام غلطا، فإذا أراد أن یعیده فالأحوط أن یعید الألف و اللام أیضا، بأن یقول المستقیم، و لا یکتفی بقوله: مستقیم، و کذا إذا لم یصح المضاف إلیه فالأحوط إعادة المضاف، فإذا لم یصح لفظ المغضوب فالأحوط أن یعید لفظ (غیر) أیضا.

۳- ینبغی للمصلی أن یمیز بین الکلمات، و لا- یقرأ بحیث یتولد بین الکلمتین کلمة مهملة، کما إذا قرأ (الحمد للّه)، و وقف علی الحم، و لم یکملها بالدال، و خلط من لفظ الجلالة الحرفین الأولین فتولدت کلمة (دلل)، و هکذا فی (للّه رب) فتولدت کلمة (هرب)، أو بأخذ الکاف من (مالک) فیدمجها مع (یو) من (یوم) فتتولد کلمة (کیو) و هکذا فی بقیة الکلمات بالنسبة لفاتحة الکتاب، و هذا معنی قولهم: إن فی الحمد سبع کلمات مهملات و هی:

دلل، هرب، کیو، کنع، کنس، تع، بع.

ثالثا:

و فی إحکام مخرج الصوت و نطقه، فی الکلمات و الحروف و الحرکات، و الاعراب و البناء، و مظاهر الأداء تعتمد الأحکام الصوتیة الآتیة:

۱- لو أدخل بشیء من الکلمات أو الحروف أو بدل حرفا بحرف حتی الضاد بالظاء أو العکس بطلت القراءة، و کذا لو أخل بحرکة

بناء، أو إعراب، أو مدّ واجب، أو تشديد، أو سكون لازم، و كذا لو أخرج حرفا

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳۷

من غير مخرجه بحيث يخرج عن صدق ذلك الحرف فى عرف العرب، فالقراءة باطلة.

۲- لا يجب على المكلف أن يعرف مخارج الحروف على طبق ما ذكره علماء التجويد، بل يكفى إخراجها منها، و إن لم يلتفت إليها، بل لا يلزم إخراج الحرف من تلك المخارج بل المدار صدق التلفظ بذلك الحرف، و إن خرج من غير المخرج الذى عينوه. مثلا إذا نطق بالضاد أو الظاء على القاعدة لكن لا بما ذكروه من وجوب جعل طرف اللسان من الجانب الأيمن أو الأيسر على الأضراس العليا صح، فالمناط الصدق فى عرف العرب، و هكذا فى سائر الحروف.

۳- إذا شك فى حركة كلمة، أو مخرج حروفها، لا يجوز أن يقرأ بالوجهين، مع فرض العلم ببطلان أحدهما، بل مع الشك أيضا، لكن لو اختار أحد الوجهين مع البناء على إعادة الصلاة لو كان الوجه المختار باطلا فلا بأس بذلك.

رابعا:

و فى الالتزام بمعطيات علماء الأداء القرآنى، و أئمة النحو العربى، لإظهار أصول الأصوات الإحداث، تعتمد عند القراءة فى الصلاة الأحكام الآتية:

۱- يجب حذف همزة الوصل فى الدرج مثل همزة: اللّه، الرحمن، الرحيم، اهدنا، و نحو ذلك فى الفاتحة، فإذا أثبتها بطلت القراءة، و كذا يجب إثبات همزة القطع فى: إياك، أنعمت، فلو حذفها حين الوصل بطلت القراءة.

۲- الأحوط وجوبا عند الفقهاء، ترك الوقوف بالحركة، و الوصل بالسكون.

۳- المد الواجب هو فيما إذا كان بعد حروف المد- و هى الواو المضمون ما قبلها، و الياء المكسور ما قبلها، و الألف المفتوح ما قبلها، همزة مثل: جاء، و سوء، و جىء، أو كان بعد أحدها سكون لازم خصوصا

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۳۸

إذا كان مدغما فى حرف آخر مثل: الضالين.

و وجوب المد فى الموارد الثلاثة الأولى مبنى على الاحتياط.

۴- إذا مدّ فى مقام وجوب المد أو فى غيره، أزيد من المتعارف لا يبطل القراءة، إذا إذا خرجت الكلمة عن كونها تلك الكلمة.

۵- يكفى فى المد مقدار ألفين، و الظاهر كفاية أداء الحرف على الوجه الصحيح، و إن كان المد بأقل من ذلك، و أكمله إلى أربع ألفات، و لا يضرب الزائد ما لم يخرج الكلمة عن الصدق.

۶- لا يجب ما ذكر علماء التجويد من المحسنات: كالإمالة، و الإشباع، و التفخيم و الترقيق و نحو ذلك، بل و الإدغام إلا فيما سنذكره بعد هذا، و إن كانت متابعتهم أحسن.

خامسا:

و فى مراعاة أصول الادغام لا سيما الادغام الكبير، و اختلاس الأصوات و إبدالها، و قراءة القرآن بخصوصه، تعتمد الأحكام الآتية:

۱- فى ورود (أل التعريف) المركبة من الألف و اللام يجب إدغام اللام فى أربعة عشر صوتا هى:

التاء، الثاء، الدال، الذال، الراء، الزاى، السين، الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، اللام، النون، و اظهارها فى بقية حروف المعجم.

فتدغمها مثلا فى كل من: اللّه، الرحمن، الرحيم، الصراط، الضالين.

تظهيرها فى كل من: الحمد، العالمين، المستقيم، المغضوب.

۲- الادغام فی مثل: مـدّ و ردّ، مما اجتمع فی کلمـة واحـدة منه مثلان: واجب سواء أ کانا متحرکین کالفعلین المـذکورین، أو ساکنین کمصدرهما: مدا و ردّا.

۳- الأحوط الادغام إذا کان بعـد النون الساکنـة أو التنوین أحـد حروف یرملون، مع الغنـة فیما عـد اللام و الراء، و لا معها فیهما، لکن الأقوی عدم وجوبه، فهو حینئذ احتیاط استحبابی.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۳۹

۴- الأحوط الادغام فی مثل (اذهب بکتابی) و (یـدرککم) مما اجتمع المثلان منه فی کلمتین مع کون الأول ساکنا، لکن الأقوی عـدم وجوبه.

۵- ینبغی مراعـاة ما ذکره علماء الأداء القرآنی، من إظهار التنوین، و النون الساکنـة، إذا کان بعـدها أحـد حروف الحلق، و قلبهما فیما إذا کان بعـدهما حرف الباء، و إدغامهما إذا کان بعدهما أحد حروف (یرملون)، و إخفاؤهما إذا کان بعدهما بقیة الحروف، و لکن لا یجب شیء من ذلک.

۶- یجوز فی قوله تعالی: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ (۵) القراءة بإشباع کسر الهمزة و بلا إشباعه.

۷- الأحوط القراءة بإحدی القراءات السبع، و إن کان الأقوی عدم وجوبها، بل یکفی القراءة علی النهج العربی، و إن کان الواجب هو قراءة القرآن کمـا نزل، لا ما تصـدق علیه القراءة العربیـة، و إن کان الأقوی جواز القراءة بجمیع القراءات التی کانت متداولـة فی زمان الأئمة علیه السلام، نعم الظاهر جواز الاکتفاء بکل قراءة متعارفة عند الناس و لو کانت من غیر القراءات السبع.

و هناک مستحبان شرعیان نختتم بهما هذا المبحث:

الأول: یستحب تحسین الصوت بلا غناء فی القراءة.

الثانی: یستحب الوقف علی فواصل الآیات فی القراءة.

و أخیرا، فإن الدربة علی أصول الأصوات فی مثل هذه الأحکام، مما تسهل و تضبط و تیسر سلامة الأداء القرآنی صوتیا.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۴۱

الفصل الخامس الصوت اللغوی فی فواصل الآیات القرآنیة

اشارة

۱- مصطلح الفاصلة فی القرآن ۲- معرفة فواصل القرآن صوتیا ۳- ظواهر الملحظ الصوتی فی فواصل الآیات ۴- الإیقاع الصوتی فی موسیقی الفواصل

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۴۳

مصطلح الفاصلة فی القرآن:

الفاصـلة فی القرآن الکریم: آخر کلمـة فی الآیـة، کالقافیة فی الشـعر، و قرینة السـجع فی النشـر، خلافا لأبی عمرو الدانی (ت: ۴۴۴ ه) الذی اعتبرها کلمة آخر الجملة «۱». إذ قد تشتمل الآیة الواحدة علی عدة جمل، و لیست کلمة آخر الجملة فاصلة لها، بل الفاصلة آخر کلمة فی الآیة، لیعرف بعدها بدء الآیة الجدیدة بتمام الآیة السابقة لها.

قال القاضی أبو بکر الباقلانی (ت: ۴۰۳ ه): «الفواصل حروف متشاکلة فی المقاطع، یقع بها إفهام المعانی» «۲».

و تقع الفاصـلة عنـد الاستراحـة بالخطاب لتحسـین الکلام بها، و هی الطریقـة التی یباین القرآن بها سائر الکلام، و تسـمّی فواصل، لأنه

ینفصل عندها الکلامان، و ذلک أن آخر الآیة فصل بینها و بین ما بعدها.

و قد تکون هذه التسمیة اقتباسا من قوله تعالی: کِتابٌ فُصِّلَتْ آیاتُهُ «۳». و لا یجوز تسمیتها قوافی إجماعا، لأن اللّه لما سلب عن القرآن اسم الشعر وجب سلب القافیة عنه أیضا لأنها منه، و خاصة فی الاصطلاح «۴».

---

(۱) ظ: الزرکشی، البرهان فی علوم القرآن: ۱/ ۵۳.

(۲) المصدر نفسه: ۱/ ۵۴.

(۳) هود: ۱.

(۴) ظ: السیوطی، الاتقان فی علوم القرآن: ۳/ ۲۹۲.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۴۴

و ما ورد فی القرآن متناسق حروف الروی و الایقاع، موحد خاتمة الفاصلة بالصوت، و یقف فیه بالآیة علی الحرف الذی وقف عنده فی الآیة التی قبلها، فلا یسمی سجعا عند علماء الصناعة «و لو کان القرآن سجعا لکان غیر خارج عن أسالیب کلامهم، و لو کان داخلا فیها لم یقع بذلک إعجاز، و لو جاز أن یقال: هو سجع معجز، لجاز أن یقولوا: شعر معجز، و کیف و السجع مما کان تألفه الکهّان من العرب، و نفیه من القرآن أجدر بأن یکون حجة من نفی الشعر، لأن الکهانة تنافی النبوّات بخلاف الشعر» «۱».

إذن لم یسموها أسجاعا، و لم یصطلحوا علیها قوافی، إذ استبعدوا تسمیتها بالقوافی تکریما للقرآن بأن یقاس علی منظوم کلام البشر، و ستأتی معالجة هذا الرأی فیما بعد، و أما تجنب تسمیتها سجعا «فلأن أصله من سجع الطیر، فشرف القرآن أن یستعار لشیء فیه لفظ هو أصل فی صوت الطّائر، و لأجل تشریفه عن مشارکة غیره من الکلام الحادث فی اسم السجع الواقع فی کلام آحاد الناس» «۲».

و المدرک الأول یساعد علیه مقتضی تفسیر اللغة، و أصول إرجاع المصطلحات إلی قواعدها الأولی، قال ابن درید (ت: ۳۲۱ ه): «سجعت الحمامة معناه: رددت صوتها» «۳».

و المدرک الثانی یساعد علیه الاعتبار العام، و تبادر الذهن فی الفهم، فقد شاع السجع بین العرب فی الجاهلیة، و اقتسمه کل من الخطباء و الکهان و المتنبئین، و توازن استعماله متفرقا بین أصناف من الناس.

یبدو مما سلف أن مما تواضع علیه جهابذة الفن، و أئمة علوم القرآن، یضاف إلیهما علماء اللغة، هو: أن نهایة بیت الشعر تسمی قافیة، و نهایة جملة النثر تسمی سجعا فی الأسجاع، و نهایة الآیة تسمی فاصلة.

و هذا التفریق الدقیق قائم علی أساس یجب أن نتخذه أصلا، و برنامج

---

(۱) السیوطی، الاتقان: ۳/ ۲۹۳.

(۲) الزرکشی، البرهان: ۱/ ۵۴.

(۳) السیوطی، الاتقان، ۳/ ۲۹۳.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۴۵

ینبغی القول به دون سواه، و هو أن الکلام العربی- مطلقا- علی ثلاثة أنواع:

قرآن، نثر، شعر، فلیس القرآن نثرا و إن استعمل جمیع أسالیب النثر عند العرب، و لیس القرآن شعرا و إن اشتمل علی جمیع بحور الشعر العربی حتی ما تدارکه الأخفش علی الخلیل فسمی متدارکا، و هو الخبب، بل هو قرآن و کفی إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِیمٌ (۷۷) فِی کِتابٍ مَکْنُونٍ (۷۸) «۱».

قال الجاحظ (ت: ۲۵۵ ه): «و قد سمی اللّه کتابه المنزل قرآنا، و هذا الاسم لم یکن حتی کان» «۲».

و إذا تم هـذا فهو كلام اللّه تعالى وحده، و أنى يقاس كلام البشـر بكلام اللّه، هو إذن مميز حتى فى التسـمية عن كلام العرب تشـريفا له، و اعتـدادا به، و إن وافق صور الكلاـم العربى، و جرى على سـننه فى جملـة من الأبعـاد، كمـا يقال عنـد البعض، أو كما يتوهم، بأن ختام فواصـله المتوافقة هى من السـجع، فالتحقيق يقتضـى الفصل بين الأمرين، لأن مجىء كثير من الآيات على صورة السجع لا توجب كونه هو، أو أنها منه «لأنه قد يكون الكلام على مقال السـجع و إن لم يكن سـجعا، لأن السجع من الكلام، يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السـجع، و ليس كذلك مما هو فى معنى السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعا للمعنى، و فرق بين أن يكون المعنى منتظما دون اللفـظ، و بين أن ينتظم الكلاـم فى نفسه بألفـاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه، و متى ارتبط المعنى بالسّـجع كان إفادة السّـجع كإفادة غيره و متى انتظم المعنى بنفسه دون السجع مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى» «۳».

و قـد رأينـا عنـد تعقب هـذه الظاهرة: أن التعبير المسـجوع فى القرآن لا تفرضه طبيعـة النسق القرآنى فحسب كما يخيل للكثيرين عند النظر فى مثل قوله تعالى: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (۱) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (۲) «۴». بدليل أنه

---

(۱) الواقعة ۷۷- ۷۸.

(۲) الجاحظ، الحيوان: ۱/ ۳۴۸.

(۳) الزركشى، البرهان: ۱/ ۵۶.

(۴) التكاثر: ۱- ۲.

ينتقل منه فورا إلى نسق آخر فى فاصـلة تقف عنـد النون دون التفات إلى الصـيغة الأولى الساربـة فى طريقها البيانى كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳) ثُمَّ كَلَّا سَـوْفَ تَعْلَمُونَ (۴) «۱». فـإذا جـاز للقرآن الانتقـال بها، جاز له الانتقال فيما قبلها كما هو ظاهر، بل أن هـذا اللفظ «المقابر» يفرض نفسه فرضـا بيانيـا قاطعا، دون حاجـة إلى النظر فى الفاصـلة معه، أو مع محسّـنات الفاصـلة، و ذلك أن هـذا الإنسان المتناسـى الطاغى المتكاثر بأمواله و لذاته، و شهواته، و مدخراته، و نسائه، و أولاده، و دوره، و قصوره، و خدمه، و حشمه، و إداراته، و شئونه، و سلطانه، و عنوانه، و هذا كله تكاثر قد يصحبه التفاخر، و التنابز، و التنافر، أقول: إن هذا مما يناسبه لفظ «المقابر» بلاغيا و لغويا، فالمقابر جمع مقبرة، و المقبرة الواحدة مرعبة هائلة، فإذا ضـممنا مقبرة مترامية الأطراف إلى مقبرة مثلها، و مقبرة أخرى، ازددنا إيحاشا و رعبا و فزعا، فإذا أصبحت مقابر عديـدة، تضاعف الرعب و الرهب، إذن هـذا التكاثر الشـهوانى فى كل شـىء، يوافقه- بدقـة متناهية- الجمع المليونى للقبور، لتصبح مقابر لا قبورا، و لو قيل فى غير القرآن بمساواة القبور للمقابر فى الدلالة لما سدّ هذا الشاغر الدلالى شىء آخر من الألفاظ، فهو لها فحسب «۲».

إذن ليست هذه الصـيغة البلاغية فى استعمال المقابر مجرد ملائمة صوتية للتكاثر، و قد يحسّ أهل هذه الصنعة و نحن معهم فيها، نسق الإيقاع، و انسجام النغم، و لكن ليس هذا كل شىء «۳».

و لا يعنى هذا التغافل عن مهمة الانسـجام الصوتى، و الواقع الموسيقى فى ترتيب الفواصل القرآنية، فهى مرادة فى حد ذاتها إيقاعيا، و لكن يضاف إليها غيرها من الأغراض الفنيـة، و التأكيـدات البيانيـة، مما هو مرغوب فيه عنـد علماء البلاغـة، فقوله تعالى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) «۴». فقد تقدم المفعول به فى الآيتين، و هو اليتيم فى الأولى،

---

(۱) التكاثر: ۳- ۴.

(۲) ظ: المؤلف، تطور البحث الدلالى: ۷۰ بتصرف.

(۳) ظ: بنت الشاطى، التفسير البيانى: ۱/ ۲۰۷ بتصرف.

(۴) الضحى: ۹- ۱۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۴۷

و السائل فى الثانية، و حقه التأخير فى صناعة الاعراب، و قد جاء ذلك مراعاة لنسق الفاصلة من جهة، و إلى الاختصاص من جهة أخرى، للعناية فى الأمر.

و لعل ابن الأثير (ت: ۶۳۷ ه) كان مصيبا جدا حينما أرجع ذلك إلى الاختصاص و نظم الكلام، و لم يقل بأحدهما «۱». بينما عاد بها إبراهيم أنيس إلى مراعاة موسيقى الفاصلة القرآنية إذ لا يصح للمفعول أن يسبق ركنى الاسناد فى الجملة المثبتة كما يزعم أصحاب البلاغة «۲».

و قد رده الدكتور أحمد مطلوب فى هذا الملحظ، لأن الهدف ليس القهر و النهر فى المقام الأول، و إنما الرجحة باليتيم و السائل، و لذلك تقدم المفعولان على فعليهما، و لو كان القصد غير ذلك لتأخرا و جاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته «۳».

و مهما يكن من أمر، فإن السجع عند العرب مهمة لفظية تأتى لتناسق أواخر الكلمات فى الفقرات و تلاؤمها، فيكون الإتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظى، و أما مهمة الفاصلة القرآنية فليس كذلك، بل هى مهمة لفظية معنوية بوقت واحد، إنها مهمة فنية خالصة، فلا تفريط فى الألفاظ على سبيل المعانى، و لا اشتطاط بالمعانى من أجل الألفاظ، بينما يكون السجع فى البيان التقليدى مهمة تنحصر بالألفاظ غالبا، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة فى القرآن بلاغيا و دلاليا عن مستوى السجع فنيا، و إن وافقه صوتيا.

و هنا نشير إلى أن ابن سنان الخفاجى (ت ۴۶۶ ه) قد ردّ جزءا من هذه المفاضلة بين السجع و الفاصلة، و خلص إلى سبب التسمية فى معرض نقاشه لعلى بن عيسى الرمانى، «و أما قول الرمانى إن السجع عيب، و الفواصل على الإطلاق بلاغة فغلط، فإنه إن أراد بالسجع ما يتبع المعنى، و كأنه غير مقصود فذلك بلاغة، و الفواصل مثله، و إن كان يريد بالسجع ما

---

(۱) ظ: ابن الأثير، المثل السائر: ۲/ ۳۹.

(۲) ظ: إبراهيم أنيس، من أسرار العربية: ۳۱۲.

(۳) ظ: أحمد مطلوب، بحوث لغوية: ۵۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۴۸

تقع المعانى تابعة له، و هو مقصود متكلف، فذلك عيب، و الفواصل مثله ... و أظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصل، و لم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعا رغبتهم فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة و غيرهم، و هذا غرض فى التسمية قريب» «۱».

و يلحظ من النص، أنه يعيب ما ينافى البلاغة سواء أ كان سجعا أم سواه، و يشير إلى ناحيتين:

الأولى: أن الفواصل هى كل ما فى أواخر الآيات تماثلت حروفه أو لم تتماثل خلافا للسجع المتماثل الحروف.

الثانية: أن اختصاص أواخر الآيات بتسمية الفواصل إنما وقع لرغبتهم أن لا يوصف كلام اللّه تعالى بالكلام المروى عن الكهنة لا مطلق السجع.

معرفة فواصل القرآن صوتيا:

من أجل تمييز الفاصلة، و معرفتها صوتيا، علينا تتبع فواصل الآيات بالدقة و الضبط، فى تنقلها فى القرآن عبر مسيرتها الإيقاعية.

قال إبراهيم بن عمر الجعبرى (ت: ۷۳۲ ه):

«المعرفة الفواصل طريقان: توقيفى و قياسى. أما التوقيفى: فما ثبت أنه صلى اللّه عليه و آله و سلم وقف عليه دائما، تحققنا أنه فاصلة، و

ما وصله دائما، تحققنا أنه ليس بفاصلة ...

و أما القياسی فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب، و لا محذور فی ذلک، لأنه لا زيادة فيه و لا نقصان، و الوقف علی کل کلمة جائز، و وصل القرآن کله جائز، فاحتاج القياس إلی طريق تعرّفه، فنقول: فاصلة الآية کقرينة السجعة فی النثر، و قافية البيت فی

---

(۱) ابن سنان، سر الفصاحة: ۱۶۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۴۹

الشعر، و ما يذکر من عيوب القافية من اختلاف الحد و الإشباع و التوجيه فليس بعيب فی الفاصلة، و جاز الانتقال فی الفاصلة، و القرينة، و قافية الأرجوزة بخلاف قافية القصيدة» «۱».

و من هنا کان التنقل فی فواصل القرآن، إذ لا يلتزم فيها الوقوف عند حرف معين فی مواضع من السور، و يلتزمه فی مواضع أخر، و يجمع بين الالتزام و عدمه فی بعض السور، لأن الانتقال من الوقوف علی حرف إلی الوقوف علی حرف آخر، أو صيغة تعبيرية أخری فی فواصل القرآن، أمر مطرد و شائع، و نماذجه هائلة، کما أن الالتزام شائع أيضا، و الجمع بينهما وارد کذلک، و من هنا تبرز ثلاثة ملامح علی سبيل المثال:

الأول: جمع القرآن بين «تحشرون» و «العقاب»، و هما مختلفان فی حرف الفاصلة و الزنة فی قوله تعالی:

وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۵) «۲».

و فی السورة نفسها جمع بين «تعلمون» و «عظيم» «۳». و هذا مطرد فی القرآن بآلاف الأمثلة.

الثانی: الوقوف عند حرف معين لا يتغير فی الفاصلة کما فی سور عدّة، و نماذج متعددة، فمن أمثلته عادة جملة من السور القصار، کالقدر، و العصر، و الفيل، و الليل، و الکوثر، و الاخلاص، و الناس، و جملة من السور الوسطی کالأعلی و القمر، و فيها جميعا مراعاة للمنهج الصوتی، و البعد الايقاعی، و يتجلی النغم الصوتی المتميز بأبهی صوره، و اورع مظاهره فی سورة القمر، إذ تختتم فيها الفاصلة بصوت الراء مرددا بين طرف اللسان و أول اللهاة مما يلی الأسنان.

---

(۱) السيوطی، الاتقان: ۳/ ۲۹۱.

(۲) الأنفال: ۲۴- ۲۵.

(۳) ظ: الأنفال: ۲۷- ۲۸.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۵۰

الثالث: الوقوف عند حرف معين للفاصلة فی بعض السور، و الانتقال منه للوقوف عند حرف آخر للفاصلة فی بعضها الآخر، و أمثلته متوافرة فی جملة من سور القرآن، کالنبإ، و المرسلات، و النازعات، و التکوير، و الانفطار، و المطففين، و انظر إلی قوله تعالی فی سورة «عبس» و هی تواکب صوت الهاء فی فواصل عدة آيات، ثم تنتقل إلی الراء الملحقة بالتاء القصيرة بعدها فی آيات آخر:

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (۴۱) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲) «۱».

و قد لا يراد الملحظ الصوتی مجردا عند الابعاد الأخری فی فواصل الآيات، فقد يجتمع فی الفاصلة الغرض الفنی بجنب الغرض الدينی، فتؤدی الفاصلة غرضين فی عمل مزدوج، فمن أبرز الصور الاجتماعية الهادفة فی سورة البلد: آيات العقبة، و تفصيلات يوم

القیامـة، فی تجاوز مظاهر الغل و القید، و مراحل الفقر و الجوع لیتم تجاوز العقبة الحقیقیة فی القیامة، و لا یتم ذلک إلا بتجاوز عقبات الظلم الاجتماعی، و تخطی مخلفات العهـد الجاهلی، و اقتحام القیم التی عطلت الحیاة الإنسانیـة عن مسیرتها فی التحرر و الانطلاق، و هی قیم قاتلـة، و أعراف بالیـة نشـأت عن الطغیان المتسـلط، و التفاوت الطبقی المقیت، فالرقّ ضارب بأطنابه، و الاستئثار شـکل مجاعة بشـریة جماعیـة، و القطیعـة فی الأرحام أنهکت الأیتام، و الغنی اللامشـروع فجّر سـیلا من الأوضار الاجتماعیـة تشـکل رعیلا سادرا من الأرامـل و الأیـامی و المسـاکین، ممن ألصـقهم الفقر بالتراب، أو لصـقوا هم به من الفقر و الضـرر و الفاقـة، فأحال ألوانهم کلونه، فهم یلتحفون الـتراب و یفـترشونه، و لاـ یجـدون غیره، حتی عـادوا جزءا منه، و عـاد هو جزءا من کیـانهم، فمن التراب و علی التراب و إلی التراب.

هذا المناخ المزری عقبات متراکمة، من فوقها عقبات متراکمة، و إزالة هذه العقبات تدریجیا هو الطریق إلی قفز تلک العقبة الکبری

---

(۱) عبس، ۳۴- ۴۲.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۵۱

و تجاوزهـا، فی حیاة قوله تعالی: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَـةَ (۱۱) وَ ما أَدْراکَ مَا الْعَقَبَـةُ (۱۲) فَکُّ رَقَبَةٍ (۱۳) أَوْ إِطْعامٌ فِی یَوْمٍ ذِی مَسْـغَبَةٍ (۱۴) یَتِیماً ذا مَقْرَبَةٍ (۱۵) أَوْ مِسْکِیناً ذا مَتْرَبَةٍ (۱۶) «۱».

ما هذا الإیقاع المجلجل؟ و ما هذه النبرات الصوتیة الرتیبة؟ و ما هذا النسق المتوازن؟ العقبة، رقبة، مسـغبة، مقربة، متربة، أصداء صوتیة متلاحقـة، فی زنـة متقاربة، زادها السـکت رنة و تأثیرا و لطف تناغم، وسط شدة هائلة مرعبة، و خیفة من حدیث نازل متوقع، فالاقتحام فی مصاعبه و مکابدته، و العقبة فی حراجتها و التوائها و مخاطرها، یتعانقان فی موضع واحد، یوحی بالرهبة و الفزع.

«و الاقتحام هو أنسب الألفاظ للعقبـة لما بینهما من تلاؤم فی الشـدة و المجاهدة و احتمال الصـعب، و المناسـبة بین اقتحام العقبة و بین خلق الإنسان فی کبـد، أوضـح من أن یحتاج إلی بیان، و الجمع بینهما فی هـذا السیاق، یقـدم لنا مثلا رائعا من النظم القرآنی المعجز: فالإنسـان المخلوق فی کبـد، أهـل لأـن یقتحم أشـد المصـاعب، و یجتـاز أقسـی المفـاوز، علی هـدی ما تهیأ له من وسائل الإدراک و التمییز، و ما فطر علیه من قدرة علی الاحتمال و المکابدة» «۲».

قال الطبرسـی (ت: ۵۴۸ ه) و هو یتحـدث عن هـذا السیاق: «إنه مثل ضـربه اللّه تعالی لمجاهـدة النفس و الهوی و الشـیطان فی أعمال الخیر و البر، فجعل ذلک کتکلیف صعود العقبة الشاقة الکئود، فکأنه قال: لم یحمل علی نفسه المشقة بعتق الرقبة و الإطعام» «۳».

و إرادة التـأنیب و التعنیـف مع الحض و الترجیـح و التحبیب، فی صـیغة النفی و تقریره، و الاسـتفهام و تهویله، حـافز و أی حـافز علی معالجـة هـذه المخاوف الاجتماعیة السائدة، و درء هذه المشاکل العالقة فی المجتمعات المختلفة: السـغب، الیتم، المسـکنة، إنها آفات متطاولة تنخر فی بنیة

---

(۱) البلد: ۱۱- ۱۶.

(۲) بنت الشاطی، التفسیر البیانی: ۱/ ۱۹۰.

(۳) الطبرسی، مجمع البیان: ۵/ ۴۹۵.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۵۲

الجسم الإنسـانی فتهـدمه، و اقتحامهـا بحزم یترکهـا وراء الإنسـان مسافـات مترامیـة، و ذلک ما یهیئ السبیل إلی تجاوز العقبـة المترقبة الوقوع، فی کل معانیها البیانیة: حقیقیة کانت أو مجازیة.

إن ورود هـذه الآیـات فی نسق صوتی متجانس، و صـیغة إصـلاحیة هادفـة، یضـفی علی الفاصـلة القرآنیـة، جمالها المعهود، و حسـها

الإيقاعى الهادر، دون تطلع إلى تعبير مماثل أو مغاير، فهى تمتلك النفس، و تأخذ بالإحساس فى نظام رتيب، فالحرية أولا، و العطاء المغنى ثانيا، بدءا بالأرحام، و عطفا على الآخرين، و فيها أخذ بملحظ القرابة و الرحم، و حث على تقديم ذوى القربى من المعوزين على الأباعد فى فك القيود، و عتق الرقاب، و الاطعام بإحسان.

ظواهر الملحظ الصوتى فى فواصل الآيات:

الملحظ الصوتى فى فواصل الآيات القرآنية قائم على عدة ظواهر، نرصد منها أربع ظواهر:

الأولى: و تتمثل بزيادة حرف ما فى الفاصلة و عناية للبعد الصوتى، و عناية بنسق البيان فى سر اعتداله، ليؤثر فى النفس تأثيره الحسّاس، فتشرئبّ الأعناق، و تتطلع الأفئدة حين يتواصل النغم بالنغم، و يتلاحم الإيقاع بالإيقاع، و أبرز مظاهر هذه الظاهرة ألف الاطلاق إن صح التعبير بالنسبة للقرآن، فقد ألحقت الألف فى جملة من الآيات بأواخر بعض كلماتها، و كان حقها الفتح مطلقا، دون مدّ الفتحة حتى تكون ألفا، و انظر معى فى سورة واحدة، إلى كل من قوله تعالى، و كأن ذلك معنى بحد ذاته و مقصود إليه لا ريب:

و قال تعالى: وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا «۱».

و قال تعالى: فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا «۲».

و قال تعالى: وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا «۳».

---

(۱) الأحزاب: ۱۰.

(۲) الأحزاب: ۶۷.

(۳) الأحزاب: ۶۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵۳

يبدو أن إلحاق هذه الألف فى «الظنون» «السبيل» «الرسول» يشكل تلقائيا ظاهرة صوتية تدعو إلى التأمل، و إلا فما يضير الفتح لو لا الملحظ الصوتى «لأن فواصل هذه السورة منقلبة عن تنوين فى الوقف، فزيد على النون ألف لتساوى المقاطع، و تناسب نهايات الفواصل» «۱».

و ما يقال هنا يقال فيما ورد بسورة القارعة فى زيادة هاء السكت و إلحاقها فى «هى» لتوافق الفاصلة الأولى الثانية فى قوله تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ (۱۰) نارٌ حامِيَةٌ (۱۱) «۲».

و هيا إلى سورة الحاقة و انظر إلى هاء «السكت» فى إضافتها و إنارتها فى جملة من آياتها، فتقف خاشعا مبهورا، تمتلك هزة من الأعماق و أنت مأخوذ بهذا الوضع الموسيقى الحزين، المنبعث من أقصى الصدر و أواخر الحلق، فتتقطع الأنفاس، و تتهجد العواطف، واجمة، متفكرة، متطلعة، فتصافح المناخ النفسى المتفائل حينا، و المتشائم حينا آخر، و أنت فيما بينهما بحالة متأرجحة بين اليأس و الرجاء، و الأمل و الفزع، و الخشية و التوقع، فسبحان اللّه العظيم حيث يقول:

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (۱۸) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (۱۹) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (۲۰) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۲۱) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۲۲) قُطُوفُها دانِيَةٌ (۲۳) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (۲۴) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ (۲۶) يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ (۲۷) ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ (۲۸) هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ (۲۹) «۳».

فأنت تلاحظ الفواصل: كتابيه، حسابيه، كتابيه، حسابيه، ماليه، سلطانيه، قد أزيدت فيها هاء السكت رعاية لفواصل الآيات المختومة بالتاء القصيرة و التى اقتضى السياق نطقها هاء للتوافق.

و ما زلنا عند الهاء، فتطلع إليها، و هى ضمير ملصق بالفواصل، غير زائد بل أصلى الورود، و قد حقق بذلك وقعه فى النفس، و جرسه فى

---

(۱) الزركشى، البرهان: ۱/ ۶۱.

(۲) القارعة: ۱۰- ۱۱.

(۳) الحاقة: ۱۸- ۲۹

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵۴

الأذن، و قوته فى امتلاك المشاعر، قال تعالى:

يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲) وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴) «۱».

فلا زيادة فى هذه الهاء، و هى ضمير فى الفواصل كلها، و قد حققت صوتيا مناخ الانتباه، و رصد مواضع الاصغاء من النفس الإنسانية.

الثانية: و تتمثل بحذف حرف ما رعاية للبعد الصوتى، و عناية بالنسق القرآنى كما فى قوله تعالى:

وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴) «۲».

فقد حذفت الياء من يسرى موافقة للفاصلة فيما يبدو و مثله قوله تعالى: فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهانَنِ (۱۶) «۳».

فالياء من «اكرمن» و «أهانن» قد حذفت رعاية لهذا الملحظ، و لما فى النون من الغنة عند الوقوف عليها فيما يبدو، و يظهر أن هذا الأمر مطرد فى جملة من آيات القرآن الكريم فى الفواصل ما فى قوله تعالى: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ (۶) «۴».

الثالثة: و تتمثل فى تأخير ما حقه التقديم، و تقديم ما حقه التأخير، زيادة فى العناية بتركيب السياق، و تناسق الألفاظ، و ترتيب الفواصل، كما فى قوله تعالى: فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) «۵». فتأخر الفاعل و حقه التقديم، و عليه يحمل تقديم هارون على موسى فى قوله تعالى:

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى (۷۰) «۶». فإن هارون وزير لموسى، و أهمية موسى سابقة له، و قدم هارون عليه رعاية لفواصل آيات السورة، إذا انتظمت على الألف و الألف المقصورة فى أغلبها، و اللّه العالم.

---

(۱) المعارج: ۱۱- ۱۴.

(۲) الفجر: ۱- ۴.

(۳) الفجر: ۱۵- ۱۶.

(۴) الكافرون: ۶.

(۵) طه: ۶۷.

(۶) طه: ۷۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵۵

الرابعة: أشار الزركشى (ت: ۷۹۴ ه) أنه قد كثر فى القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد و اللين و إلحاق النون، و حكمته وجود التمكن من التطريب «۱».

و حكى سيبويه (ت: ۱۸۰ ه) عن العرب أنهم إذا ما ترنموا فإنهم يلحقون الألف و الواو و الياء، ما ينون، و ما لا ينون، لأنهم أرادوا مدّ

الصوت «۲».

و ورود النون بعد حروف المدّ متواكبة فى القرآن حتى عاد ذلك سرا صوتيا متجليا فى جزء كبير من فواصل آيات سوره، و نشير على سبيل النموذج الصوتى لكل حرف من حروف المدّ تليه النون بمثال واحد.

۱- وردت الألف مقترنة بالنون فى منحنى كبير من فواصل سورة الرحمن على نحوين:

الأول: و ردهما متقاطرين، و هما- أى الألف و النون- من أصل الكلمات كما فى قوله تعالى:

الرَّحْمنُ (۱) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ الْإِنْسانَ (۳) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (۴) الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (۵) «۳».

الثانى: و ردهما متقاطرين، و هما- أى الألف و النون- ملحقان بالكلمة علامة للرفع و دلالة على التثنية كما فى قوله تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (۱۹) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (۲۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۱) «۴».

و يتحقق فى النحوين مدّ الصوت تحقيقا للترنم.

۲- وردت الياء مقترنة بالنون فى أبعاد كثيرة من فواصل الآيات القرآنية، ففيما اقتص اللّه من خبر نوح عليه السلام قال تعالى: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا

---

(۱) ظ: الزركشى، البرهان: ۱/ ۶۸.

(۲) سيبويه، الكتاب: ۲/ ۲۹۸.

(۳) الرحمن: ۱- ۵.

(۴) الرحمن: ۱۹- ۲۱.

مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۲۹) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (۳۰) ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۳۱) «۱».

و الطريف أن سورة المؤمنين تتعاقب فواصلها الياء و النون أو الواو و النون، شأنها فى ذلك شأن جملة من سور القرآن، فكأنها جميعا تعنى بهذا الملحظ الدقيق.

۳- وردت الواو مقترنة بالنون فى أجزاء عديدة و متنوعة من فواصل طائفة كبيرة من السور، فسورة الشعراء فيها تعاقب كبير على الياء و النون مضافا إليه التعاقب على الواو و النون موضع الشاهد كما فى قوله تعالى:

إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (۵۶) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) «۲».

إن ما أبداه الزركشى من ختم كلمة مقطع الفواصل بحروف المد و اللين و إلحاق النون، ليس بالضرورة للتمكن من التطريب، و لكنه يشكل ظاهرة بارزة فى صيغ تعامل القرآن الكريم مع هذه الحروف مقترنة بالنون، و قد يخفى علينا السبب، و يغيب عنا جوهر المراد، و مع ذلك فهو ملحظ متحقق الورود.

الإيقاع الصوتى فى موسيقى الفواصل:

هناك سمات إيقاعية فى سياق فواصل الآيات، و من خلال عبارات الجمل و الفقرات التى ارتبطت بنسق جمهرة من آيات القرآن المجيد، نجم عنها كثير من الاشكال فى التفسير لوجودها مجارية لزنة جملة من بحور الشعر، و بدأ محرّر و علوم القرآن، يتصدرون للدفاع عن ذلك حينا، و لتفسيره كلاميا و احتجاجيا بلغة الجدل حينا آخر، و لو أنهم عمدوا إلى ربط مثل هذه الظواهر بالإيقاع الصوتى لكان ذلك ردا مفحما، و لو فسروها صوتيا لارتفع الإشكال و تلاشى.

القرآن كلام اللّه فحسب، ليس من جنس النثر فى صنوفه و إن اشتمل

(۱) المؤمنون: ۲۸- ۳۱.

(۲) الشعراء: ۵۴- ۵۷.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵۷

على ذروة مميزاته العليا، و لم يكن ضربا من الشعر و إن ضم بين دفتيه أوزان الشعر جميعا وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۴۲) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۳) «۱».

فهو ليس من سنخ ما يتقولون، و لا- بنسيج ما يتعارفون، ارتفع بلفظه و معناه، و طبيعته الفنية الفريدة، عن مستوى الفن القولى عند العرب، فالمقولة بأنه شعر باطلة من عدّة وجوه:

الأول: التأكيد فى القرآن نفسه بنفى صفة الشعر عنه، و التوجيه بأنه ذكر و قرآن مبين بقوله تعالى:

وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹) «۲».

الثانى: الردّ فى القرآن على دعوى القول بأن النبى شاعر، و أن القرآن منه فى ثلاثة مواطن:

۱- الملحظ الافترائى الموجه إليه، و المعبر عنن حيرة المشركين:

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۵) «۳».

۲- التعصب الأعمى للآلهة المزعومة دون وعى، و بكل إصرار بافتعال الادعاء الكاذب:

وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) «۴».

۳- التربص بالنبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و توقع الموت له، بزعمهم أن سيموت شعره المفترض معه!! أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (۳۰) «۵».

الثالث: إن العرب لو اعتقدوا أن القرآن شعر لأسرعوا إلى معارضته من قبل شعرائهم، فالشعر ديوان العرب، و قصائدهم معلقة بالكعبة تعبيرا عن اعتدادهم بالشعر، و اعتزازهم بالشعراء، و هم أئمة البيان و رجال

(۱) الحاقة: ۴۱- ۴۳.

(۲) يس: ۶۹.

(۳) الأنبياء: ۵.

(۴) الصافات: ۳۶.

(۵) الطور: ۳۰.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵۸

الفصاحة، و لكنها مغالطة واضحة «و لو كان ذلك لكانت النفوس تتشوق إلى معارضته، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، و أهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم» «۱».

الرابع: إن الشعر إنما يقصد إليه بذاته فينظم مع إرادة ذلك، و لا يتفق اتفاقا أن يقول أحدهم كلاما فيأتى موزونا، فالشعر «إنما ينطلق متى قصد إليه على الطريق التى تعمد و تسلك، و لا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء دون ما يستوى فيه العامى و الجاهل و العالم بالشعر و اللسان و تصرفه، و ما يتفق من كل واحد، فليس بشعر فلا يسمى صاحبه شاعرا، و إلا لكان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك أن يعرض فى جملة كلامه ما يتزن بوزن الشعر و ينتظم بانتظامه» «۲».

سقنا هذا فى حيثية تنزيه القرآن عن سمة الشعر و صفته، لأنه قد وجد فيه ما وافق شعرا موزونا، و ما يدريك فلعل القرآن يريد أن

يقول للعرب:

إن هـذا الشـعر الـذى تتفاخرون به، نحن نحيطكم علما بأوزانه على سبيل الأمثلـة لتعتبروا بسوقها سـياق القرآن فى صدقه و أمانته، و لا غرابة أن يكون القرآن يريد أن ينحو الشاعر بشعره منحى الحق و الصرامة و الفضيلة و الصدق، و مع هذا و ذاك فما ورد من الموزون فيه جار على سـنن العرب فى كلامها، إذ قد يتفق الموزون ضمن المنشور، بلا إرادة للموزون، و لا تغيير للمنظوم. فقد حكى الزركشى (ت: ۷۹۴ ه) أن إعرابيا سمع قارئا يقرأ: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (۱) «۳».

فقال كسرت، إنما قال:

يا أيها الناس اتقوا ربكمزلزلة الساعة شيء عظيم فقيل له: هذا القرآن، و ليس الشعر «۴».

فاعتقده لأول مرة شعرا فحذف «أن» ليسـتقيم الوزن فيما عنده. و لو قلنا بالإيقاع الصوتى، و فسـرنا الورود البيانى لهذا المظهر الموزون بمجانسة

---

(۱) الباقلانى، إعجاز القرآن: ۸۲.

(۲) المصدر نفسه: ۸۳.

(۳) الحج: ۱.

(۴) الزركشى، البرهان: ۲/ ۱۱۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۵۹

الأـصوات، و قارنّا عن كثب بمناسـبة الصوت للصوت، و ملاءمـة النطق بالحروف، و متابعـة الأذن للموسـيقى، و السـمع للنبر و التنغيم، زيادة على ما تقـدم لكنا قد أحسـنّا التعليل فيما يبدو، أو توصـلنا فى الأقل إلى بعض الوجوه المحتملة، أو الفوائد الصوتية المترتبة على هذا المعلم الواضح، و اللّه أعلم.

و قـد يقال بأن هـذا المعلم إنما ينطبق على أجزاء من الآيات لا الفاصـلة وحـدها، فيقال حينئـذ بأن وجود الفاصـلة فى هذه الأجزاء من الآيـات هو الـذى جعل جملـة هـذا الكلام موزونا، فبـدونها ينفرط نظام هـذا السـلك، و ينحل عقـد هـذا الابرام لهـذا نسـبنا أن يكون الحديث عن هذا الملحظ ضمن هذا البحث.

و مهمـا يكن من أمر، فـإن ورود مـا ورد من هـذا القبيـل فى القرآن ينظر فيه إلى غرضه الفنى مضافـا إلى الغرض التشـريعى، و هما به متعانقان.

إننا بين يـدى مخزون ثم فى هـذا الرصـد، ننظره و كأننا نلمسه، و نتحسـسه و كأننا نحيا به، فحينما نسـتمع خاشـعين إلى صـيغة موزونة منتظمـة بقوله تعـالى: إِنَّا أَعْطَيْنـاكَ الْكَوْثَرَ (۱) «۱». فإننـا نتعامـل مع وقع خـاص يـذكرنا بالعطـاء غير المحـدود للنبى الكريم، و حينما نستمع- موزونا- إلى قوله تعالى: هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (۳۶) «۲». تصك أسماعنا بلغة الوعيد، فتخشع القلوب و تتحسس الأفئدة. و حينما نستمع- موزونا- إلى قوله تعالى: وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا «۳».

نستبشر من الأعماق بهذا المناخ الهادى، و نستشعر هذا النعيم السرمدى بإيقاع يأخذ بمجامع القلوب، و يشد إليه المشاعر.

و حينمـا نسـتمع- موزونـا- إلى قـوله تعـالى: تَبَّتْ يَـدا أَبِى لَهَـبٍ «۴». الصـوت اللغـوى فى القرآن ۱۵۹ الإيقـاع الصوتى فى موسـيقى الفواصل: ..... ص : ۱۵۶

يقرع أسـماعنا هـذا المصـير الشديـد العـاتى، فيسـتظهره السـامع دون جهـد، و يجرى مجرى الأمثال فى إفادة عبرتها و حجتها. و حينما نستمع حالمين

---

(۱) الكوثر: ۱.

(۲) المؤمنون: ۳۶.

(۳) الدهر (الإنسان): ۱۴.

(۴) المسد: ۱.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۰

إلى قوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (۴۰) «۱». فإننا نستشعر هذا الأمر بقلوبنا قبل الأسماع، هادئا ناعما متناسقا، و هو يدعو إلى تسبيح اللّه و تقديسه آناء الليل و أطراف النهار.

و حينما نستمع إلى قوله تعالى: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ «۲». فإن العزائم تهب على هذا الصوت المدوى، بإعلان النصر لنبيه، و الفتح أمام زحفه، فتعم البشائر، و تتعالى البهجة.

و حينما نستمع إلى قوله تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ «۳». فالصوت الرفيق هذا يمس الاسماع مسا رفيقا حينا، و يوقظ الضمائر من غفلتها حينا آخر، و هو يستدر كرم المخائل، و يوجه مسيرة التعاطف، و يسدد مراصد الانفاق، و المسلم الحقيقى يسعى إلى البر الواقعى فأين موطنه؟ إنه الانفاق مما يحب، و العطاء مما يحدب عليه، و الفضل بأعز الأشياء لديه، و بذلك ينال البر الذى ما فوقه بر.

و حينما نستمع إلى قوله تعالى: أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (۱) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (۲) «۴». و تمد الفتحة لتكون ألف إطلاق، و تصبح فى غير القرآن (اليتيما) فإنك تقف عند بحر الخفيف من الشعر، و هو من الأوزان الراقصة، تقف عند صرخة مدوّية، و جلجلة متأججة تقارن بين التكذيب بيوم القيامة، و بين دعّ اليتيم فى معاملته بخشونة، و صده بجفاف و غلظة.

هذه النماذج الخيرة التى تبركنا بإيرادها، و التى تنبه من الغفوة و الغفلة، و تدفع إلى الاعتبار و العظة، و تزيد من البصيرة و التدبر، قد أضفى عليها الملحظ الصوتى موسيقاه الخاصة، فعاد القول بصوتيتها من جملة أسرارها الجمالية، و التأكيد على تناغمها الإيقاعى من أبرز ملامحها الفنية.

هذه ميزة ناصعة من مزايا فواصل الآيات باعتبار العبارات.

---

(۱) ق: ۴۰.

(۲) الصف: ۱۳.

(۳) آل عمران: ۹۲.

(۴) الماعون: ۱- ۲.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۱

الفصل السادس الدلالة الصوتية فى القرآن

اشارة

۱- مظاهر الدلالة الصوتية ۲- دلالة الفزع الهائل ۳- الإغراق فى مدّ الصوت و استطالته ۴- الصيغة الصوتية الواحدة ۵- دلالة الصدى الحالم ۶- دلالة النغم الصارم ۷- الصوت بين الشدة و اللين ۸- الألفاظ دالة على الأصوات ۹- اللفظ المناسب للصوت المناسب

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۳

مظاهر الدلالة الصوتية:

انصبت عناية القرآن العظيم بالاهتمام فى إذكاء حرارة الكلمة عند العرب، و توهج العبارة فى منظار حياتهم، و حدب البيان القرآنى على تحقيق موسيقى اللفظ فى جمله، و تناغم الحروف فى تركيبه، و تعادل الوحدات الصوتية فى مقاطعه، فكانت مخارج الكلمات متوازنة النبرات، و تراكيب البيان متلائمة الأصوات، فاختار لكل حالة مرادة ألفاظها الخاصة التى لا يمكن أن تستبدل بغيرها، فجاء كل لفظ متناسبا مع صورته الذهنية من وجه، و مع دلالته السمعية من وجه آخر، فالذى يستلذه السمع، و تسيغه النفس، و تقبل عليه العاطفة هو المتحقّق فى العذوبة و الرقة، و الذى يشرأب له العنق، و تتوجس منه النفس هو المتحقق فى الزجر و الشدة، و هنا ينبه القرآن المشاعر الداخلية عند الإنسان فى إثارة الانفعال المترتب على مناخ الألفاظ المختارة فى مواقعها فيما تشيعه من تأثير نفسى معين سلبا و إيجابا.

و بيان القرآن المجيد تلمح فيه الفروق بين مجموعة هذه الأصوات فى إيقاعها، و التى كونت كلمة معين فى النص، و بين تلك الأصوات التى كونت كلمة أخرى، و تتعرف فيه على ما يوحيه كل لفظ من صورة سمعية صارخة تختلف عن سواها قوة أو ضعفا، رقة أو خشونة، حتى تدرك بين هذا و ذاك المعنى المحدد المراد به إثارة الفطرة، أو إذكاء الحفيظة، أو مواكبة الطبيعة بدقة متناهية، و يستعان على هذا الفهم لا بموسيقى اللفظ منفردا، أو بتناغم الكلمة وحدها، بل بدلالة الجملة أو العبارة منضمّة إليه.

إن إيقاع اللفظ المفرد، و تناغم الكلمة الواحدة، عبارة عن جرس

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۴

موسيقى للصوت فيما يجلبه من وقع فى الأذن، أو أثر عند المتلقى، يساعد على تنبيه الأحاسيس فى النفس الإنسانية، لهذا كان ما أورد القرآن الكريم فى هذا السياق متجاوبا مع معطيات الدلالة الصوتية: «التى تستمد من طبيعة الأصوات نغمتها و جرسها» «۱». فتوحى بأثر موسيقى خاص، يستنبط من ضم الحروف بعضها لبعض، و يستقرأ من خلال تشابك النص الأدبى فى عبارته، فيعطى مدلولا متميزا فى مجالات عدة: الألم، البهجة، اليأس، الرجاء، الرغبة، الرهبة، الوعد، الوعيد، الأنذار، التوقع، الترصد، التلبث ... الخ.

و لا شك أن استقلالية أية كلمة بحروف معينة، يكسبها صوتيا ذائقة سمعية منفردة، تختلف- دون شك- عما سواها من الكلمات التى تؤدى المعنى نفسه، مما يجعل كلمة ما دون كلمة- و إن اتحدا بالمعنى، لها استقلاليتها الصوتية، إما فى الصدى المؤثر، و إما فى البعد الصوتى الخاص، و إما بتكثيف المعنى بزيادة المبنى، و إما بإقبال العاطفة، و إما بزيادة التوقع، فهى حينا تصك السمع، و حينا تهيئ النفس، و حينا تضفى صيغة التأثر: فزعا من شىء، أو توجها لشىء، أو طمعا فى شىء، و هكذا.

هذا المناخ الحافل تضفيه الدلالة الصوتية للألفاظ، و هى تشكل فى القرآن الوقع الخاص المتجلى بكلمات مختارة، تكونت من حروف مختارة، فشكلت أصواتا مختارة، هذه السمات فى القرآن بارزة الصيغ فى مئات التراكيب الصوتية فى مظاهر شتى، و مجالات عديدة، تستوعبها جمهرة هائلة من ألفاظه فى ظلال مكثفة فى الجرس و النغم و الصدى و الإيقاع.

قال الخطابى (ت: ۳۸۳- ۳۸۸ ه) إن الكلام إنما يقوم بأشياء ثلاثة: «لفظ حاصل، و معنى به قائم، و رباط لهما ناظم، و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف و الفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح، و لا أجزل، و لا أعذب من ألفاظه» «۲».

---

(۱) إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ: ۴۶.

(۲) الخطابى: بيان إعجاز القرآن: ۲۷.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۵

و هذا مما ينطبق على استيحاء الدلالة الصوتية فى القرآن بجميع الأبعاد، يضاف إليه الوقع السمعى للفظ، و التأثير النفسى للكلمة، و

المدلول الانفعالى بالحدث، و تلك مظاهر متأنقة قد يتعذر حصرها، و قد يطول الوقوف عند استقصائها.

و كـان من فضـيلة القرآن الصوتيـة أن اسـتوعب جميع مظـاهر الدلالـة فى مجالاتهـا الواسـعة، و تمرس فى استيفـاء وجوه التعـبير عنها بمختلف الصور الناطقـة، و قـد يكون من غير الممكن اسـتحضار جميع الصـيغ فى اسـتعمالات القرآن للدلالـة الصوتيـة، لهـذا فإن من المعقول جـدا أن أقف عند المهم منها، أو ما يبدو أنه مهم فى الأقل، و ذلك باسـتطراد بعض النماذج النابضة فيما أخال و أزعم، و قد يعبر كـل نموذج منهـا عن مظهر فنى، ليقـاس مثله عليه، و شبيهه به، و بـذلك يتأتى للباحث و المتلقى إلقاء الضوء الكاشف على أبعاد دلالة القرآن الصوتية، فى تشعب جوانبها، و عظمة انطلاقها، مما يكوّن معجما لغويا خاصا بمفرداتها، و قاموسا صوتيا حافلا بإمكاناتها.

سيقتصـر حـديثنا عن مظـاهر الدلالـة فى مجالات قـد تكون متقابلـة، أو متناظرة، أو متضادة، أو متوافقـة، و هى بمجموعها تكون أبعاد الدلالة الصوتية فى القرآن، و هذا ما تتكفّل بإيضاحه المباحث الآتية.

دلالة الفزع الهائل:

اسـتعمل القرآن طائفة من الألفاظ، ثم اختيار أصواتها بما يتناسب مع أصدائها، و استوحى دلالتها من جنس صياغتها، فكانت دالة على ذاتها بذاتها، فالفزع مثلا، و الشدة، و الهدة، و الاشتباك، و الخصام، و العنف، دلائل هادرة بالفزع الهائل و المناخ القاتل.

۱- قف عند مادة صـرخ فى القرآن، و الصرخة الصيحة الشديدة عند الفزع، و الصراخ الصوت الشديد «۱». لتلمس عن كثب، و بعفوية بالغة:

الاسـتغاثة بلاـ مغيث، فى قوله تعـالى: وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهـا رَبَّنـا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً «۲». ممـا يوحى بأن الصـراخ قـد بلغ ذروته، و الاضطراب قد تجاوز

---

(۱) ظ: ابن منظور، لسان العرب: ۴/ ۲.

(۲) فاطر: ۳۷.

مـداه، و الصوت العـالى الفظيع يصـطدم بعضه ببعض، فلاـ أذن صاغيـة، و لا نجـدة متوقعـة، فقـد وصل اليأس أقصاه، و القنوط منتهاه، فالصـراخ فى شـدة إطباقه، و تراصف إيقاعه، من توالى الصاد و الطاء، و تقاطر الراء و الخاء، و الترنم بالواو و النون يمثل لكل رنـة هذا الاصـطراخ المدوى «و الاصطراخ الصياح و النداء و الاستغاثة: افتعال من الصراخ قلبت التاء طاء لأجل الصاد الساكنة قبلها، و إنما نفعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد فى الاستعلاء و الإطباق، و يوافق التاء فى المخرج» «۱».

و الإصـراخ هو الإغاثة، و تلبية الصارخ، و قوله تعالى: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ «۲». تعنى البراءة المتناهية، و الإحباط التام، و الصوت المجلجل فى الـدفع، فلاـ يغنى بعضـهم عن بعض شـيئا، و لا ينجى أحـدهم الآخر من عـذاب الله، و لا يغيثه مما نزل به، فلا إنقاذ و لا خلاص و لا صريخ من هذه الهوة، و تلك النازلة، فلا الشيطان بمغيثهم، و لا هم بمغيثيه.

و الصـريخ فى اللغـة يعنى المغيث، و المسـتغيث، فهو من الأضـداد، و فى المثل: عبـد صـريخه أمـة، أى ناصـره أذل منه «۳». و قـد قال تعالى: فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ «۴». فيا له من موقف خاسر، و جهد بائر، فلا سماع حتى لصوت الاستغاثة، و لا إجارة مما وقعوا فيه.

و الاستصراخ الإغاثة، و استصرخ الإنسان إذا أتاه الصارخ، و هو الصوت يعلمه بأمر حادث ليستعين به «۵».

قال تعالى: فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ «۶». طلب للنجـدة فى فزع، و محاولـة للإنقاذ فى رهب، و الاسـتعانة على العـدو بما يردعه عن

(۱) الطبرسى، مجمع البيان: ۴/ ۴۱۰.

(۲) إبراهيم: ۲۲.

(۳) ابن منظور، لسان العرب: ۴/ ۳.

(۴) يس: ۴۳.

(۵) ابن منظور، لسان العرب: ۴/ ۳.

(۶) القصص: ۱۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۷

الإيقاع به، و ما ذلك إلا نتيجة خوف نازل، و فزع متواصل، و تشبث بالخلاص.

۲- و ما يستوحى من شدة اللفظ فى مادة «صرخ» يستوحى بإيقاع مقارب من قوله تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ «۱». لتبرز «متشاكسون» و هى تعبر لغة عن المخاصمة و العناد و الجدل فى أخذ ورد لا- يستقران، و قد تعطى معناها الكلمة: متخاصمون، و لكن المثل القرآنى لم يستعملها حفاظا على الدلالة الصوتية التى أعطت معنى النزاع المستمر، و الجدل القائم، و قد جمعت فى هذه الكلمة حروف التفشى و الصفير فى الشين و السين تعاقبا، تتخللهما الكاف من وسط الحلق، و الواو و النون للمد و الترنم، و التأثر بالحالة، فأعطت هذه الحروف مجتمعة نغما موسيقيا خاصا حملها أكثر من معنى الخصومة و الجدل و النقاش بما أكسبها أزيزا فى الأذن، يبلغ به السامع أن الخصام ذو خصوصية بلغت درجة الفورة، و العنف و الفزع من جهة، كما أحيط السمع بجرس مهموس معين ذى نبرات تؤثر فى الحس و الوجدان من جهة أخرى.

۳- و تأمل مادة «كبّ» فى القرآن، و هى تعنى إسقاط الشىء على وجهه كما فى قوله تعالى: فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ «۲» فلا إنقاذ و لا خلاص و لا إخراج، و الوجه أشرف مواضع الجسد، و هو يهوى بشدة فكيف بباقى البدن.

و الإكباب جعل وجهه مكبوبا على العمل، قال تعالى: أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى «۳».

و الكبكبة تدهور الشىء فى هوة «۴» قال تعالى: فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ (۹۴) «۵».

(۱) الزمر: ۲۹.

(۲) النمل: ۹۰.

(۳) الملك: ۲۲.

(۴) الراغب، المفردات: ۴۲۰.

(۵) الشعراء: ۹۴.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۸

و هذه الصيغة قد حملت اللفظ فى تكرار صوتها، زيادة معنى التدهور لما أفاده الزمخشرى (ت: ۵۳۸ ه) بقوله: «إن الزيادة فى البناء لزيادة المعنى» «۱».

و قال العلامة الطيبى (ت: ۷۴۳ ه):

«كرر الكب دلالة على الشدة» «۲».

و من هنا نفيد أن دلالة الفزع فيما تقدم من ألفاظ أريدت بحد ذاتها لتهويل الأمر، و تفخيم الدلالة، و هذا أمر مطرد فى القرآن، و قد يمثله قوله تعالى: فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (۸۷) «۳».

و المادة نفسها قد توحى بشدة الإتيان و التوقع عند النوائب.

الإغراق فى مدّ الصوت و استطالته:

هنالك مقاطع صوتية مغرقة فى الطول و المد و التشديد و بالرغم من ندرة صيغة هذه المركبات الصوتية فى اللغة العربية حتى أنها لتعدّ بالأصابع، فإننا نجد القرآن الكريم يستعمل أفخمها لفظا، و أعظمها وقعا، فتستوحى من دلالتها الصوتية مدى شدّتها و هدّتها، لتستنتج من ذلك أهميتها و أحقيتها بالتلبث و الرصد و التفكير.

من تلك الألفاظ: الحاقّة، الطّامة، الصّاخة. و قد تأتى مجرّدة عن التحريف فتهتدى إلى عموميتها، مثل: دابّة. كافة.

هذه الصيغة صوتيا تمتاز بتوجه الفكر نحوها فى تساؤل، و اصطكاك السمع بصداها المدوى، و أخيرا بتفاعل الوجدان معها مترقبا: الأحداث، المفاجئات، النتائج المجهولة.

الحاقّة و الطامة و الصاخّة: كلمات تستدعى نسبة عالية من الضغط الصوتى، و الأداء الجهورى لسماع رنتها، مما يتوافق نسبيا مع إرادتها فى

---

(۱) الزمخشرى، الكشاف: ۱/ ۴۱.

(۲) الطيبى، التبيان فى علم المعانى و البديع و البيان: ۴۷۴.

(۳) طه: ۷۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۶۹

جلجلة الصوت، و شدة الإيقاع، كل ذلك مما يوضع مجموعة العلاقات القائمة بين اللفظ و دلالته فى مثل هذه العائلة الصوتية الواحدة، فإذا أضفنا إلى ذلك معناها المحدد فى كتاب الله تعالى، و هو يوم القيامة، خرجنا بحصيلة علمية تنتهى بمصاقبة الشدة الصوتية للشدة الدلالية بين الصوت و المعنى الحقيقى، فقوله تعالى: الْحَاقَّةُ (۱) مَا الْحَاقَّةُ (۲) وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (۳) «۱». إشارة إلى يوم القيامة، و علم عليها فيما أفاد العلماء، قال الفرّاء (ت: ۲۰۷ ه): «و الحاقة: القيامة، سميت بذلك لأن فيها الثواب و الجزاء» «۲».

و قال الطبرسى (ت: ۵۴۸ ه) «الحاقة اسم من أسماء القيامة فى قول جميع المفسرين، و سميت بذلك، لأنها ذات الحواق من الأمور، و هى الصادقة الواجبة الصدق، لأن جميع أحكام القيامة واجبة الوقوع، صادقة الوجود. و قيل: سميت القيامة الحاقة لأنها تحق الكفار من قولهم: حاققته فحققته، مثل: خاصمته فخصمته» «۳».

و قيل: لأنها تحقق كل إنسان بعمله. و يقال: حقّت القيامة: أحاطت بالخلائق فهى حاقة «۴». فإذا رصدت الصاخة، رأيتها القيامة أيضا، و به فسر أبو عبيدة (ت: ۲۱۰ ه) قوله تعالى: فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) «۵». فأما أن تكون الصاخة اسم فاعل من صخ يصخ، و إما أن تكون مصدرا و قال أبو إسحاق الزجاج: الصاخة هى الصيحة التى تكون فيها القيامة تصخ الأسماع، أى: تصمها فلا تسمع.

و قال ابن سيده: الصاخة: صيحة تصخ الأذن أى تطعنها فتصمها لشدتها، و منه سميت القيامة.

و يقال: كأن فى أذنه صاخة، أى طعنة «۶».

---

(۱) الحاقة: ۱- ۳.

(۲) الفراء، معانى القرآن: ۳/ ۱۷۹.

(۳) الطبرسى، مجمع البيان: ۵/ ۳۴۲- ۳۴۳.

(۴) ظ: الطريحى، مجمع البحرين: ۵/ ۱۴۷.

(۵) عبس: ۳۳.

(۶) ابن منظور، لسان العرب: ۴/ ۲.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۷۰

و قال الطريحى (ت: ۱۰۸۵ ه) الصاخة بتشديد الخاء يعنى القيامة، فإنها تصخ الأسماع، أى تقرعها و تصمها، يقال: رجل أصخ، إذا كان لا يسمع «۱». و المعانى كلها متقاربة فى الدلالة، إلا أن الراغب (ت: ۵۰۲ ه) يعطى الصاخة دلالة أعمق فى الإرادة الصوتية المنفردة فيقول: الصاخة شدة صوت ذى المنطق «۲».

فيكون استعمالها حينئذ فى القيامة على سبيل المجاز. فإذا وقفنا عند الطامة، فهى القيامة تطم على كل شىء «۳». و إليه ذهب الزجاج: الطامة هى الصيحة التى تطم على كل شىء «۴». و تسمى الداهية التى لا يستطاع دفعها:

طامة «۵». قال تعالى: فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (۳۴) «۶» قال الطبرسى (ت:

۵۴۸ ه) «و هى القيامة لأنها تطم كل داهية هائلة، أى تعلو و تغلب، و من ذلك قيل: ما من طامّة إلا و فوقها طامة، و القيامة فوق كل طامة، فهى الداهية العظمى» «۷».

و لعل اختيار الطبرسى للداهية فى تفسير الطامة باعتبارها داهية لا يستطاع دفعها، و لأن القيامة تطم كل داهية هائلة، لا يخلو من وجه عربى أصيل، فالعرب استعملت الطامة فى الداهية العظيمة تغلب ما سواها، و أية داهية أعظم من القيامة لا سيما و هى توصف هنا بالكبرى.

إن موافقة أصوات الحاقة و الصاخة و الطامة لمعانيها فى الدلالة على يوم القيامة، من أعظم الدلالات الصوتية فى الشدة و الوقع و التلاؤم البنيوى و المعنوى لمثل هذه الصيغة الحافلة.

و دلالة هذه الصيغة فى: دابة، و كافة، على الشمول و الكلية المطلقة يوحى بالمضمون نفسه فى الإيقاع الصوتى، قال تعالى:

---

(۱) الطريحى مجمع البحرين: ۲/ ۴۳۷.

(۲) الراغب، المفردات: ۲۷۵.

(۳) الفراء، معانى القرآن: ۳/ ۲۳۴.

(۴) ابن منظور، لسان العرب: ۱۵/ ۲۶۳.

(۵) الطبرسى، مجمع البيان: ۵/ ۴۳۳.

(۶) النازعات: ۳۴.

(۷) الطبرسى، مجمع البيان: ۵/ ۴۳۴.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۷۱

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶) «۱» فشمل الخلائق كلها، و أصناف الأجناس المرئية و غير المرئية مما يدب أدركناه أو لم ندركه، علمنا طبيعة رزقه أو لم نعلم و قوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً (۲۸) «۲». يدل أن هذا الرسول العربى الأمين، لم يختص بزمنية، و لم يبعث لطبقة خاصة، فتخطى برسالته حدود الزمان و المكان، فكانت عالمية السيرورة، إنسانية الأحياء، البشارة فى يد، و النذارة فى يد، لينقذ العالم أجمع من خلال هاتين.

الصيغة الصوتية الواحدة:

و ظاهرة أخرى جديرة بالعناية و التلبث، هى تسمية الكائن الواحد، و الأمر المرتقب المنظور، بأسماء متعددة ذات صيغة واحدة، بنسق

صوتى متجانس، للدلالة بمجموعة مقاطعه على مضمونه، و بصوتيته على كنه معناه، و من ذلك تسمية القيامة فى القرآن بأسماء متقاربة الصدى، فى إطار الفاعل المتمكن، و القائم الذى لا يجحد.

هذه الصيغة الفريدة تهزك من الأعماق، و يبعثك صوتها من الجذور، لتطمئن يقينا إلى يوم لا مناص عنه، و لا خلاص منه، فهو واقع يقرعك بقوارعه، و حادث يثيرك برواجفه ... الصدى الصوتى، و الوزن المتراص، و السكت على هائه أو تائه القصيرة تعبير عما ورائه من شئون و عوالم و عظات و عبر و متغيرات فى:

الواقعة/ القارعة/ الآزفة/ الراجفة/ الرادفة/ الغاشية، و كل معطيك المعنى المناسب للصوت و الدلالة المنتزعة من اللفظ، و تصل مع الجميع إلى حقيقة نازلة واحدة.

١- الواقعة، قال تعالى: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (٢) «٣».

---

(١) هود: ۶.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الواقعة: ١- ٢.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ١٧٢

و قال تعالى: فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (١٥) «١».

قال الخليل: وقع الشيء يقع وقوعا، أى: هويا.

و الواقعة النازلة الشديدة من صروف الدهر «٢».

و قال الراغب (ت: ٥٠٢ ه) الوقوع ثبوت الشيء و سقوطه، و الواقعة لا تقال إلا فى الشدة و المكروه، و أكثر ما جاء فى القرآن من لفظ وقع:

جاء فى العذاب و الشدائد «٣».

و قال الطبرسى (ت: ۵۴۸ ه) فى تفسيره للواقعة: «و الواقعة اسم القيامة كالآزفة و غيرها، و المعنى إذا حدثت الحادثة، و هى الصيحة عند النفخة الأخيرة لقيام الساعة. و قيل سميت بها لكثرة ما يقع فيها من الشدة، أو لشدة وقعها» «۴». و قال ابن منظور (ت: ٧١١ ه) الواقعة: الداهية، و الواقعة النازلة من صروف الدهر، و الواقعة اسم من أسماء يوم القيامة «۵».

و باستقراء هذه الأقوال، و مقارنة بعضها ببعض، تتجلى الدلالة الصوتية، فالوقوع هو الهوى، و سقوط الشيء من الأعلى، و الواقعة هى النازلة الشديدة، و الواقعة هى الداهية، و هى الحادثة، و هى الصيحة، و هى اسم من أسماء يوم القيامة، و أكثر ما جاء فى القرآن من هذه الصيغة جاء فى الشدة و العذاب، و صوت اللفظ يوحى بهذا المعنى، و إطلاقه بزنة الفاعل، و إسناده بصيغة الماضى، يدلان على وقوعه فى شدته و هدته، و صيحته و داهيته.

٢- القارعة قال تعالى: الْقارِعَةُ (١) مَا الْقارِعَةُ (٢) وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (٣) «۶».

و قال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ (۴) «٧».

قال الخليل (ت: ١٧۵- ه): و القارعة: القيامة. و القارعة: الشدة.

---

(١) الحاقة: ١۵.

(٢) الخليل، العين ٢/ ١٧۶.

(٣) الراغب، المفردات: ۵٣٠.

(۴) الطبرسی، مجمع البیان: ۵/ ۲۱۴.

(۵) ابن منظور، لسان العرب: ۱۰/ ۲۸۵.

(۶) القارعة: ۱- ۳.

(۷) الحاقة: ۴.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۷۳

و فلان أمن قوارع الدهر: أی شدائده. و قوارع القرآن: نحو آیة الکرسی، یقال: من قرأها لم تصبه قارعة.

و کل شیء ضربته فقد قرعته. قال أبو ذؤیب الهذلی «۱».

حتی کأنی للحوادث مروةبصفا المشرق کل یوم تقرع قال الطبرسی: و سمیت القارعة، لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة إلی أن یصیر المؤمنون إلی الأمن «۲». و القارعة اسم من أسماء القیامة لأنها تقرع القلوب بالفزع، و تقرع أعداء الله بالعذاب «۳».

و إنما حسن أن توضع القارعة موضع الکنایة لتذکر بهذه الصفة الهائلة بعد ذکرها بأنها الحاقة «۴».

و بمقارنة هذه المعانی، نجدها متقاربة الدلالة، فالقارعة الشدة، و قوارع الدهر شدائده، و کل شیء ضربته فقد قرعته، و القارعة تقرع القلوب بالفزع، و قلوب العباد بالمخالفة، و أعداء الله بالعذاب، و هی فی موضع کنایة للتعبیر عن القیامة، من أجل التذکیر بصفة القرع، و کلها مفردات ایحائیة تؤذن بالقرع فی الأذن، و تفزع القلوب بالشدة، تتوالی خلالها المترادفات و المشترکات، لتنتقل بک إلی عالم الواقعة، و هی مجاورة لها فی الشدة و الهول و الصدی و الإیقاع.

۳- الآزفة، قال تعالی: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (۵۷) لَیْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ کاشِفَةٌ (۵۸) «۵».

و قال تعالی: وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَی الْحَناجِرِ کاظِمِینَ ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ (۱۸) «۶».

قال الراغب: معناه: أی دنت القیامة .. فعبر عنها بلفظ الماضی لقربها و ضیق وقتها «۷».

---

(۱) الخلیل، العین: ۱/ ۱۵۶.

(۲) الطبرسی، مجمع البیان: ۵/ ۳۴۲.

(۳) المصدر نفسه: ۵/ ۵۳۲.

(۴) المصدر نفسه: ۵/ ۳۴۳.

(۵) النجم: ۵۷- ۵۸.

(۶) المؤمن: ۱۸.

(۷) الراغب، المفردات: ۱۷.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۷۴

و قال الطبرسی: وَ أَنْذِرْهُمْ یَوْمَ الْآزِفَةِ (۱۸) «۱». أی الدانیة. و هو یوم القیامة، لأن کل ما هو آت دان قریب «۲».

قال الزمخشری: و الآزفة القیامة لأزوفها «۳».

و فی اللغة: الآزفة القیامة، و إن استبعد الناس مداها «۴».

و فی الآزفة: الدانیة من قولهم أزف الأمر إذا دنا وقته «۵».

ورقة الآزفة فی لفظها بانطلاق الألف الممدودة من الصدر، و صفیر الزای من الأسنان، و انحدار الفاء من أسفل الشفة، و السکت علی الهاء منبعثة من الأعماق، و کالرقة فی معناها فی الدنو و الاقتراب و حلول الوقت، و مع هذه الرقة فی الصوت و المعنی، إلا أن المراد من هذه الصفیر أزیزه، و من هذا التأفف هدیره و رجیفه، فأدناه یوم القیامة غیر إدناء الحبیب، و اقتراب الساعة غیر اقتراب المواعید، أنه

دنو اليوم الموعود، و الحالات الحرجة، و الهدير النازل، إنه يوم القيامة فى شدائده، فكانت الآزفة كالواقعة و القارعة.

۴- الراجفة و الرادفة، قال تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) «۶» و تبدأ القيامة بالراجفة، و هى النفخة الأولى (تتبعها الرادفة) و هى النفحة الثانية «۷».

و هو المروى عن ابن عباس و مجاهد و الحسن و قتادة و الضحاك «۸».

قال الزمخشرى (ت: ۵۳۸ ه) «الراجفة: الواقعة التى ترجف عندها الأرض و الجبال و هى النفحة الأولى، وصفت بما يحدث بحدوثها (تتبعها الرادفة) أى الواقعة التى تردف الأولى، و هى النفحة الثانية، أى القيامة التى يستعجلها الكفرة، استبعادا لها و هى رادفة لهم لاقترابها. و قيل الراجفة: الأرض و الجبال من قوله- يوم ترجف الأرض و الجبال- و الرادفة

---

(۱) المؤمن: ۱۸.

(۲) الطبرسى: مجمع البيان: ۴/ ۵۱۸.

(۳) الزمخشرى، أساس البلاغة: ۵.

(۴) ابن منظور، لسان العرب: ۱/ ۳۴۶.

(۵) الطبرسى، مجمع البيان: ۴/ ۵۱۸.

(۶) النازعات: ۶- ۷.

(۷) الفراء معانى القرآن: ۳/ ۲۳۱.

(۸) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ۴/ ۴۶۷.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۷۵

السماء و الكواكب لأنها تنشق و تنتثر كواكبها إثر ذلك» «۱». و قال الطبرسى (ت: ۵۴۸ ه) الراجفة: يعنى النفخة الأولى التى يموت فيها جميع الخلائق، و الراجفة صيحة عظيمة فيها تردد و اضطراب كالرعد إذا تمخض (تتبعها الرادفة) يعنى النفخة الثانية تعقب النفخة الأولى، و هى التى يبعث معها الخلق «۲».

و بمتابعة هذه المعانى: النفخة الأولى، النفخة الثانية، الصيحة، التردد، الاضطراب، الواقعة التى ترجف عندها الأرض و الجبال، الواقعة التى تردف الراجفة، و انشقاق السماء، انتثار الكواكب، الرعد إذا تمخض، بعث الخلائق و انتشارهم ... الخ.

بمتابعة أولئك جميعا يتجلى العمق الصوتى فى المراد كتجليه فى الألفاظ دلالة على الرجيف و الوجيف، و التزلزل و الاضطراب، و تغيير الكون، و تبدل العوالم يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۴۸) «۳».

فتعاقبت معالم الراجفة و الرادفة مع معالم الواقعة و القارعة و الآزفة، و تناسبت دلالة الأصوات مع دلالة المعانى فى الصدى و الأوزان.

۵- الغاشية، قال تعالى: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (۱) «۴». و هو خطاب للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلم يريد قد أتاك حديث يوم القيامة بغتة عن ابن عباس و الحسن و قتادة «۵».

قال الراغب (ت: ۵۰۲ ه) الغاشية كناية عن القيامة و جمعها غواش «۶».

و قال الزمخشرى (ت: ۵۳۸ ه): الغاشية الداهية التى تغشى الناس بشدائدها و تلبسهم أهوالها، يعنى القيامة «۷».

---

(۱) الزمخشرى، الكشاف: ۴/ ۲۱۲.

(۲) الطبرسى، مجمع البيان: ۵/ ۴۳۰.

(۳) إبراهيم: ۴۸.

(۴) الغاشیة: ۱.

(۵) الطبرسی، مجمع البیان: ۵/ ۴۷۸.

(۶) الراغب، المفردات: ۳۶۱.

(۷) الزمخشری، الکشاف: ۴/ ۲۴۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۷۶

و قال ابن منظور (ت: ۷۱۱ ه) الغاشیة القیامة، لأنها تغشی الخلق بأفزاعها، و قیل الغاشیة: النار لأنها تغشی وجوه الکفار. و قیل للقیامة غاشیة: لأنها تجلل الخلق فتعمهم «۱».

و بمقارنة هذه الأقوال، و ضم بعضها إلی بعض، یبدو أن الغاشیة کنی بها عن القیامة لأنها تغشی الناس بأهوالها، و تعم الخلق بأفزاعها، فهی تجللهم الإحاطة من کل جانب، و قد تکون هی النار التی تغشی وجوه الکفار، و هی الداهیة التی تغشی الناس بشدائدها، و تلبسهم أهوالها ... إلخ.

إذن، ما أقرب هذا المناخ المفزع، و الأفق الرهیب لمناخ الواقعة و القارعة و الآزفة و الراجفة و الرادفة، إنه منطلق واحد، فی صیغة واحدة، صدی هائل تجتمع فیه أهوالها، و صوت حافل تتساقط حوله مصاعبها تتفرق فیه الألفاظ لتدل فی کل الأحوال علی هذه الحقیقة القادمة، حقیقة یوم القیامة برحلتها الطویلة، فی الشدائد، و النوازل، و القوارع، و الوقائع، لتصور لنا عن کثب هیجانها و غلیانها، و شمولها و إحاطتها:

بَلْ یُرِیدُ الْإِنْسانُ لِیَفْجُرَ أَمامَهُ (۵) یَسْئَلُ أَیَّانَ یَوْمُ الْقِیامَةِ (۶) فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (۹) یَقُولُ الْإِنْسانُ یَوْمَئِذٍ أَیْنَ الْمَفَرُّ (۱۰) کَلَّا لا وَزَرَ (۱۱) إِلی رَبِّکَ یَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) «۲».

دلالة الصدی الحالم:

تنطلق فی القرآن أصداء حالمة، فی ألفاظ ملؤها الحنان، تؤدی معناها من خلال أصواتها، و توحی بمؤداها مجردة عن التصنیع و البدیع، فهی ناطقة بمضمونها هادرة بإرادتها، دون إضافة و إضاءة، و ما أکثر هذا المنحنی فی القرآن، و ما أروع توالیه فی آیاته الکریمة، و لنأخذ عینة علی هذا فنقف عند الرحمة من مادة «رحم» فی القرآن الکریم بجزء من إرادتها، و لمح من هدیها.

قال تعالی: أُولئِکَ عَلَیْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ «۳».

---

(۱) ابن منظور، لسان العرب: ۱۹/ ۳۶۲.

(۲) القیامة: ۵- ۱۲.

(۳) البقرة: ۱۵۷.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۷۷

و قال تعالی: لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَیْرٌ مِمَّا یَجْمَعُونَ «۱».

و قال تعالی: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ «۲».

و قال تعالی: کهیعص (۱) ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا (۲) «۳».

و قال تعالی: قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنا فِی رَحْمَتِکَ «۴».

و قال تعالی: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما کَما رَبَّیانِی صَغِیراً (۲۴) «۵».

فأنت تنادی من صدی «الرحمة» بأزیز حالم، و تحتفل من صوتها بنداء یأخذ طریقه إلی العمق النفسی، یهز المشاعر، و یستدعی

العواطف، ناضحا بالرضا و الغبطة و البهجة، رافلا بالخير و الإحسان و الحنان، فما ذا يرجو أهل الإيمان أكثر من اقتران صلوات ربهم برحمته بهم و عليهم، و لمغفرة من اللّه تعالى و رحمة خير مما تجمع خزائن الأرض و كنوزها، و هذا محمد صلى اللّه عليه و آله و سلم ذو الخلق العظيم، و المخائل الفذة، لو لا رحمة ربه لما لإن لهؤلاء القوم الأشداء فى غطرستهم و غلظتهم، و هذا زكريا تتداركه رحمة من اللّه و بركات فى أوج احتياجه و فزعه إلى اللّه عزّ و جلّ: إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا (۳) «۶».

فيهب له يحيى وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ «۷».

و وقفة مستوحية عند الأبوين الكريمين وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (۲۴) «۸».

فستلمس صيغة الرحمة قد تجلت بأرق مظاهرها الصادقة و أرقاها، توجيه رحيم، و استعارة هادفة، و عاطفة مهذبة، فقد اقترنت الرحمة بالاسترحام، و خفض الجناح بتواضع بل بذل إشفاقا و حنوا و حدبا، فكما يخفض الطائر الوجل أو المطمئن السارب جناحيه حذرا أو عطفا أو احتضانا لصغاره حبا بهم، أو صيانة لهم من كل الطوارئ، أو هما معا، فكذلك رحمة الولد البار بوالديه شفقة و رعاية، مواساة و معناة، فى حالتى الصحة و السقم، الرضا و الغضب،

---

(۱) آل عمران: ۱۵۷.

(۲) آل عمران، ۱۵۹.

(۳) مريم: ۱- ۲.

(۴) الأعراف: ۱۵۱.

(۵) الإسراء: ۲۴.

(۶) مريم: ۳.

(۷) البقرة: ۱۰۵.

(۸) الإسراء: ۲۴.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۷۸

الدعة و الاحتياج، يضاف إلى ذلك الدعاء من الأعماق «و قل رب ارحمهما» مجازاة على تربيته صغيرا، و الرحمة و ارحمهما، لفظان متلازمان فى بحة الحاء المنطلقة من الصدر فهى صوتيا مثلها دلاليا من القلب و إلى القلب، و من الشغاف إلى الشغاف، و هنا يظهر أن الرحمة ظاهرة واقعية تنبعث من داخل النفس الإنسانية، فيتفجر بها الضمير الحى النابض بالطهارة و النقاء و الحب السرمدى، فهى إذن لا- تفرض من الخارج بالقوة و القهر و الاستطالة، و إنما سبيلها سبيل الماء المتدفق من الأعالى لأنها صفة ملائكية، تمزج الإنسانية بالصفاء الروحى.

«و الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، و قد تستعمل تارة فى الرقة المجردة، و تارة فى الإحسان المجرد عن الرقة نحو: رحم اللّه فلانا.

و إذا وصف به البارى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، و على هذا روى أن الرحمة من اللّه إنعام و إفضال، و من الآدميين رقة و تعطف» «۱».

فاللّه تعالى تفرد بالإحسان فى رحمته إلى رعيته فجاء له الحمد مساوقا لهذه الرحمة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳) «۲». و نشر الرقة بين البشر فى الطباع لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ «۳».

و لو تابعنا أصل المادة لغويا لوجدنا ملاءمتها للمعنى صوتيا فى الرقة و اللحمة و التناسب، فالرحم رحم المرأة، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ «۴». و منه استعير الرحم للقرابة لكونهم من رحم واحدة نسبيا، لذلك قال تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ

بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ «۵». و لو لا قرابتهم لما كانت الولاية بينهم.

فكان الالتصاق فى الرحم قد نشر الالتصاق بالولاية من جهة، و جدد الرحمة بالرقة و المودة و العطف الكريم.

---

(۱) الراغب: المفردات: ۱۹۱.

(۲) الفاتحة: ۲- ۳.

(۳) الفتح: ۲۵.

(۴) آل عمران: ۶.

(۵) الأنفال: ۷۵.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۷۹

دلالة النغم الصارم:

أصوات الصفير فى وضوحها، و أصداؤها فى أزيزها، جعل لها وقعا متميزا ما بين الأصوات الصوامت، و كان ذلك- فيما يبدو لى- نتيجة التصاقها فى مخرج الصوت، و اصطكاكها فى جهاز السمع، و وقعها الحاصل ما بين هذا الالتصاق و ذلك الاصطكاك، هذه الأصوات ذات الجرس الصارخ هى: الزاى، السين، الصاد، يلحظ لدى استعراضها أنها تؤدى مهمة الإعلان الصريح عن المراد فى تأكيد الحقيقة، و هى بذلك تعبر عن الشدة حينا، و عن العناية بالأمر حينا آخر، مما يشكل نغما صارما فى الصوت، و أزيزا مشددا لدى السمع، يخلصان إلى دلالة اللفظ فى إرادته الاستعمالية، و مؤداه عند إطلاقه فى مظان المعنى.

و سأقف عند ثلاث صيغ قرآنية ختمت بحروف الصفير، لرصد أبعادها الصوتية، هى: «رجز» و «رجس» و «حصحص».

۱- الرجز، فى مثل قوله تعالى: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ «۱».

و قوله تعالى: لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ «۲».

و قوله تعالى: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ «۳».

و يظهر فى أصل الرجز الاضطراب لغة، فتلمس فيه الزلزلة فى ارتجاجها، و الهدة عند حدوثها، و النازلة فى وقوعها، و لما كان القرآن العظيم يفسر بعضه بعضا، فإننا نأنس على هذه المعانى فى كل من قوله تعالى:

فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ (۵۹) «۴».

و قوله تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ «۵».

---

(۱) سبأ: ۵.

(۲) الأعراف: ۱۳۴.

(۳) الأعراف: ۱۳۵.

(۴) البقرة: ۵۹.

(۵) الأعراف: ۱۶۲.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۰

و قوله تعالى: إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) «۱». و نستظهر فى الرجز الإرسال و الإنزال من السماء بضرس قاطع و أمر كائن باعتبار آخر العلاج بعد التحذير و الإنذار.

۲- و حينما نقارن لفظ «الرجز» بمثيله معنى و مبنى «رجس» و هى مكونة كتكوينها فى الراء و الجيم، و السين كالزاى من حروف الصفير شديدة الاحتكاك فى مخرج الصوت، و لها ذات الإيقاع على الأذن، حينما نقارن صوتيا و دلاليا بين الصوتين نجد المقاطع واحدة عند الانطلاق من أجهزة الصوت، و نجد المعانى متقاربة فى الإفادة، فقد قيل للصوت الشديد:

رجس و رجز، و بعير رجاس شديد الهدير، و غمام راجس و رجاس شديد الرعد.

قال تعالى: قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ (۷۱) «۲».

و قال تعالى: وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ «۳».

كل هذه الاستعمالات متواكبة دلاليا فى ترصد العذاب و صبّه و إنزاله، و هذا لا يمانع من أن تضاف للرجس جملة من المعانى الأخرى لإرادة الدنس و القذارة و مرض القلوب، و حالات النفس المتقلبة، نرصد ذلك فى كل من قوله: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «۴».

و قال تعالى: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ «۵».

و قال تعالى: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً «۶».

و قال تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (۱۲۵) «۷».

---

(۱) العنكبوت: ۳۴.

(۲) الأعراف: ۷۱.

(۳) يونس: ۱۰۰.

(۴) المائدة: ۹۰.

(۵) الحج: ۳۰.

(۶) الأحزاب: ۳۳.

(۷) التوبة: ۱۲۵.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۱

فالصوت فى المعانى كلها الصوت نفسه، و الصدى ذات الصدى، و من هنا أورد الراغب (ت: ۵۰۲ ه): أن الرجس يقع على أربعة أوجه:

إما من حيث الطبع، و إما من جهة العقل، و إما من جهة الشرع، و إما من كل ذلك. و الرجس من جهة الشرع الخمر و الميسر، و قيل: إن ذلك رجس من جهة العقل، و جعل اللّه تعالى الكافرين رجسا من حيث أن الشرك بالعقل أقبح الأشياء «۱».

۳- و حينما نقف عند الصاد فى مثل قوله تعالى:

قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ «۲». فإننا نستمع إلى الصوت المدوّى، إذ كانت الصاد واضحة الصدور من المخرج الصوتى. فكانت «حصحص» واضحة الظهور بانكشاف الأمر فيما يقهره على الإذعان، و هنا قد يمتلكك العجب لدى اختيار هذا اللفظ فى أزيزه، و وضوح أمره مع القهر، فلا تردّ دلائله، و لا تخبو براهينه.

فإذا شددت الصاد كانت دلالتها الصوتية، و إرادتها المعنوية، أوضح لزوما، و أشد استظهارا، و أكثر إمعانا كما فى قوله تعالى: أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (۹) وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (۱۰) «۳».

فالتحصيل إخراج اللب من القشور، كإخراج الذهب من حجر المعدن، و البر من السنابل، فهو إظهار لما فيها كإظهار اللب من القشر، أو كإظهار الحاصل من الحساب «۴».

و الصوت فى صيغة الإرعاب، و فى سياق الوعيد، قد تلمس فيه نزع ما فى القلوب من أسرار، و استخراج ما فيها من خفايا، دون طواعية من أصحابها؟؟

و قد يعطى دوى العبارة، و هيكل البيان، صيغة الإنذار، و أنت تصطدم بالوقوف عند السين من حروف الصفير فى قوله تعالى:

---

(۱) ظ: الراغب، المفردات: ۱۸۸.

(۲) يوسف: ۵۱.

(۳) العاديات: ۹- ۱۰.

(۴) ظ: الراغب، المفردات: ۱۲۱.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۲

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (۱۷) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (۱۸) «۱».

الصوت بين الشدة و اللين:

و لا نريد بهذا الملحظ المظاهر الصوتية للحروف الشديدة أو حروف اللين، و إنما نريد الدلالة الأصواتية للكلمات و هى تتشكل فى سياق يمثل الشدة حينا، و الرقة حينا آخر، فى دلالة تشير إلى أحدهما أولهما فى ذات اللفظ، أو جملة العبارة.

و من فضيلة النظم القرآنى أن تنتظم هذه الظاهرة فى الصوائت و الصوامت من الأصوات، و الصوائت ما ضمت حروف العلة عند علماء الصرف، و هى: الألف و الياء و الواو، و الصوامت بقية حروف المعجم، و هى الصحيحة غير المعتلة.

و يبدو أن الأصوات الصائتة بعد هذا هى الأصوات المأهولة بالانفتاح المتكامل لمجرى الهواء، فتنطلق دون أى دوى أو ضوضاء، و تصل إلى الأسماع مؤثرة فيها تأثيرا تلقائيا فى الوضوح و الصفاء، و علة ذلك انبساطها مسترسلة دون تضيق فى المخارج.

و يتضح من هذا أن الأصوات الصامتة ما كانت بخلاف ذلك فهى تتسم بتضيّق مجرى الهواء و اختلاسه، فتنطلق أصواتها بأصداء مميزة تختلف شدة و ضعفا بحسب مخارجها فتحدث الضوضاء من خلالها نتيجة احتباس الهواء بقدر ما.

ففى الصوائت نلحظ قوله تعالى: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) «۲». فى اقتران الواو و الألف فى موضع واحد من سوى و تقوى، كما نلحظ اقتران الياء و الألف فى سقيا من قوله تعالى:

فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (۱۳) «۳».

---

(۱) التكوير: ۱۵- ۱۸.

(۲) الشمس: ۷- ۸.

(۳) الشمس: ۱۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۳

فتجد استطالة هذين الحرفين فى كلا الموضعين، لا يصدهما شىء صوتيا، و هما يتراوحان دلاليا فى ألفاظ تحتكم الشدة و اللين، فالتذكير بخلق النفس الإنسانية قسما إلى جنب عملها بين الفجور و التقوى، و التحذير من الناقة إلى جنب التحذير من منع السقيا.

و فى الصوامت تجد مادة «مسّ» فى القرآن بأزيزها الحالم، و صوتها المهموس، و نغمها الرقيق، نتيجة لتضعيف حرف الصفير، أو التقاء حرفيه متجاورين كقوله تعالى: وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ (۳۵) «۱».

هذه المادة فى رقتها صوتيا، و شدتها دلاليا، تجمع بين جرس الصوت الهادئ، و بين وقع الألم الشديد، فالمس يطلق- عادة- و يراد به

كل ما ينال الإنسان من أذى و مكروه فى سياق الآيات التالية:

قال تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ «۲» و قال تعالى: وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ (۳۳) «۳».

و قال تعالى: فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا (۴۹) «۴» و قال تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ (۱۰) «۵».

و قال تعالى: وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ «۶».

و قال تعالى: لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۶۸) «۷».

و قال تعالى: وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۸۳) «۸» فهذه الصيغ المختلفة من المادة، أوردناها للدلالة على شدة البلاء،

---

(۱) النور: ۳۵.

(۲) آل عمران: ۱۴۰.

(۳) الروم: ۳۳.

(۴) الزمر: ۴۹.

(۵) هود: ۱۰.

(۶) الأنبياء: ۴۶.

(۷) الأنفال: ۶۸.

(۸) الأنبياء: ۸۳.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۴

و وقع المصاب، و فرط الأذى، و اللفظ فيها رفيق رقيق، و لكن المعنى شديد غليظ.

و للدلالة على هذا الملحظ، فقد وردت المادة فى صوتها الحالم هذا مقترنة بالمس الرفيق لاستخلاص الأمرين فى حالتى، السراء و الضراء الشر و الخير، كما فى كل من قوله تعالى:

أ- وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ «۱».

ب- إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (۲۱) «۲».

فالضراء تمسهم إذن، و السراء تمسهم كذلك، و الشر يمسهم و الخير كذلك، و لم يشأ القرآن العظيم تغيير المادة بل اللفظ عينه فى الحالتين، و ذلك للتعبير عن شدة الملابسة و الملامسة و الالتصاق.

و كما ورد اللفظ فى مقام الضر منفردا فى أغلب الصيغ، و ورد مثله جامعا لمدركى الخير و الشر، فقد ورد للمس الجميل خاصة فى قوله تعالى: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ «۳».

و قد ينتقل هذا اللفظ بدلائله إلى معان آخر، لا علاقة لها بهذا الحديث دلاليا، و إن تعلقت به صوتيا، كما فى إشارة القرآن إلى المس بمعنيين مختلفين أخريين.

الأول: كنى فيه بالمس عن النكاح فى كل من قوله تعالى:

أ- قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ (۲۰) «۴».

ب- لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ (۲۳۶) «۵».

الثانى: و قد عبر فيه بالمس عن الجنون كما فى قوله تعالى:

---

(۱) الأعراف: ۹۵.

(۲) المعارج: ۱۹- ۲۱.

(۳) آل عمران: ۱۲۰.

(۴) مریم: ۲۰.

(۵) البقرة: ۲۳۶.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۸۵

الَّذِینَ یَأْکُلُونَ الرِّبا لا یَقُومُونَ إِلَّا کَما یَقُومُ الَّذِی یَتَخَبَّطُهُ الشَّیْطانُ مِنَ الْمَسِّ (۲۷۵) «۱».

و قد اجتمعت کلها فی طبیعة الصوت.

الألفاظ دالة علی الأصوات:

توافرت طائفة من الألفاظ الدقیقة عند إطلاقها فی القرآن، و تتمیز هذه الدقة بکون اللفظ یدل علی نفس الصوت، و الصوت یتجلی فیه ذات اللفظ، بحیث یستخرج الصوت من الکلمة، و تؤخذ الکلمة منه، و هذا من باب مصاقبة الألفاظ للمعانی بما یشکل أصواتها، فتکون أصوات الحروف علی سمت الأحداث التی یراد التعبیر عنها.

یقول ابن جنی (ت: ۳۹۲ ه) «فأما مقابلة الألفاظ بما یشکل أصواتها من الأحداث فباب عظیم واسع، و نهج متلئب عند عارفیه مأموم، و ذلک أنهم کثیرا ما یجعلون أصوات الحروف علی سمت الأحداث المعبر عنها، فیعدلونها بها، و یحتذونها علیها، و ذلک أکثر مما نقدره، و أضعاف ما نستشعره، و من ذلک قولهم: «خضم و قضم، فالخضم لأکل الرطب ...

و القضم لأکل الیابس» «۲».

و نضع فیما یأتی أمثلة لهذا الملحظ فی بعض ألفاظ القرآن العظیم:

۱- مادة «خر» توحی فی القرآن بدلالتها الصوتیة بأن هذا اللفظ جاء متلبسا بالصوت علی سمت الحدث فی کل من قوله تعالی:

أ- وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللَّهِ فَکَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ «۳».

ب- فَخَرَّ عَلَیْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ «۴».

ج- فَلَمَّا خَرَّ تَبَیَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ الْغَیْبَ (۱۴) «۵».

---

(۱) البقرة: ۲۷۵.

(۲) ابن جنی، الخصائص: ۱/ ۶۵.

(۳) الحج: ۳۱.

(۴) النحل: ۲۶.

(۵) سبأ: ۱۴.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۸۶

د- فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راکِعاً وَ أَنابَ (۲۴) «۱».

فإن هذا اللفظ و قد جاء بصیغة واحدة فی عدة استعمالات، یدل بمجملة علی السقوط و الهوی، و هذا السقوط، و ذلک الهوی: مصحوبان بصوت ما، و هذا الصوت هو الخریر، و الخریر هو صوت الماء، أو صوت الریح، أو صوتهما معا، فالحدث علی هذا مستل من جنس الصوت، و من هنا یستشعر الراغب (ت: ۵۰۲ ه) دلالة اللفظ الصوتیة فیقول:

«فمعنى خرّ سقط سقوطا يسمع منه خرير، و الخرير يقال لصوت الماء و الريح و غير ذلك مما يسقط من علو.

و قوله تعالى: خَرُّوا سُجَّداً «۲» فاستعمال الخرّ تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط، و حصول الصوت منهم بالتسبيح، و قوله من بعده وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ «۳». فتنبيه أن ذلك الخرير كان تسبيحا بحمد اللّه لا بشيء آخر» «۴».

و وجه الدلالة فيما يبدو أن الخرّ يأتى بمعنى السقوط من شاهق، و أن الخرير إنما يستعمل لصوت الماء أو الريح أو الصدى محاكيا لهذا اللفظ فى ترديده، فلم يرد مجرد السقوط من «خر» و إنما أراد الصوت مضافا إليه الوقوع و الوجبة فى إحداث هذا الصوت، و كانت هذه الإضافة الدلالية صوتية سواء أ كانت فى صوت الماء، أم بالوقوع و السقوط، أم بالتسبيح.

و اللّه أعلم.

۲- مادة «صرّ» فى كلمة «صر» من قوله تعالى:

كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ «۵».

أو كلمة «صرصر» فى كل من قوله تعالى:

أ- وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (۶) «۶».

---

(۱) ص: ۲۴.

(۲) السجدة: ۱۵.

(۳) السجدة: ۱۵.

(۴) الراغب، المفردات: ۱۴۴.

(۵) آل عمران: ۱۱۷.

(۶) الحاقة: ۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۷

ب- إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) «۱».

هذه المادة فى هذه الصيغ الثلاث: مرفوعة، مجرورة، منصوبة، وردت فى القرآن و أنت تلمس فيها اصطكاك الأسنان، و ترديد اللسان فالصاد فى وقعها الصارخ، و الراء المضعّفة، و التكرار للمادة فى صرصر، قد أضفى صيغة الشدة، و جسّد صورة الرهبة، فلا الدفء بمستنزل، و لا الوقاية متيسرة، و ذلك ما يهد كيان الإنسان عند التماسه الملجأ فلا يجده، أو النجاة فلا يصل شاطئها، أو الوقاية من البرد القارس فلا يهتبلها.

فى لفظ «الصر» ذائقة الشتاء، و نازلة الثلوج، و أصوات الرياح العاتية، مادة الصر إذن: كما عبر عنها الراغب (ت: ۵۰۲ ه) «ترجع إلى الشدة لما فى البرودة من التعقد» «۲».

قال الزمخشرى (ت: ۵۳۸ ه): «الصر الريح الباردة نحو الصرصر، و فيه أوجه:

أحدها: أن الصر فى صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرة بمعنى فيها قرة صر، كما تقول: برد بارد على المبالغة.

الثانى: أن يكون الصر مصدرا فى الأصل بمعنى البرد فيجىء به على أصله.

الثالث: أن يكون شبه ما كانوا ينفقون بالزرع الذى جسه البرد فذهب حطاما «۳».

و لكننا نضع أيدينا على الحس الصوتى فى اللغة، فيعطينا دلالة خاصة، مواكبة لسياق الحدث فى هذا الصوت، فريح صر و صر صر شديدة البرودة، و قيل: شديدة الصوت، و صر و صرصر: صوت الصرير.

قال ابن الأنبارى فى قوله تعالى: كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ «۴». فيها أقوال: أحدها: فيها صر أى برد، و الثانى فيها تصويت و حركة.

(۱) القمر: ۱۹.

(۲) الراغب، المفردات: ۲۷۹.

(۳) الزمخشرى، الكشاف: ۱/ ۴۵۷.

(۴) آل عمران: ۱۱۷.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۸

و الصرة أشد الصياح تكون فى الطائر و الإنسان. و صر صماخه صريرا: صوّت من العطش، و صرصر الطائر: صوت.

و فى حديث جعفر بن محمد الصادق عليه السلام و الصر عصفور أو طائر فى قده،

أصفر اللون سمى بصوته، يقال صر العصفور يصرّ إذا صاح و صر الجندب يصر صريرا، و صر الباب يصر، و كل صوت شبه ذلك فهو صرير إذا امتدّ، فإذا كان فيه تخفيف و ترجيع فى إعادة ضوعف كقوله: صرصر الأخطب صرصرة، كأنهم قدروا فى صوت الجندب المد، و فى صوت الأخطب الترجيع فحكوه على ذلك «۱».

فالصوت هنا ملازم ل (صر) و (صرصر) تارة فى الشدة، و أخرى فى صوت الريح، و مثلها فى أشد الصياح، و تارة فى التصويت من العطش، و سواها فى تصويت الطائر، و أهمها (الصر) سمى بصوته، و يليه العصفور إذا صاح، و من ثم صرير الباب، و صر الجندب، و كل صوت يشبه ذلك فى التخفيف أو الترجيع.

و «صر» فى الآيات ليست بمعزل عن هذه المصاديق فى الشدة و الصوت و التصويت، و تسمية الشىء باسم صوته.

و الذكر الحكيم حافل بالألفاظ دالة على الأصوات، جريا على سنن العرب فى تسمية اللفظ باسم صوته.

و اللّه تعالى أعلم.

اللفظ المناسب للصوت المناسب:

كل لفظ فى القرآن الكريم اختير مكانه و موضعه من الآية أو العبارة أو الجملة فإن غيره لا يسد مسدّه بداهة، فقد اختار القرآن اللفظ المناسب فى الموقع المناسب من عدة وجوه، و بمختلف الدلالات، إلا أن استنباط ذلك صوتيا يوحى باستقلالية الكلمة المختارة لدلالة أعمق، و إشارة أدق، بحيث يتعذر على أية جهة فنية استبدال ذلك بغيره، إذ لا يؤدى غيره المراد

(۱) ظ: ابن منظور، لسان العرب: مادة: صرر.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۸۹

الواعى منه، و ذلك معلم من معالم الإعجاز البيانى فى القرآن.

۱- فى قوله تعالى: يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ «۱». جرس موسيقى حالم، و صدى صوتى عميق، و إطلاق للأصوات من أقصى الحلق و ضمها للشفة ثم إعادة إطلاقها، فيما به يتعين موقع «أوبى» بحيث لا يسدّ مسدّها غيرها من الألفاظ، فالمراد بها ترجيع التسبيح من آب يئوب، على جهة الإعجاز بحيث تسبح الجبال، و هو خلاف العادة، و خرق لنواميس الكون فى ترديد الأصوات من قبل ما لا يصوت، و لو استبدل هذا اللفظ فى غير القرآن لعاد النظر مهلهلا، و الدلالة الصوتية منعدمة.

قال الزمخشرى (ت: ۵۳۸ ه): «فإن قلت: أى فرق بين هذا النظم و بين أن يقال: و آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه و الطير؟ قلت: كم بينهما؟ أ لا ترى إلى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية، و كبرياء الألوهية، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا و أذعنوا، و إذا دعاهم سمعوا و أجابوا، إشعارا بأنه ما من حيوان و جماد، و ناطق و صامت إلا و

هو منقاد إلى مشيئته، غير ممتنع عن إرادته» «۲».

و تقرأ الآيـة: يا جِبالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَ الطَّيْرَ (۱۰) «۳». بالتشديد، و تقرأ بالتخفيف، فمن قرأ (أوّبى) بالتشديد فمعناه: يا جبال سبحى معه، و رجعى التسبيح لأنه قال: سخرنا الجبال معه يسبحن، و من قرأ (أوبى) بالتخفيف، فمعناه: عودى معه بالتسبيح كلما عاد فيه «۴».

فالنظام الصوتى بهـذا هو الذى يحقق المعنى الجملى، فإن كانت (أوبى) بالتشديد، و هى القراءة المتعارفة، فالمراد: التسبيح فى ترديده و ترجيعه، و إن كانت بالتخفيف، فتعنى الرجوع و الأوبة، و عليه فالمراد إذن: العودة إلى التسبيح كلما عاد:

---

(۱) سبأ: ۱۰.

(۲) الزمخشرى، الكشاف: ۳/ ۲۸۱.

(۳) سبأ: ۱۰.

(۴) ظ: ابن منظور، لسان العرب:

۱/ ۲۱۲.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۰

۲- فى قوله تعـالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيـاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتـاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) «۱». تبرز كلمة «أوهن» لتعطى معنى الضعف، و قد تحقق هذا المعنى كلمة (أوهى) و لكن القرآن الكريم استعمل أوهن دون أوهى، و ذلـك لمـا يفرزه ضم حروف الحلق، و أقصـى الحلق إلى النون من التصـاق و غنـة لا تتأتى بضم الألف المقصورة إليها صوتيا، و حينئـذ تصل الكلمـة إلى الأسـماع، و تصك الآذان، و هى تحمل لونا باهتا للعجز مؤكـدا بضم هذه النون- من ملحظ صوتى فقط- إلى تلك الحروف لتحـدث واقعا خاصا يشـعر بالضـعف المتناهى لا بمجرد الضـعف وحـده. و كان هـذا بتأثير مباشـر من دلالة اللفـظ الصوتيـة، إذ أحـدثت فيهـا النـون و هى من الصوامت الأنفيـة صـدى و إيقاعـا لا- تحـدثه الألـف المقصورة و هى صوت حلقى خالص، لا غنة معه، و لا ضغط، و لا إطباق.

و هـذا التشبيه باختيار هـذا اللفظ صوتيا، يجمع إليه إيحائيا دلالـة أن الأصـنام و الأشـخاص و القيم اللاإنسانيـة ... واهنة متداعية عاجزة حتى عن حمايـة كيانهـا، و صـيانة وجودهـا، لأنهـا فى تكوين رخو واهن، و بنـاء تتـداعى أركانه، و مثل هـذا التكوين و ذلك البناء لا اعتماد عليهما، و لا اعتداد بهما، إنما القوة باللّه، و الحماية من اللّه، و الالتجاء إلى اللّه فهو وحده الركن القويم.

قال الزمخشرى (ت: ۵۳۸ ه): «و قد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، و كما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دنيا دينا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون» «۲».

و إذا كان القرآن الحكيم قد امتاز بتخير الألفاظ و انتقائها، فإنه يرصد بذلك ما لهذه الألفاظ دون تلك:

«من قوة تعبيرية، بحيث يؤدى بها فضلا عن معانيها العقلية، كل ما

---

(۱) العنكبوت: ۴۱.

(۲) الزمخشرى، الكشاف: ۳/ ۲۰۶.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۱

تحمل فى أحشائها من صور مدخرة، و مشاعر كامنة، لفّت نفسها لفّا حول ذلك المعنى العقلى» «۱».

و هو ما تنبّه إليه الزمخشرى فى تعليله ذلك من ذى قبل.

۳- و فى قوله تعـالى: وَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًـا رَجُلَيْنِ أَحَـدُهُما أَبْكَمُ لا- يَقْـدِرُ عَلى شَـيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ

يَسْتَوِى هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۶) «۲».

تنهض كلمة «كل» و هى صارخة مشرأبة، لتوحى عادة بمعنى العالة فى أبرز مظاهرها، و قد استعملها القرآن لإضاءة المعنى بما فيها من غلظة و شدة و ثقل، لهذا الصدى الصوتى الخاص المتولد من احتكاك الكاف و إطباق اللام على اللهاة، و ما ينجم عن ذلك من رنة فى الذاكرة، و شدة على السمع، فصوت الكاف فى العربية، و هو من حروف الإطباق، شديد انفجارى مهموس، و صوت اللام فى العربية، و هو من حروف الأسنان و اللثة، مجهور متوسط بين الشدة و الرخاوة «۳».

و قد اجتمع المهموس و المجهور معا فى هذا اللفظ، فإذا علمنا أن المهموس هو الصوت الذى يظل النفس عند النطق به جاريا لا يعوقه شىء، و أن المجهور هو الصوت الذى يمتنع النفس عن الجريان به عند النطق أدركنا سر اجتماع الكاف المهموسة و اللام المجهورة فى هذا اللفظ، و ما فى ذلك من عسر فى اللفظ دال على عسر المعنى و غلظته.

يقول أستاذنا المخزومى: «فإذا اجتمع صوت مجهور، و آخر مهموس، فقد اجتمع صوتان مختلفان لكل منهما طبيعة خاصة، و الجمع بين هذين الصوتين يقتضى عضو النطق أن يعطى كل صوت منهما حقه، و فى ذلك عسر لا يخفى، فإذا تألفت كلمة و قد تجاور فيها صوتان، أحدهما مجهور، و الآخر مهموس، فما يزال أحدهما يؤثر فى الآخر حتى يصيرا مجهورين معا، أو مهموسين معا» «۴».

---

(۱) تشارلتن، فنون الأدب: ۷۶.

(۲) النحل: ۷۶.

(۳) ظ: ابن جنى، سر صناعة الأعراب، ۱/ ۶۹.

(۴) مهدى المخزومى، فى النحو العربى، قواعد و تطبيق: ۸.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۲

لقد ظل النفس جاريا مستطيلا فى اللام عند مجاورتها للكاف، و زاد التشديد فى استطالتها، لتوحى الكلمة بأبعادها الصوتية: بأن هذا العبد شؤم لا خير معه، و بهيمة لا أمل بإصلاحه، فهو عالة و زيادة، بل هو «كل» بكل التفصيلات الصوتية لهذا اللفظ.

لقد كان اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب حقلا يانعا فى القرآن لا للدلالة الصوتية فحسب، بل لجملة من الدلالات الإيحائية و اللغوية و الهامشية، و تلك ميزة القرآن الكريم فى تخير الألفاظ.

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۳

«خاتمة المطاف»

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۵

بعد هذه الجولة الفسيحة فى أبعاد الصوت اللغوى فى القرآن الكريم، يجدر بى فى خاتمة المطاف أن أضع أبرز النتائج و الكشوفات العلمية التى يسرها البحث.

كان الفصل الأول بعنوان: أبعاد الصوت اللغوى و قد بحثنا فيه:

۱- مصطلح الصوت اللغوى، فأفضنا الحديث عن الصوت لغة، و الصوت ذبذبة، و الصوت غنائيا، و الصوت عند الأصواتيين العرب، و انتهينا أن الصوت بوصفه لغويا يعنى فى هذه الدراسة المتخصصة: تتبع الظواهر الصوتية لحروف المعجم العربى، و تطبيقها تنظيريا فى القرآن العظيم بخاصة لأنه حقل البحث، و موضوع تفصيلاته اللغوية، فيما أثبت البحث: أن مصطلح علم الأصوات: مصطلح عربى أصيل سبق إليه علماء الإسلام و العربية.

۲- و عرض الفصل إلى تقسيم الصوت بين العرب و الأوروبيين فكانت دقة العرب أن توصلوا إلى تقسيم الحروف إلى طائفتين

صوتيتين هما: الأـصوات الصائتة و الأصوات الصامتة، و كانت هذه التسمية دليل الأوروبيين- فيما بعد- فى التقسيم إلى الأصوات الساكنة و أصوات اللين.

و توصل العرب إلى صفات هذه الأـصوات فى مخارجها، و قسموا الصوت بعد ذلك إلى مجهور و مهموس، و شديد و مطبق، و سواهما، و هو ما توصل إليه المحدثون بعد دراسات تشريحية لأجهزة النطق.

و كان تقسيم العرب و المسلمين للأصوات باعتبار مخارجها مخططا

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۶

تفصيليا لعملية إحداث الأصوات مع تسمياتها فى المصطلح الصوتى ذلك ما قاربه و حقق القول فيه علماء الأصوات المحدثون، و هم يسخرون لذلك أجهزة العلم الفيزولوجية، بينما اكتشفه المسلمون و العرب بذائقتهم الفطرية الخالصة.

۳- و عرضنا لتطور الصوت اللغوى فى التحول التأريخى لنظام الأصوات، و وقفنا عند التحول التركيبى الذى ينشأ عادة نتيجة لظواهر تغيير أصوات اللغة الواحدة، و استبدال صوت منها بصوت آخر، مما نشأ عنه مصطلح المماثلة عند استجابته للإبدال الصوتى الموقت، و مصطلح المخالفة فيما استجاب للإبدال الصوتى الدائم، و بحثنا المصطلحين فى شذرات أحسبها مفيدة، و عرضنا بعد هذا الجزء- فى ضوء تطور الصوت فى المقطع أو عند المتكلم- لظاهرتى النبر و التنغيم، و هما موضع عناية عند العرب من الناحية النظرية، مع فرض توافر لحاظه المشترك فى التّطبيق القرآنى.

۴- و تناولنا نظرية الصوت اللغوى عند العرب فيما شهد بأصالته المحدثون من الأوروبيين و المستشرقين، فكان ما توصل إليه العرب: عبارة عن المادة التخطيطية لمئات الجزئيات، و عشرات الموضوعات الصوتية المتخصصة مما أشاروا إليه فى كتبهم مفردات منظمة متناسقة مثلت نظرية الصوت فى جميع المستويات الصوتية المعقدة، ابتداء من أجهزة النطق، و مرورا بكل التفصيلات المضنية للأصوات، و انتهاء بأقيسة الزمان و المكان للصوت.

و كان الفصل الثانى بعنوان: منهجية البحث الصوتى و قد عرضنا فيه لتأريخية البحث الصوتى فى منهجيته العربية المقارنة بالفكر الأوروبى الحديث مما توصل معه البحث إلى أصالة المنهجية الصوتية عند العرب بدءا من:

۱- الخليل بن أحمد الفراهيدى و مدرسته الصوتية، فرأينا الخليل (ت: ۱۷۵ ه) أول من وضع الصوت اللغوى موضع التطبيق الفنى فى مقدمة العين باعتبارها أول مادة صوتية وصلت إلينا فى كتب اللغة، و تتبعنا ذلك فى أبرز إفاضات الخليل فوجدناه قد نص على تسمية كل نوع من

الصوت اللغوى فى القرآن، ص: ۱۹۷

الأصوات، و قد تذوق الحروف من مخارجها، و حدد كل صنف من أصناف الحروف المعجمية على بنية صوتية متميزة عن سواها، و وضع مخططا شاملا- لمخرج كل صوت إنسانى مضافا إلى حيزه الخاص، و عرض إلى التمايز الصوتى فى اللغة، فهو يرى فى اللغة امتدادا طبيعيا للأصوات من خلال حصره للمعجم العربى بأبعاد صوتية لم تخطئ و لا مرة واحدة.

۲- و وجدنا سيبويه (ت: ۱۸۰ ه) قد تأثر بمدرسة الخليل الصوتية فسار على نهجه فى كثير من الأبعاد، و اجتهد فى القسم الآخر، و كان له قدم سبق فى قضايا الإدغام، و تمييزه الدقيق بين صفتى الجهر و الهمس، و رأينا ابن دريد- و هو امتداد لهما- يصدر فى الجمهرة عن علم الخليل و منهجية سيبويه، و يضيف بعض الإشارات الصوتية فى ائتلاف الحروف.

۳- و وقفنا عند الفكر الصوتى لأبى الفتح عثمان بن جنى (ت: ۳۹۲ ه) باعتباره أول من استعمل مصطلحا فنيا للدلالة على الأصوات سماه:

«علم الأـصوات» و كان منهجه الصوتى مثار إعجاب للبحث بما صح أن يطلق عليه اسم الفكر الصوتى، لأنه يتمحّض لهذا العلم، و يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية دقيقة منظّمة، و يتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف فى بحوث قيمة عرضت

لجوهر الصوت فی کتابیه:

سر صناعة الاعراب و الخصائص.

و کان منهجه یضم تتبع الحروف من مخارجها و ترتیبها علی مقاطع، و إضافته ستة أحرف مستحسنة بأصواتها إلی حروف المعجم، و ثمانیة أحرف فرعیة مستقبحة بأصواتها، و یحصر مخارج الحروف فی ستة عشر مخرجا تشریحیا منظرا له بأمثلته، فکان فکر ابن جنی الصوتی قد حقق نظاما أصواتیا قارنّاه بالفکر الصوتی العالمی من خلال هذه الظواهر:

أ- مصدر الصوت و مصطلح المقطع.

ب- جهاز الصوت المتنقل.

ج- أثر المسموعات فی تکوین الأصوات.

د- محاکاة الأصوات.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۹۸

و کان ما قدمه ابن جنی تأصیلا صوتیا لکثیر من الملامح و الخصائص المکتشفة فی ضوء تقدم العلم الفیزولوجی الحدیث.

۴- و عالجنا موضوع: القرآن و الصوت اللغوی، فوجدنا المباحث الصوتیة عند العرب قد اتخذت القرآن أساسا لتطلعاتها، و آیاته مضمارا لاستلهام نتائجها، فهی حینما تمازج بین الأصوات و اللغة، و تقارب بین اللغة و الفکر، فإنما تتجه بطبیعتها التفکیریة لرصد تلک الأبعاد مسخرة لخدمة القرآن العظیم.

و وجدنا أن جوهر الصوت العربی قد اتسم بالوضوح لأنه یتمثل فی قراءة القرآن، فکان القرآن هو المنطلق الأساس لعلم الأصوات فی مجموعتین دراستین هما:

الدراسات القرآنیة+ الدراسات البلاغیة.

و أعطینا مجملا صوتیا لکلا المنهجین.

و کان الفصل الثالث بعنوان: الصوت اللغوی فی فواتح السور القرآنیة.

و قد بحث بشکل دقیق المفردات الآتیة:

۱- توجیه القرآن الکریم اهتمام العرب و المسلمین للصوت اللغوی منذ عهد مبکر للإفادة من الزخم الصوتی فی اللغة، و هو یستهل بعض السور القرآنیة بجملة محددة من الحروف الهجائیة التی تنطق بأصواتها أسماء، لا- بأدواتها حروفا للإفادة من صوتیتها لدی الاستعمال دون حرفیتها، و قد شغل علماء الإعجاز القرآنی بالتصنیف الصوتی لهذه الحروف فی دلائلها الصوتیة، و أسرارها الترکیبیة، و استیعابها لأنواع الأصوات و تقسیماتها کافة مجهورها و مهموسها، شدیدها و رخوها، مطبقها و منفتحها ... إلخ.

۲- و عرض البحث لما أفاض الباقلانی فی تقسیمه أصناف هذه الأصوات، فجعلها مشتملة علی کل الأصناف الصوتیة فی النطق.

۳- و تناول اهتمام الزمخشری بجدولة فواتح السور القرآنیة، و عدد

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۱۹۹

المهموس و المجهور، و الشدید و الرخو، و المطبق و المنفتح، و المستعلی و المنخفض، و حروف القلقلة، فسبرها تفصیلا و أورد المسمیات تخصیصا بعد تعقب حکمة هذا الترکیب، و فلسفة هذه الأصوات، فکان اللّه سبحانه و تعالی قد عدد علی العرب الأصوات التی منها ترکیب کلامهم إلزاما للحجة.

۴- و وجد البحث أن الزرکشی قد وقف عند الصدی الصوتی لهذه الحروف من عدة وجوه منها:

أ- عدد هذه الأصوات فیما ابتدئ به بثلاثة أحرف و علل ذلک صوتیا فی المخرج و اعتماد اللسان، و اعتبر ذلک مجاریا لأصل مخارج الحروف: الحلق، اللسان، الشفتین.

ب- تعقب ملاءمة بعض الأصوات لبعضها فی فواتح السور.

ج- تنبهه إلی علاقة بدء السورة بصوت ما، و اشتمال السورة علی صورة ذلک الصوت فی حروف کلماتها، أو دلائل عباراتها.

۵- و لم یفت الفصل أن یستقری المراد من هذه الحروف و الأصوات فی بدایات السور، و أن یستجلی الحکمة من إیرادها، و أعطی کشفا تفصیلیا للآراء المتضاربة أو المتقاربة فی ذلک، و انتهی أنها من المتشابه الذی استأثر اللّه تعالی بعلمه، و لکن هذا لا یخرجها من جوهرها الإنصاتی فهی من جنس أصوات العرب، و هی من سنخ حروف معجمهم اللغوی، و من روح أصداء لغة القرآن العظیم، فهی إشارات الهیة لبیان إعجاز القرآن، و ذلک من جملة الفوائد المترتبة علی أسرار هذه الحروف.

و کان الفصل الرابع بعنوان: الصوت اللغوی فی الأداء القرآنی. و قد تناول الموضوعات الآتیة:

۱- أصول الأداء القرآنی فی أول إشارة إلیه عند أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السلام- فی معرفة الوقف و تجوید الحرف.

فتحدث عن الوقف فی مختلف الوجوه، و شتی الأحوال، لا سیما مصطلحاته الفنیة عند علماء الأداء.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۰۰

۲- مهمة الوقف فی الأداء القرآنی، و قد عرض فیه إلی شیوع الوقف فی فواصل الآی بصورها کافة، و مقابلة ظواهر الاعراب فی علاماتها بالآیات التی تلتزم حرفا معینا، و التی لا تلتزمه فی أواخر الفواصل، و بیان فضله فی تناسق العبارة و تقاطرها، و هی مختلفة فی المواقع الاعرابیة.

۳- نصاعة الصوت فی الأداء القرآنی، و قد تناول نصاعة الصوت فی إعطاء الحرف حقه من النطق المحقق الذی لا یشتبه بسواه، و نشوء مصطلح التجوید، و ابتناء قواعده علی مخارج الحروف صوتیا، مع کشف بتلک المخارج أدائیا.

و کان الحدیث عن خصائص کل صوت، و سمات کل حرف، تنفیذا عملیا للأداء القرآنی علی الوجه الأکمل.

۴- الصوت الأقوی فی الأداء القرآنی، و قد عرض لظاهرة الإدغام عرضا وافیا لمقاربتها من ظاهرة المماثلة عند الأصواتیین المحدثین، فأبان حدّه و تفریعه و تقسیمه و تنظیره، و ربط بین ذلک و بین شقی المماثلة الرجعیة و التقدمیة، و قد ظهر من بین ذلک: أن الصوت القوی هو الذی یحتلّ مساحة النطق بدل الصوت الضعیف، فالصوت الأقوی هو المسیطر علی النطق. و عرض لدور أبی عمرو بن العلاء فی إرساء قواعد الإدغام و القول به، و تحدث عن الحروف التی تدغم فی أمثالها، و الحروف التی تدغم فی مجانسها و مقاربها، و نظر لذلک تطبیقا بکوکبة من آیات القرآن العظیم لکلا النوعین المماثل و المجانس. و قام برصد النتائج الصوتیة فی حصر الحروف التی تدغم فی أمثالها و أجناسها، و کشف الحروف التی تدغم و یدغم فیها، و خلص إلی رصد طائفة من الضوابط الصوتیة، و ألحق ذلک بدراسة عن الإظهار، و الإقلاب، و توسع فی التنظیر للإخفاء لکونه حالة بین الإظهار و الإدغام.

۵- توظیف الأداء القرآنی فی الأحکام، و قد وجد البحث أن أداء القرآن فی ضوء التلاوة قد عاد موضوعا للأحکام الشرعیة الدقیقة فی ملحظ القراءة بالذات، و ذلک بأداء الحروف من مخارجها، و أن تکون هیئة کل کلمة موافقة للأسلوب العربی فی حرکة البنیة و السکون و الاعراب و البناء و الحذف و القلب و الادغام و المد الواجب، و أمثال هذا فی عدة ملاحظ، أمکن رصدها بالآتی.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۰۱

أ- فی الملحظ الصوتی للکلمة الواحدة فی القراءة القرآنیة عند الصلاة، و تبلور أحکام ذلک فی جملة من الفروع.

ب- فی الملحظ الصوتی عند کون الکلمتین أو الأکثر بنفس واحد دون فصل أو وقوف فی طائفة من الأحکام.

ج- فی أحکام مخرج الصوت و نطقه، فی الکلمات و الحروف و الحرکات، و الاعراب و البناء، و مظاهر الأداء فی مفصّل من المسائل.

د- فی الالتزام بمعطیات علماء الأداء القرآنی، و أئمة النحو العربی لإظهار أصول الأصوات فی الإحداث، و کذلک أحکامه الخاصة من التشریع.

ه- فی مراعاة أصول الإدغام، و اختلاس الأصوات و إبدالها، و قراءة القرآن بخصوصه، تحررت مسائل ذات ذائقة صوتیة متمیزة.

الفصل الخامس و کان بعنوان: الصوت اللغوی فی فواصل الآیات القرآنیة.

و قد تناول بالبحث المفردات الآتیة:

۱- مصطلح الفاصلة فی القرآن، و أرسی أصولها علی قاعدة صلبة من الاصطلاح بحیث لا تشتبه بقرینة السجع، أو قافیة الشعر، و کانت التسمیة بسبب من إرادتهم تمیز القرآن و تشریفه عن مشارکة غیره له فی المسمیات.

۲- معرفة فواصل القرآن صوتیا، و کان لذلک طریقان: توقیفی و قیاسی، و ظهر أن القرآن لا یلتزم فی الفاصلة الوقوف عند حرف معین فی مواضع من السور، و یلتزمه فی مواضع أخر، و یجمع بین الالتزام و عدمه فی بعض السور، فکان الانتقال فی فواصله أمرا شائعا و مطردا، و نماذجه هائلة.

۳- ظواهر الملحظ الصوتی فی فواصل الآیات، و رصد فی عدة ملامح:

أ- زیادة حرف ما فی الفاصلة رعایة للبعد الصوتی.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۰۲

ب- حذف حرف ما فی الفاصلة رعایة للنسق القرآنی.

ج- تأخیر ما حقه التقدیم، و تقدیم ما حقه التأخیر، عنایة بالسیاق.

د- ختم کلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد و اللین و إلحاق النون- أحیانا- للتمکن من التطریب.

۴- الإیقاع الصوتی فی موسیقی الفواصل، و قد عالج موافقة جملة من الآیات فی فواصلها و زنتها لجملة من بحور الشعر العربی، و قد ربط البحث مثل هذه السمات بالإیقاع الصوتی، و فسر ظواهرها صوتیا، لدفع بعض الشبهات حول القرآن، لأنه قد وجد فیه ما وافق شعرا موزونا، و کان وجود الفاصلة فیه هو الذی جعله کلاما ذا وزن إیقاعی ینظر فیه إلی غرضه الفنی مضافا إلیه الغرض التشریعی، و هما متعانقان. و تلک میزة ناصعة من مزایا الآیات باعتبار العبارات.

الفصل السادس، و کان بعنوان: الدلالة الصوتیة فی القرآن و قد عالج بأصالة استنتاجیة مظاهر الدلالة الصوتیة فی إذکاء حرارة الکلمة القرآنیة، و توهج عباراته، فلمس اللفظ المفرد، و تناغم الکلمة الواحدة فی وقع الجرس الموسیقی للصوت، و اقتصر علی مظاهر الدلالة فی مجالات قد تکون: متقابلة، أو متناظرة، أو متضادة، أو متوافقة، و قد کونت هذه الإشارات المرکزة بمجموعها أبعاد الدلالة الصوتیة فی القرآن ضمن المفردات المدروسة الآتیة:

۱- دلالة الفزع الهائل: و قد کشفت عن طائفة من الألفاظ التی استعملها القرآن تم اختیارها صوتیا بما یتناسب مع أصدائها فی السمع أو النفس أو الخارج، و استوحی دلالتها من جنس صیاغتها، فکانت دالة علی ذاتها بذاتها فی الفزع و الاشتباک و الخصام و العنف.

۲- الاغراق فی مدّ الصوت و استطالته، و کشف عن مقاطع صوتیة مغرقة فی الطول و المدّ و التشدید رغم ندرة صیغة هذه المرکبات الصوتیة فی اللغة، و نجد القرآن یستعمل أفخمها لفظا، و أعظمها وقعا فیستلهم من دلالتها صوتیا مدی شدتها و هدتها، و تستوحی أهلیتها بالتلبث الدقیق، أو تستقری أحقیتها بالترصد و التفکیر الحصیف.

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۰۳

۳- الصیغة الصوتیة الواحدة، و هی ظاهرة جدیرة بالعنایة لتسمیة الکائن الواحد النازل، و الآخر المرتقب المنظور بأسماء متعددة ذات صیغة هادرة، بنسق صوتی متجانس، للدلالة بمجموعة مقاطعه الصوتیة علی مضمونه فی الإیحاء و الرمز، و بوقعه الخاص علی کنه معناه، و من ذلک تسمیة: القیامة فی القرآن بأسماء متقاربة الأبعاد فی إطار الفاعل المتمکن المرید، و الکائن الحی القائم ۴- دلالة الصدی الحالم، فی استکناه الأصداء الرقیقة الهادئة لألفاظ ملؤها الحنان و الرحمة لدی تأدیتها معانیها ضمن أصواتها، و من خلالها مقاطعها، فتوحی بمؤداها مجردة عن التصنیع، و البدیع، فهی ناطقة بمضمونها، هادرة بإرادتها، دون إضافة بیانیة، أو إضاءة هامشیة.

۵- دلالة النغم الصارم فی التماس أصوات الصغیر فی وضوحها، و أصدائها فی أزیزها نتیجة التصاقها فی مخرج الصوت، و اصطکاکها فی جهاز السمع، فهی فی الکلمات تؤدی مهمة الإعلان الصریح عن الحدث، و هی فی العبارة تجسد حقیقة المراد فی التأکید علیه، فتعبر عن الشدة حینا، و عن العنایة حینا آخر، مما یشکل نغما صارما فی الصوت، و أزیزا مشددا فی السمع.

۶- الصوت بین الشدة و اللین، بملاحظة الصوائت و الصوامت من الأصوات، فالصوائت مأهولة فی الانفتاح المتکامل لمجری الهواء، فتنطلق مقاطعها فیه دون دویّ أو ضوضاء، فتؤثر فی الأسماع وضوحا و صفاء.

و الصوامت بخلاف هذا فهی تتسم بالضوضاء نتیجة احتباس الهواء، و جری النفس و ما ذلک إلا لتضییق مجری الهواء و اختلاسه، فتنطلق أصواتها محدثة الضجیج و الصوت الرنان، و کان تفسیر هذا و ذاک خاضعا بطبیعته لنماذج موفورة من ألفاظ القرآن العظیم.

۷- الألفاظ دالة علی الأصوات، و قد توافرت فی القرآن طائفة من الألفاظ الدقیقة عند إطلاقها، بکون اللفظ یدل علی ذات الصوت، و الصوت یتجلی فیه اللفظ نفسه، بحیث یستخرج الصوت من الکلمة، و تؤخذ الکلمة من الصوت، و هذا من باب مصاقبة الألفاظ للمعانی بما یشکّل أصواتها، فتکون أصوات الحروف علی سمت الأحداث، فیبرز

الصوت اللغوی فی القرآن، ص: ۲۰۴

بذلک تأهیل تسمیة الشیء باسم صوته، و ذلک من دقائق القرآن.

۸- اللفظ المناسب للصوت المناسب: و رأیت أن القرآن الکریم قد اختار اللفظ المناسب للصوت المناسب فی الموقع المناسب، فجاء کل لفظ بمکانه الصوتی من العبارة القرآنیة أو الجملة أو الآیة، و لاحظت أن استنباط کل هذه المقاسات صوتیا یوحی باستقلالیة الکلمة المختارة لدلالة أعمق، و إشارة أدق، بحیث یتعذر علی أیة جهة فنیة استبدال ذلک بسواه، إذ لا یؤدی غیره مراده، و ذلک معلم واضح من معالم الإعجاز اللغوی و البیانی فی القرآن.

کانت هذه أهم النتائج فی مفردات البحث، و خلاصة للجهود الصوتیة فیه علی وجه الإشارة و التمثیل، فشکلت بضم بعضها إلی بعض حیاة جدیدة فی مناخ القرآن لا أحسبها قد عولجت من ذی قبل باستقلالیة منظمة، فدلّ ما ورد فی البحث بکل جزئیاته و شذراته المتناثرة بین طیاته علی لمح ذی شأن فی أشعة هذا القرآن الذی یهدی للتی هی أقوم، عسی أن یکون لنا ذخرا یوم الدین، یوم یقوم الناس لرب العالمین، و صلی اللّه علی سیدنا محمد و آله الطیبین الطاهرین، و أصحابه المنتجبین و سلم تسلیما کثیرا.

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ

المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم - إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹